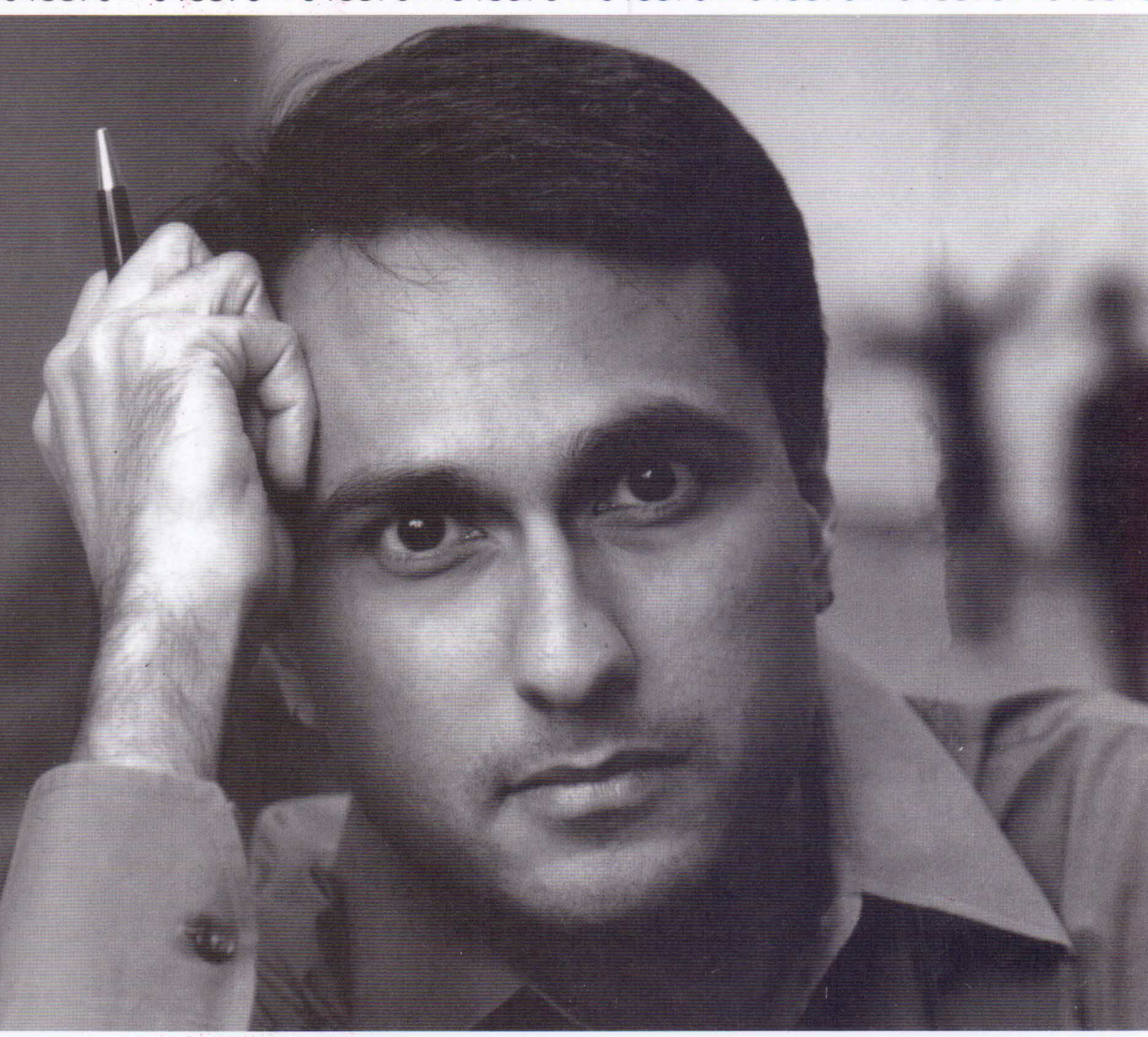
التعددية العقائدية

قصة مسلم أمريكى
الكفاح من أجل كيان جيل

إيبو باتل



"قصة الإكتشاف والأمل مكتوبة بأسلوب جميل"
الرئيس بيل كلينتون

ACTS OF FAITH

The Story of an American Muslim,

The Struggle for the Soul of Generation

By Eboo patel

هذا الكتاب

إن التعددية الدينية ليست مجرد تعايش أو توافق إجباري انه شكل من التعاون التفاعلى يؤكد هوية الجماعات وفقاً لتشكيل كل منهم .

التعددية العقائدية هي سرد رائع لنشأة مسلم في أمريكا و قد أصبح أحد قيادات الفكر الديني فى الولايات المتحدة يؤمن بالتعددية الدينية في المجتمع ، إن قصة "إيبو باتل" هي شهادة متفائلة و مؤثرة عن قوة الشباب وحماسه و إمكانية الحركة الشبابية للأديان على تغيير العالم إلى الأفضل.

إيبو باتل هو المؤسس و المدير التنفيذي لمنظمة "النواة الشبابية للأديان" وهي منظمة دولية غير ربحية تقوم ببناء حركة الشباب للتعاون بين العقائد، و يكتب بانتظام لصحيفة "واشنطن بوست" والإذاعة الوطنية العامة و شبكة سي. إن. إن. التلفزيونية، و قد حصل على لقب واحد من أفضل القيادات الأمريكية في تقرير"US News & World Report"، و عينه الرئيس أوباما في المجلس الاستشاري لمكتب البيت الأبيض للشراكات القائمة على الدين و الجوار، و قد حصل كتاب " التعددية العقائدية على جائزة الكتاب الديني من مؤسسة "جراوميار- Grawemeyer" المرموقة عن عام ٢٠١٠.



الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية
١٠٨١ شارع كورنيش النيل جاردن-سيتى - القاهرة

التعددية العقائدية

قصة مسلم أمريكي

الكفاح من أجل كيان جيل

التعددية العقائدية

قصة مسلم أمريكي
الكفاح من أجل كيان جيل

تأليف

إيبو باتل

ترجمة

نادية خيرى

This Work has been translated and published in the collaboration with the Arabic Book Program of the US Embassy in Cairo.

ISBN 978 – 0 – 8070 – 0622 – 1

رقم الإيداع :

حقوق النشر

الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية

١٠٨١ شارع كورنيش النيل – جاردن سيتى – القاهرة

ت: ٢٧٩٤٥٠٧٩ فاكس: ٢٧٩٤٠٢٩٥

إلى المدرسين.. إلى رواة القصص

أنا واسع و لدي وفرة

" فالت ويتمان"

ضجيج الإبداع

يتحول لموسيقى

"رابيندراناه طاغور"

إبدأ مشروعا ضخما و مجنونا

مثل نوح

"الرومي"

المحتويات

المقدمة

الحد الفاصل للعقيدة

من لا يزرع الزهور يأتي بالأشواك إذا لم تبن غرفا يمكن أن تطلق فيها أحاديث الحكمة علنا فأنت تبني سجنا.

شمس التبريزي

كان "إيريك رودولف" في المحكمة يقر بالتهمة ولم يكن يشعر بالأسف، لا بالنسبة لقنبلة المسامير التي يمكن أن تنفجر عن بعد والتي فجرها في مركز "المرأة الجديدة للرعاية الصحية لكل النساء" في مدينة برمنجهام بولاية ألاباما الأمريكية والتي أدت إلى مقتل ضابط شرطة خارج ساعات الخدمة وتركت ممرضة معاقة ونصف ضريرة، أو على قنبلة الاوليمبياد عام ١٩٩٦ في مدينة "أطلنطا" والتي قتلت شخصًا وأصابت العشرات وبعثت بموجات من الفزع والذعر بين المجتمع العالمي. أو حتى على رسالة الكراهية التي جاء فيها " نعلن بل وسوف نشن حربًا شاملة على النظام الشيوعي غير الرباني في نيويورك وعلى أربابكم البيروقراطيين والتشريعيين في واشنطون" والموقعة بعبارة "جيش الرب"، أو على تدنيس الكتاب المقدس بكتابة كلمة "قنبلة" على هامش النسخة الخاصة به.

والحقيقة أن "رودولف كان يشعر بالزهو والتحدي، فقد أعطى محاضرة للقاضي عن صحة أفعاله، كما كان يبدي الشماتة عند تذكره للضباط الفيدراليين وهم يمرون على بعد خطوات من مكان اختبائه، ويقر بدون خجل أن الإجهاض والمثلية الجنسية وكل ما يشير إلى "الاشتراكية العالمية" ما يزال في حاجة لأن "يتم التصدي له بلا هوادة" إنه يفعل ذلك باسم المسيحية مستشهدًا بنصوص من العهد الجديد: "قد جاهدت الجهاد الحسن، أكملت السعي، حفظت الإيمان ."

كانت "فليشيا ساندرسون" قد فقدت زوجها "روبرت" وهو ضابط شرطة في حادثة قنبلة "رودولف" في مدينة برمنجهام، وعرضت في جلسة المحاكمة شريطا لبعض الخطب أثناء جنازة زوجها، تذكر له الناس أنه كان يحتفظ بحلوى للأطفال في سيارة الدورية و أنه كان يجمع التبرعات المالية ليعوض إحدى الأسر عما سرق من هدايا عيد الميلاد من منزلها،

لقد أشارت "فليشيا ساندرسون" إلى "رودولف" و قالت للمحكمة: "إنه مسئول عن كل دمعة ذرفها أبنائي".

حكم القاضي "سي لينوود سميث" على "رودولف" مرتين بالمؤبد وشبهه بالنازيين و ذكر أنه صدم لعدم شعوره بالندم، إلا أن الكثيرون غيره شعروا بشيء من الفخر.

ربما كان "إيريك رودولف" فريدا إلا أنه لم يعمل بمفرده، فقد نشأ عن حركة وشجعته ثقافة، و في الغابات الواقعة غرب ولاية "نورث كارولينا" حيث هرب "رودولف" من السلطات الفيدرالية لمدة خمس سنوات فقد كان هناك من يهتف له و يساعدة على الاختباء و ينتج قمصان كتب عليها "إهرب يا رودولف اهرب"، و في اليوم الذي تم فيه القبض عليه أخيرا ، نقل عن سيدة من المنطقة أنها قالت " رودلف مسيحي و أنا مسيحية... هذه هي قيمنا.. و هذه هي غاباتنا."

من بين كل المعلومات التي نشرت عن رودولف استوقفتني جملة معينة: كتب رودولف موضوعا ينكر فيه المحرقة عندما كان في المدرسة الثانوية، فكيف كان لمراهق أن يتبنى وجه نظر كهذه؟

و الإجابة بسيطة: هناك من علمّه ذلك، كان لرودولف دائما مشاكل في المدرسة – عراك و تغيب عن المدرسة فلم يكن متأقلما أبدا ، مات والده و هو مايزال صغيرا و قابلت أمه ثوارا متمردين على المعتقدات ممن ينشرون ثقافة الكراهية و اتبعتهم، أولهم كان "توم برانهام" الذي شجع أسرة رودولف على نقل سكنها بالقرب من مسكنه في مدينة "توبتاون" بولاية "نورث كارولينا"، بدأ "إيريك" مبكرا رسم شعار النازي في كتبه المدرسية في مدرسة "نانتهالا الثانوية" المجاورة، و بعد ذلك نقلت والدة إيريك مسكن الأسرة إلى مدينة "شيل سيتي" في ولاية ميسوري لتكون بالقرب من "دان جايمان" و هو من الشخصيات القيادية في حركة "الهوية المسيحية" المتطرفة، كان "دام جايمان" ناظرا لمدرسة ثانوية و يعرف كيف يؤثر على الشباب، وقد أقام علاقة أبوية مع إيريك و ألحقه ببرامج للشباب في حركة " الهوية المسيحية" و أكد على قراءاته كتابات الحركة، و لقن "جامان" إيريك أن الكتاب المقدس هو تاريخ الجنس الآري الأبيض و أن اليهود هم من سلالة الشيطان و جزء من قبيلة تدعى "شعب الوحل"، أن العالم في سبيله لمعركة حاسمة بين شعب الله و خدام الشيطان و أن المسألة تتوقف

على "وعي " الأريين لتأمين النصر للجنس الحق، صار إيريك يطلق على التليفزيون "الجهاز الكهربائي اليهودي "، و كان يحفر الصليب المعقوف على أثاث غرفة المعيشة في بيت والدته، و كانت مكتبته تضم إصدارات معادية للسامية مثل " بروتوكولات حكماء صهيون" و "يوميات آن فرانك :مجرد خدعة" و" اليهودي الدولي". و تحت رعاية جايمان و دعاة راديكاليين آخرين حدث لمشاعر الكراهية لدى إيريك رودولف ما يحدث دائما لمشاعر الكراهية : فقد انتشرت.

و أتصور أن هؤلاء الدعاة قد شعروا بالزهو عندما أجاب رودولف على سؤال القاضي "سميث" بكل فخر عندما سأله عما إذا كان هو من فجر القنبلة في برمنجهام "نعم فعلت ذلك بالتأكيد".

يقوم طلاب مدرسة متوسطة في مدينة "ويتويل" بولاية "تينيسي" بتنظيم جولات لواحد من أهم النصب التذكارية للمحرقة في العالم: و هو عبارة عن عربة سكة حديد كانت تستخدم لنقل اليهود إلى معسكر "أوشفيتز"، و يطلب الشباب من الزوار أن يتخيلوا ماذا سيكون شعورهم لو كانوا واحدا من السبعين أو ثمانين يهودي المتكدسين في هذا المكان الضيق وهم يسمعون صليل عجلات القطار الذي يقلهم للتعذيب و الموت، و قد شرحوا أن عربة السكة الحديد ممتلئة بملايين القصاصات الورقية كل منها ترمز لأحد اليهود الذين قتلهم النازيون، ويقول أحد الطلاب أن رؤية أي قصاصة ورق الآن تجعلنا نفكر في روح أزهقت، وعلى مدخل النصب التذكاري لافتة مكتوب عليها :" نطلب منكم التوقف و التأمل في شرور التعصب و الكراهية." وعلى لافتة عند باب الخروج كتب:" ماذا أستطيع أن أفعل لكي أنشر رسالة المحبة و التسامح التي بينها هؤلاء الأطفال بهذا النصب التذكاري؟"

وقد عبر طالب من مدرسة "ويتويل" كان يرافق الزوار وهو على وشك التخرج من الصف الثامن قائلا :" مستقبلا عندما أعود و أراه مع علمي بأني كنت هنا لأقوم بما أقوم به فإن هذه لن تكون مجرد إحدى الذكريات و لكن سوف تكون شعورا بالامتنان لأنك استطعت أن تغير الطريقة التي يفكر بها بعض الناس عن غيرهم من الناس".

"ويتويل" هي بلدة يقطنها أقل من ألفي نسمة تقع على مشارف "شاتانوجا" في منطقة مناجم

الفحم في جنوب شرق "تنيسي" على بعد حوالي منة ميل من المكان الذي ولدت فيه جماعة "كو كلوكس كلان"، فيها إشارتي مرور وعدد كبير من اللافتات مكتوب عليها "بارك الله في أمريكا – God Bless America "، و قد تم إغلاق المناجم منذ حوالي ثلاثين عاما و تركت المنطقة أكثر فقرا مما كانت عليه من قبل، و يمكنك أن تعد الأسر من السود و من أصل لاتيني في "ويتويل" على أصابع اليدين و لن تحتاج لهذه الأصابع لتعد عدد الكاثوليك أو اليهود أو المسلمين لأنه لا يوجد أي منهم فيها.

ماذا يدفع أطفال البروتيستانت البيض في منطقة فقيرة لها تاريخ في التعصب للاهتمام بتثقيف الناس عن اليهودية؟ و الإجابة بسيطة: لأن هناك من علمهم ذلك. كانت ناظرة مدرسة "ويتويل" المتوسطة "ليندا هوبر" تريد لطلاب مدرستها أن يتعرفوا على الثقافات والشعوب التي تختلف عنهم، "أطفالنا محترمون ومفكرون و طيبون إلا أنهم متماثلون كثيرا، و عندما نقابل شخصا لا يشبهنا لا يكون لدينا أدنى فكرة."

أرسلت أحد المدرسين ألى مؤتمرعن التنوع وعاد بفكرة مشروع للتثقيف عن محرقة اليهود. قالت هوبر "هذا ما نحتاج إليه."

وعلى مدى عدة سنوات تالية درس طلاب "ويتويل" هذه الحقبة الرهيبة وقابلوا اليهود الناجين من المحرقة و تعرفوا على التراث الثري لليهودية و قاموا بتعليم كل من يستطيعون مقابلته عن الدور الكبير الذي يستطيع الشباب ان يلعبه في الدعوة للتعددية.

سمعت "لينا جيتر" عن المشروع – وهي واحدة من الناجين من المحرقة و تبلغ من العمر خمسة و تسعين عاما- فكتبت رسالة للطلاب:" لقد شاهدت ما يمكن أن يؤدي إليه التعصب و عدم المبالاة، وأني أشعر بالامتنان أنني في هذا الوقت المتأخر من العمر استطعت أن أرى وأسمع أن تدريس التسامح ما يزال حيا و بخير و يأتي ثماره، عندما توجه الشباب فإنهم يفعلون الصواب، و مع هذه الدموع في عيني إني أحني رأسي أمامكم، سلام".

إن "إيريك رودولف" و شباب "ويتويل" يعتبرون اجابتان مختلفتان تماما على سؤال واحد من أهم أسئلة عصرنا : في هذا العالم بما فيه من تدين متأجج و تفاعل شديد كيف سيتعامل الناس من أصحاب الخلفيات العقائدية المختلفة مع بعضهم البعض؟ كان رد "رودولف" على الناس المختلفين عنه هو صنع القنابل المدمرة، وكانت استجابة طلاب مدرسة

"ويتويل" للتنوع هى بناء جسور التفاهم، إن "رودولف" شمولي متدين و طلاب "ويتويل" متدينون التعدديون و كلاهما على جانب مختلف من خط العقيدة.

منذ مائة عام مضت قال العالم الأمريكي الأفريقي "دبليو إي. بي. دو بوا" مقولته الشهيرة : " مشكلة القرن العشرين هي مشكلة اللون" و أعتقد أن القرن الحادي و العشرين سوف يتشكل بمسألة الحد الفاصل للعقيدة، فعلى جانب من جانبي الحد الفاصل للعقيدة يوجد المتدينون الشموليون وهم يعتقدون أنه لا يوجد سوى تفسير واحد لديانة واحدة لها الحق في البقاء و اعتناقها و الانتماء إليها على وجه الأرض، و لابد من ترهيب أو تغيير أو إدانة أو قتل كل من يخالف ذلك، و على الجانب الآخر من الحد الفاصل للعقيدة يوجد المتدينون التعددون الذين يرون أن الناس الذين يؤمنون بالعقائد الأخرى و الذين ينتمون إلى طوائف أخرى يجب أن يتعلموا العيش معا، إن التعددية الدينية ليست مجرد تعايش أو توافق إجباري، إنه شكل من التعاون التفاعلي يؤكد هوية الجماعات وفقا لتشكيل كل منهم . بينما يبرز أن خير كل منهم و جميعهم يتوقف على صحة الكل. إنه الاعتقاد بأن أفضل ما يخدم الصالح العام هو أن تتاح الفرصة لكل جماعة أن تقدم أسهامها الفريد.

المتدينون الشموليون لهم ميزة فريدة فهم قادرون على معارضة بعضهم البعض و العمل معا في نفس الوقت، يقول أسامة بن لادن أن المسيحيين ينوون القضاء على المسلمين، و يقول "بات روبرتسون" أن كل ما يريده المسلمون هوالسيطرة على المسيحيين، ويشير بن لادن إلى "بات روبرتسون" على أنه دليل حي على ما يقوله، و يشير "روبرتسون" إلى بن لادن على أنه دليله للإثبات، و يقول بن لادن أنه ينقل المسلمين إلى جانبه فى الحد الفاصل للعقيدة، و يدعي "روبرتسون" أنه ينقل المسيحيين لجانبه هو، و لكن إذا نظرت للأمر من زاوية معينة ترى أنهما ليسا على جانبين متضادين على الإطلاق، فإنهما يقفان جنبا إلى جنب و كتف إلى كتف في تآخ لا مثيل له فهما فريقان من الشموليين يعملان جماعيا ضد حلم تحقيق حياة مشتركة للجميع.

إن ناتج مسألة الحد الفاصل للعقيدة يتوقف على الجانب الذي يختاره الشباب، لقد لعب الشباب دورا رئيسيا في الحركات الاجتماعية، بدءا من النضال ضد الفصل العنصري في جنوب أفريقيا إلى ظهور الحزب النازي في ألمانيا، و نحن نعيش في عصر حيث شعوب

أكثر المناطق توترا دينيا في العالم هي شعوب شابة بشكل ملفت للغاية، فإن خمسةو سبعين بالمئة من شعب الهند الذي يبلغ تعداده أكثر من مليار نسمة لم يبلغ سن الخامسة و العشرين، و خمسة و ثمانون ممن يعيشون على الأراضي الفلسطينية يقل سنهم عن الثالثة و الثلاثين، و أكثر من ثلثي شعب إيران تحت سن الثلاثين، و متوسط السن في العراق هو التاسعة عشرة و النصف، كل هؤلاء يقفون على جانب الحد الفاصل للعقيدة، فإلى رسالة من هم يستمعون؟

بمشاهدة "قصاصات ورق" وهو الفيلم التسجيلي عن طلاب " ويتويل" لم اتمالك نفسي من التعجب: ماذا لوكانت "ليندا هوبر" قد سبقت "دان جيمان" إلى "إيريك رودولف"؟ ماذا لو كان رودولف قد حضر" الكنيسة الميثودية الاولى في "ويتويل" و التي استضافت مشروع أحداث المحرقة بدلا من حضوره برامج الشباب الخاصة بالهوية المسيحية وماذا لو كان ساعد في تجميع قصاصات الورق مع الأطفال الآخرين في مدرسة "ويتويل" المتوسطة بدلا من دراسته مع المتعصبين أو لو كان قد قرأ كتاب "آن فرانك": "يوميات فتاة صغيرة" بدلا من كتاب "يوميات آن فرانك: خدعة؟" إن "إيريك رودولف" الإرهابي الديني لم يكن من الممكن تفاديه كما لم يكن أيضا تفادي بناة الجسور من الشباب في "ويتويل"، لقد تم تلقين كل منهم بعناية و عن عمد.

يتناول هذا الكتاب الكيفية التى يتحول بها بعض الشباب إلى أبطال للتعدد الديني بينما يتحول آخرون إلى الجنود المشاة للاستبداد الديني"، النظرية بسيطة: المؤثرات لها أهميتها و البرامج لها قيمتها و الموجهون يحققون فارقا و المؤسسات تترك علاماتها، فإذا راجعا في حياة الإرهابيين الدينيين من الشباب سنجد شبكة من الأفراد و المنظمات التي قامت بتشكيلهم، فهؤلاء القتلة الصغار ليسوا في معظم الحالات من الأفراد المختلين عقليا بشكل كبير، و لكنهم أطفال وقعوا في أيدي مسيطرة و قاتلة، و في كل مرة نرى فيها مراهق يقتل باسم الرب علينا أن نتصور يدين خفيتين من خلفة تبينان له كيف يصنع قنبلة أو يصوب سلاحاو تعطيانه دليلا للأدعية التي يقولها عند ارتكابه جريمة القتل وتثبتان يديه المرتعشتين بحيث تصبح صلبة و خشنة و تباركانه عندما يقرر القيام بالعملية، وحينئذعلينا أن نتساءل: لماذا لم تكن أيدي الذين يرعون التعددية هي التي شكلت هذا الغلام بدلا من أيدي المتدينين المستبديين؟

إن التطرف الديني هو حركة يقوم بها الشباب سواء كانوا من الوطنيين الهندوكيين أو الحاخامات ممن

امتلأت قلوبهم بالكراهية أو دعاة "الهوية المسيحية" أو المسلمين الشموليين الذين يستغلون رغبة الشباب في أن يكون لهم هوية واضحة و تأثيرقوي، و نحن نشاهد نجاحاتهم في العناوين الرئيسية لصحفنا في كل يوم.

إن التعاون بين الديانات يكون عادة في شكل مؤتمر يجمع كبار القيادات الدينية للتحدث، و مما لا شك فيه أن هؤلاء القادة يقومون بدور حاسم في بناء الجسور بين الأديان ، لقد قطعوا شوطا هاما في الفقه الديني و حددوا إطارا للتفاهم بين الأديان وبعثوا برسائل تشير إلى أن التعاون مع صاحب الديانة " الأخرى " ليس ممكنا فحسب بل هو ضروري، و لكن قليل من أبناء جيلي من شاركوا في ذلك.

أنا أمريكي مسلم من الهند، كانت فترة مراهقتي سلسلة محكمة من الرفض لمختلف أبعاد معتقداً أن أمريكا و الهند و الإسلام لا يمكنهم التعايش داخل نفس المخلوق، و إذا أردت أن أكون واحدا منها فلا يمكنني أن أكون لأى من الاثنين الآخرين، و قصة نضالي لفهم أن الميراث المتعدد التي أنتمي إليه قد يثري أحدها الأخر و لا تتعارض معه هي قصة جيل من الشباب يقف عن مفترق طريق الميراث وطريق الاستكشاف محاولا اتخاذ الطريقين في نفس الوقت. هناك صلة شديدة بين التوصل لاحساس بالانسجام الداخلي و بين بناء الالتزام بالتعددية، و هذا يتوقف تماما على من يقابلونك في مفترق الطرق.

الفصل الأول

مفترق الطرق في أزمة الهوية

يستطيع المرء أن يواجه ما في الآخرين بما يستطيع أن يواجهه في نفسه، وبناء على هذه المواجهة يتوقف مقدار حكمتنا وتعاطفنا. وهذه الطاقة هي كل ما نجده في أنقاض الحضارات المندثرة وهي الأمل الوحيد لحضارتنا.

جيمس بالدوين – لا أحد يعرف اسمي (Nobody Knows My Name)

كان حسيب حسين يتجه ويده اليسرى معلقة قليلا على حافة جيب سرواله الجينز إلى محطة "ليوتن" للسكك الحديدية قبل السابعة والنصف صباح يوم ٧ يوليو عام ٢٠٠٥، وعلى وجهه تعبير لا مبالٍ وعلى ظهره حقيبة، يصاحبه ثلاثة شبان. يبدون كأي مجموعة أخرى من الشباب تتجه فى جولة ليوم واحد لزيارة المتاحف وقاعات الفنون في لندن. كان يرتسم على وجوههم جميعًا تعبيرًا فاترًا وكانوا جميعا يحملون حقائب على ظهورهم.

لكن ما يحملونه لم يكن زجاجات ماء وقصص لقراءاتهم الصيفية، بدلاً من ذلك كانت كل حقيبة تحتوي على مزيج صنع بعناية من المبيض الذي يستخدم مع صبغات الشعر ومواد حافظة للأغذية ومواد كيماوية حرارية.

كانت حقيبة حسيب حسين آخر واحدة تنفجر في التاسعة وسبعة وأربعين دقيقة صباحًا في حافلة ذات طابقين بالقرب من ميدان "تافيستوك" وتنتزع الدور العلوي وتقتل حسيب وثلاثة عشرة آخرين، كان حسيب في الثامنة عشر من عمره.

قبل ذلك بساعة، في محطة قطار الأنفاق "راسل سكوير" على بعد بنايات قليلة فجر"جيرمان ليندسي" حقيبته، وكانت الأكثر فتكًا من بين التفجيرات الأربعة، إذ دمرت العربة الرئيسية للقطار رقم ٣١١ المتجه جنوبا وقتلت ستة وعشرين شخصًا بالإضافة إلى صاحب التفجير، كان "جيرمان" يبلغ من العمر تسعة عشر عامًا.

حدث الانفجاران الآخران بعد لحظات من انفجار محطة "راسل سكوير" فقد جلس "محمد صديق خان" في عربة القطار رقم ٢١٦ للخط الدائري "سيركل لاين"، وبعد لحظات

من تركه محطة "إدجوير رود" متجهًا غربًا إلي محطة "بادينجتون" مزقت المتفجرات التي كان يحملها على ظهره العربة التي يقلها مثل فتاحة العلب وأثرت على قطار قادم من اتجاه الشرق، قتل ستة أفراد بالإضافة إلى محمد، كان محمد في الثلاثين.

وعلى الجانب الآخر من وسط مدينة لندن في الجانب الشرقي الذي يسكنه المسلمون بشكل مكثف فجر "شهزاد تنوير" نفسه في قطار خط "سيركل لاين" الذي يغادر محطة "ليفربول ستريت" متجهًا إلى "ألدجيت"، وعندما أضيئت الأنوار كانت أرضية القطار ممتلئة بالقتلى المدرجين بالدماء. قتل سبعة أشخاص بالإضافة إلى مرتكب التفجير، كان شهزاد في الثانية والعشرين .

كانت "شهارا إسلام" هي أول من تم دفنه من بين القتلى، وهي بنغالية مسلمة من مواليد بريطانيا تبلغ العشرين وكانت تستقل الحافلة رقم ٣٠ في طريقها لعملها كصرافة في المصرف التعاوني "كوأوبراتيف بنك" فرع "إينجيل". ولا أستطيع أن أمنع نفسي من تخيلها وهي تبتسم لقاتلها الشاب طويل القامة الجذاب والقاتل حسين حسيب عندما اعتلى القطار مثقل بالموت المستقر في حقيبة ظهره، كان الأحرى بهما أن يكونا صديقين يناقشان معًا التحديات التي يواجهها الجيل الثاني من مسلمي جنوب آسيا الذين يعيشون بين الإباحية الرخيصة لثقافة الشباب البريطاني والتمسك التقليدي بالتقوى في بيوت أبائهم. قال أهلها أثناء الجنازة " إبنتنا رجعت إلى ربها شهيدة مدرجة بالدماء" - وهمس لها بالدعاء سبعة آلاف من المشيعين من المسلمين واليهود والهندوس والسيخ والزرادشتيين.

يعيش سائر العالم في لندن وعندما تنفجر القنابل يموت العالم هناك. كانت "جلاديس واندوا" التي ولدت في غانا تركب الحافلة رقم ٣٠ في طريقها من وظيفتها كعاملة نظافة في جامعة "يونيفرسيتي كوليدج" في لندن إلى فصل دراسي عن إدارة المساكن. وكان "جيل هارت" وهو موظف في هيئة الاتصالات البريطانية قد شغل مناصب تطوعية بدأت برئيس لحملة التضامن البولندية في بريطانيا العظمى إلى نائب رئيس " للجمعية الإنسانية البريطانية"، وكان من النشطاء في حركة السلام وعضوًا في جمعية مكافحة الرق، وقد أصدرت أسرته بيانًا جاء فيه: "من المأساوي أن يسقط ضحية لنفس الشرور التي كان يكافحها". أما "أنطوني فتايي- وليامز" وهو نيجيري الأصل ولد من أم مسيحية وأب مسلم فقد قتل أيضا في الحافلة،

وكانت مهنته الهندسة وكان متحمسًا للمصالحة في بلده الأصلي نيجيريا، وتساءلت أم "أنطوني" في كلمة لها بعد التفجير:"كم عدد قلوب الأمهات المفروض عليها أن تحترق؟"

يفتتح الكاتب "تيري ماك ديرموت" كتابه "الجنود الممتازون – Perfect Soldiers" عن خاطفي الطائرات في ١١ سبتمبر بصورة محمد عطا، المشتبه في كونه قائد المجموعة، وهو يتسكع حول شقته في مدينة هامبورج بألمانيا بخفه الأزرق المكشوف. ويبدو من غير المعقول أن يكون هذا الشخص المنعزل الهزيل مسئولاً عن مقتل ما يقرب من ثلاثة الآف من المواطنين الأمريكيين والرعايا الأجانب وعن التحول العميق الذي حدث في أعقاب ذلك في الشئون الدولية، كتب "ماك ديرموت" : كنا نريد لهؤلاء الوحوش أن يكونوا من الضخامة ومن الشراسة الفائقة بحيث يكونوا بشكل ما متناسبين مع جرائمهم"، إلا أن العالم مكان غريب. فبعد أن قام "ماك ديرموت" بدراسته النهائية في حياة المختطفين التسعة عشر أضطر أن يختتم بقوله "إن رجال ١١ سبتمبر كانوا للأسف - على ما اعتقد- رجالا عاديين".

وهكذا كان رجال ٧ يوليو ٢٠٠٥، كان عنوان الموضوع الذي نشرته صحيفة "نيويورك تايمز"، " جيران المشتبه فيهم يقولون لم يكن هناك ما يونبئ بالشر"، إن "شهزاد تنوير" مفجر قنبلة "ألدجيت" الذي يبلغ من العمر إثنين وعشرين عامًا يحب نسخة "ألفيس بريسلي" من أغنية "إيدي أرنولد" : اجعل العالم يبتعد (Make the World Go Away)، وقال عم شهزاد "كنت أظن أن ما يهتم به فقط هي لعبة الكريكت" وقد ارتسمت على وجهه علامات الانزعاج وعدم التصديق، كان "شهزاد" يعمل في محل والده الناجح الذي يبيع السمك والبطاطس ويقود في أنحاء المدينة السيارة المرسيدس الحمراء التي تملكها الأسرة. كان يرتدي ملابس من العلامات التجارية الشهيرة ويمارس التمارين الرياضية بانتظام، وقد درس علم الالعاب الرياضة في جامعة "ليدز متروبوليتان". وكان أصدقائه يصفونه بأنه محبوب للغاية وأنه قادر على الحديث في الرياضة والسيارات أكثر من أي شيء آخر.

محمد صديق خان كان مشرفًا تعليميًا في "مدرسة هيلسايد الابتدائة"، وكان محل تقدير أهالي الطلاب جميعهم وكذلك الطلاب وأعضاء هيئة التدريس، وذلك لالتزامه بمساعدة الأطفال المهاجرين حديثًا في كل شيء من دروس المدرسة إلى الألعاب الرياضية. وعندما كان في سن المراهقة كانوا يطلقون عليه اسم " سيد" وكان يرتدي حذاء رعاة البقر كتعبير عن

انبهاره بكل ما هو أمريكي. وعندما كبر كان هو الشاب الذي يذهب إليه أبناء جنوب آسيا والمسلمين في "ليدز" أذا ما احتاجوا للمساعدة، وقد ذكر شاب من المنطقة لصحيفة "نيويوك تايمز":" لقد أعطاني نصيحة جيدة وكان رأسه الذي فوق كتفيه جيدًا، لقد كان عقلانيا". كانت زوجة خان داعية للإسلام المعتدل ولحقوق المرأة وكانت حماته قد حصلت على تكريم من الملكة إليزابيث لعملها الاجتماعي.

"جيرمين ليندسي" كان يوصف بأنه من الطف الأطفال في المدرسة فهو ذكي ومضحك ومبتسم دائما، ولد في جمايكا واعتنق الإسلام في الخامسة عشر من عمره، وأصبح مشهورًا بترتيله للقرآن في الجامع الكبير بمدينة ليدز وبجهوده الكبيرة لجعل زملائه يعتنقون الإسلام. تزوج جرمين من بريطانية بيضاء اعتنقت الإسلام ورزقا معا بطفل. لم تستطع زوجته أو أمه أن تصدقا أنه تحول لإنتحارى، وتذكرت والدته حزنه على ضحايا ١١ سبتمبر، ولم تتقبل زوجته فكرة أن جيرمين قد تركها خلفه هي وطفلهما.

كان حسيب حسين هو أصغرهم سنًا وأكثرهم خجلاً وأقلهم روعة وأكثرهم قابلية للتأثر، عندما كان طفلاً كان حسيب يشترى الحلوى من محل "أجمل سينغ" على الناصية مثله مثل كل الصغار في "هولبيك"، وهو حي يختلط فيه السكان من كل الأعراق ويقع في مدينة "ليدز" البريطانية. ذهب لمدرسة تبعد عن بيته ببضعة بنايات وكان يهوي ركل كرة القدم المصنوعة من البلاستيك في الشارع الذي يعيش فيه. كان والده يعمل في مصنع وكانت أسرته الموسعة والمترابطة تعيش في المنطقة منذ ثلاثين عامًا، كان بلاغ أمه للشرطة بأن حسيب لم يعد للبيت من رحلته إلى لندن مع أصدقاء له وأنه لا يرد على هاتفه الجوال، هو الذى فتح قضية التفجيرات .

كان طويل القامة ونحيف وحاول حسيب حسين كثيرًا أن يتوارى في خلفية مدرسة "ماثيو موراي" الثانوية إلا أن الصبية البيض الأشداء كانوا يهاجمونه، وكانت الخطب في المسجد المحلي نادرًا ما تتناول هذه الحقيقة، كانت نصيحة أبويه له هي أن يصلي ويدعو أكثر وأن يتفوق في المدرسة. ثم بدأ في مصاحبة مجموعة من الباكستانيين المسلمين الذين كانوا يردون الهجمات وقد وفرت له هذه المجموعة المساندة والهوية إلا أنها كانت منفصلة عن المجتمع الإسلامي التقي في بيته وفي المسجد. ولما شعر أبواه بالخوف من أن يضل طريقه أرسلاه

للخارج ظانين أن التأثير الديني من العالم الإسلامي سوف يقومه.

لاحظ قريب له أن حسيب عاد ليس فقط أكثر تدينا ولكنه أصبح مسيسًا وأكثر تشددًا في أرائه، وذكر هذا القريب لصحيفة "جارديان": "لقد اعتقدت أنه تعرض لغسيل مخ"، وبدأ حسيب ينفق وقتًا أطول مع محمد صديق خان، وكان خان قد رفض مؤخرًا مساجد ليدز لأنها تمارس ما أسماه بشكل مخفف وزائف للإسلام، وانضم للدائرة الداخلية لمركز إقرأ التعليمي.

عندما جاب المسلمون الراديكاليون ليدز لنشر رسالتهم عن السلوك الإسلامي الصحيح وبث الكراهية للغرب كانوا يعقدون لقاءاتهم في مركز إقرأ التعليمي، علاوة على الكتب الإسلامية التقليدية مثل القرآن والحديث والكتب الخاصة بالشريعة الإسلامية كان المتجر يضم مجموعة كتابات عن نظريات التآمر الغربي ضد الإسلام، ويضم جزءًا من المجموعة اسطوانات مدمجة تبين مشاهد لمسلمين يجري تشويههم وقتلهم في الشرق الأوسط ومنطقة البلقان والشيشان جنبًا إلى جنب مع صورة الرئيس جورج بوش وهو ينطق كلمة "كروسيد" – أي الحرب الصليبية. وقد ذكر أمير علي وهو مسلم يبلغ من العمر ستة وثلاثين عامًا ويعيش في مدينة "ليدز" لوكالة "أسوشيتد بريس": "كانت زلة لسان تثير مشاعر الغضب فعلاً"، ويصف علي كيف عرض عليه صاحب المكتبة دروسًا في الثقافة الدينية. بدأت الدروس أولاً في الطريقة الصحيحة لأداء صلاة المسلمين، ثم جاءت المحاضرات عن الظلم الواقع على المسلمين حول العالم، وبعد ذلك الاسطوانات المدمجة. "يمكنك أن ترى كيف يمكن أن تحول أي شخص إلى الكراهية السافرة... أنا أعلم أن هذه دعاية صنعت لتجعلك تشعر بهذا، ولكن ما بالك بالشباب الصغير الذي يرى في هذه المواد نداء للقيام بشيء ما؟"

هذا ما كان يريده بالضبط الشيخ "عمر بكري محمد"، وهو من مواليد سوريا، متوسط العمر وأب لسبعة، ويعيش في شمال لندن منذ نحو عقدين، يعينه جزئيًا شيك بأكثر من ٥٠٠ دولار شهريًا من جمعية خيرية بريطانية قبل أن يغير مقره متجها للشرق الأوسط بعد تفجيرات لندن بوقت قصير. وقد ساعد في تأسيس حزب التحرير، والذي تعد مهمته إعادة تأسيس الخلافة الإسلامية. ويتعلم مريدي الحزب في دوائره الدراسية أن الهوية الإسلامية تتعارض بالضرورة مع الغرب. وقد اجتذب مؤتمر الحزب في مدينة "برمنجهام" بانجلترا عام ٢٠٠٣ ثمانية آلاف شخص، كثير منهم من الشباب. وقال "زينو باران" مدير الأمن الدولي

وبرامج الطاقة في "مركز نيكسون" (وهو مؤسسة للسياسة الخارجية غير الحزبية في الولايات المتحدة) "ينتج الحزب آلاف العقول التي تم التلاعب بها، ومن "يتخرجون" من الحزب يصبحون أعضاء في جماعات مثل تنظيم القاعدة... إنه يعمل مثل جهاز البساط الناقل للارهابيين." ترك الشيخ عمر الحزب أو طلب منه مغادرته بعدما صرح بأنه يجب اغتيال رئيس الوزراء البريطاني "جون ميجور" لدوره في حرب الخليج عام ١٩٩٠/١٩٩١. وبعد مغادرة الشيخ عمر حاول الحزب إعادة هيكلة نفسه بحيث يصبح منظمة غير عنيفة ملتزمة برؤية إسلامية متزمتة.

وبما أنه أصبح غير قادر على الدعوة للعنف من خلال الحزب شرع الشيخ عمر في تأسيس منظمة راديكالية للشباب المسلمين أسماها "المهاجرون" في أوائل التسعينات من القرن الماضي، وقد استخدم هذا المنبر للإدلاء بخطابات، كما نشر رسائل على الشبكة الدولية التي تدعو الشباب البريطاني المسلم لإطلاق الجهاد ضد الغرب في العراق وإسرائيل والشيشان. وأشار إلى مرتكبي ١١ سبتمبر على أنهم التسع عشر الرائعين. وظهرت على ملصقات دعائية في إحدى مناسبات "المهاجرون" صورة لكل من المخططين أمام خلفية متوهجة. وقد حمل الشيخ عمر السياسة الخارجية البريطانية مسئولية هجمات ٧ يوليو وقال عن مئات الشباب البريطاني المسلم الذين يحضرون خطاباته "إنهم يعلمون أن يدي رئيس الوزراء مدرجة بدماء المسلمين في فلسطين والعراق وفي أفغانستان، ونسمع من الكثيرين الذين يقولون أنهم يريدون المهاجمة".

الشيخ عمر بارع في بناء المؤسسات وإنشاء منظمات الشباب. إنه يفهم بالضبط الأزرار التي يجب أن يضغط عليها لكي تجعل الهوية الدينية السلسة تتحول إلى التزام إرهابي. ويبدو أن الدعاة الإسلاميين المتنقلين الذين ألهموا الدائرة الدراسية الراديكالية في مركز إقرأ التعليمي والمحليين الذين نظموها قد تعلموا المهنة من خلال شبكات الشيخ عمر.

كيف أصبح حسيب حسين الخجول الانطوائي مفجراً انتحاريا؟ لقد وصل إليه أتباع الشيخ عمر قبل أن نصل نحن إليه.

بعد سيل من المكالمات الهاتفية على الجوال للأصدقاء والعائلة والاطمئنان على أنهم سالمين، وبعد الدعاء الذي رددناه أنا وزوجتي من أجل الضحايا وكل أولئك الذين ظلوا جرحى

بسبب من فقدوه، شكرت ربي لأنه أنقذني ثانية. ففي حياتي كان العنف الديني موجودًا دائمًا في الحيز الرمادي بين الواقع والخيال. كان قريبي في بومباي يصف من حبسوا أنفسهم في شققهم عام ١٩٩٣ حينما كان غوغاء من الهندوس المسلحين بالمناجل الماتشيتية يجوبون الشوارع باحثين عن المسلمين لقتلهم. وتروي خالتي الخوف البارد الذي انتابها عندما سمعت دوي الانفجار الكبير بسبب تفجير القاعدة للسفارة الأمريكية في نيروبي عام ١٩٩٨. كان زوجها – وهو دبلوماسي – قد غادر قبل ذلك بدقائق، وظلت تشكر الله لأسابيع أن رحلته لوسط المدينة قد تأخرت في هذا اليوم. وفي نوفمبر عام ١٩٩٩، غادرت متأخرًا متوجهًا لموعد في مقهى على شط الماء في مدينة "كيب تاون" بجنوب أفريقيا، وعندما اقتربت بدأت ألاحظ شظايا زجاجية منتشرة ثم سمعت أبواق سيارات النجدة، سألت أحد أفراد الشرطة "ماذا يحدث؟" أجاب " لقد انفجرت قنبلة في محل بيتزا"، وكان هذا المحل ملاصقـًا للمقهى الذي كان من المفروض أن أقابل صديقـًا فيه.

عشت في لندن لمدة ثلاث سنوات تقريبًا، حيث كنت أعد البحث للحصول على درجة الدكتوراه. وقد استرجعت ذكريات غالية وصورة واضحة لكل موقع تم تفجيره، ففي "إيدجوير رود" و"ألدجيت" أفضل محال الكباب في المدينة، وساحة "تافيستوك سكوير" كانت منتزهي المفضل حيث بها أفضل النصب التذكارية المناهضة للحرب. لقد ركبت المصعد في محطة "راسل سكوير" لقطار الأنفاق لعدة مرات كل سنة وسرت لعدة بنايات لأصل للمتحف البريطاني حيث كنت أقف أمام اللوحات الرخامية "إلجين ماربلز" آملاً أن توحي عبقرية القدامى شيئـًا لأطروحتي الدراسية.

ربما لن تنعم ساحة "تافيستوك سكوير" أبدًا بنفس الهدوء ، ولن يشعر خط مترو الأنفاق الدائري "سيركل لاين" بالاستقرار المعتاد، ولن يمكن ركوب المصعد في محطة "راسل سكوير" دون تذكر أولئك الذين قتلوا أدناه، كل شيء قد تغير إلى الأبد على يد أربعة من الشبان ممن كانوا يؤدون الصلاة بنفس اللغة التي أعتبرها لغة مقدسة.زحف علي شعور غريب وأنا أحملق في منفذي تفجيرات لندن، وبصفة خاصة الثلاثة الذين يرجع تاريخهم إلى شبه القارة الهندية. متاعبهم في المدرسة وعلاقاتهم بأبويهم وعدم مبالاتهم بالإسلام كمراهقين، الذي أعقبه انخراط مكثف – كان كل ذلك مألوفـًا، وشعرت بومضة من التقارب من مكان عميق

بداخلي، كان مقطع من قصتهم هو جزء مني.

أستطيع أن أتخيل أني ذهبت للعشاء في بيت حسيب حسين . كنت سأقدم السلامات لوالده عند الباب وأخلع حذائي وأعجب بالكتابات القرءانية وصورة الكعبة – أهم المعالم الإسلامية- المعلقة على الحائط. وكنت سأتعرف على الفور عن تناولي لوجبة الكاري التي تطبخها والدته من الرائحة التي تفوح في البيت، وعندما أشيد بعشائها كانت ستدير بصرها خجلاً ولكن ليس قبل أن تمر ابتسامة سعيدة على وجهها. كنت سأجلس مع والد حسيب في غرفة المعيشة بعد العشاء نشرب شاي "ماسالا" الهندي المحلى بالسكر والمبهر بالقرفة ومعطر بالحبهان. كنا سنقوم بالتعليق الإجباري على السياسة العالمية ونتعجب متى ستحل الهند وباكستان قضية إقليم كشمير نهائيًا. وربما كان والده سيقول لي، وقد أخذته حمية التضامن الإسلامي للحظة، كم هو غاضب لتجاهل أمريكا محنة الفلسطينيين طوال هذا الزمن، ولاعتقاده بأنه يمكنك أن تقصف الدول بالقنابل لتجعلها ديمقراطية. ثم قد يستطرد سريعًا:" ولكني أحب الشعب الأمريكي، إن الحكومة هي التي تقوم بكل عمليات القصف بالقنابل".

وبالطبع كنا سنستقر على موضوع المعيشة في الغرب، وكان سوف يهز رأسه ويقول أن المعيشة في انجلترا صعبة. نعم تستطيع كسب عيشك إلا أن الثقافة غريبة عليك، وقد تأخذ إبنك وتجعله غريبًا أيضًا، وربما قال لي أن كل ما كان يريده أن يتخذ لإبنه فتاة مسلمة لطيفة كزوجة ويكون أسرة ويعيش معيشة طيبة. كان سيقول متأملاً وهو يبرم طرف شاربه: "أعتقد أن الحاسبات هي أفضل مهنة هذه الأيام". ثم ينخفض صوته قليلاً وهو يعترف بالمشاكل التي واجهت حسيب في المدرسة ودرجات الرسوب والهروب من المدرسة والشجار. ولكان صوته كمن يشعر بالحيرة حول السبب، أين التعليم الشهير والحراك الاجتماعي في الغرب؟ ثم ربما كان سيتكلم عن إرسال حسيب للخارج وكيف جعله ذلك يستقيم. لقد أصبح الأن يضع الطاقية الإسلامية فوق رأسه ويصلي بانتظام ولم يعد يخرج مع هؤلاء الصبيان الذين يشاع عنهم أنهم يحتسون الخمر وأشياء أسوأ.

كانت المشكلة الوحيدة أن جسيب لم يعد يريد الذهاب إلى المسجد المحلي، والحقيقة أنه أصبح أيضًا يسبه. لقد بدأ أصدقائه الجدد يصلون في مركز إقرأ التعليمي، وقد جاء حسيب لبيته من هناك بكتب واسطوانات مدمجة وأنفق كل وقت فراغه في مراجعة هذه المواد. لابد

أنه كان هناك شيئًا مثل منفاخ اللهب. إنه الآن عندما يعلق مرتجلا عن حالة المسلمين في مكان آخر يشتعل حسيب غضبًا ويتلفظ بكلمات غاضبة عن الغرب وعن أهمية عودة الإسلام للسلطة. وقد يسألني والد حسيب ، بما أني أكبر من حسيب ببضعة سنوات كما أني أيضًا من الجيل الثاني للمسلمين من أبناء جنوب آسيا في الغرب، إذا كنت أفهم ما كان ابنه يمر به.

كنت سأجد صعوبة في إبتلاع ريقى.

أنا أعلم غضب ابنه وخطورته. وأتذكر أني كنت أتظاهر بالمرض حتى أبقى في البيت وأتهرب من المدرسة كمراهق خائفًا من أن أقول الحقيقة لأمي: أن مجموعة من الأطفال البيض عمدوا في حصة الألعاب الرياضية لحصاري في ركن في غرفة الملابس ومزقوا سروالي وأخذوا يضربونني بالمناشف المبللة وهم يصيحون "زنجي الرمال" و"صانع الكاري"، وعندما تكومت في ركن تغطيني الكدمات تسابقوا صاعدين ليقولوا لصديقاتهم الفتيات ما فعلوه بذلك "الهندي"، وعندما استطعت أخيرا أن أجمع شتاتي وذهبت للحصة نهرني مدرس الألعاب بسبب تأخري وانضم لمن كانوا يعذبونني كما لو كان قد اتفق معهم على التعذيب. وكانت الفتيات يصدرن الضحكات المكتومة ويرفضن الوقوف بجانبي أثناء الكرة الطائرة ويقولون للصبية من أصحابهن "لم تقولوا لنا أبدًا أن رائحته كريهة لهذه الدرجة."

كان والديَّ بالرغم من حبهما لي لا يمكنهما فهم واقعي. كانت والدتي مقتنعة بأني لو رفعت تقديراتي في الرياضيات سوف يحترمني الأطفال الآخرون. وتضيف: "عليك بالتسبيح" مشيرة للمسبحة الإسلامية. وكنت سأشعر بالمزيد من الأسى لو أخبرتها بما حدث في المدرسة ولذلك امتنعت، بالإضافة لذلك لم يكن والديَّ متواجدين بالبيت أبدًا، كان والدي يكره وظيفته في شركة إعلانات ويبحث عن طريقة لتركها وكانت والدتي قد حصلت مؤخرًا علي شهادة محاسب قانوني وكانت ماتزال تسعى لمواجهة تحديات تحقيق التوازن بين حياتها المهنية والأسرية. وقد تركانا أنا وأخي لنعول على أنفسنا.

اندهشت عندما سمعت أبي يصيح أمام شاشة التلفاز أثناء حرب الخليج في ١٩٩٠-١٩٩١، كان مؤيدًا قويًا لريجان في الثمانينات من القرن الماضي، وكانت لدية كلمتان فقط لوصف المرشح الرئاسي – مايكل دوكاكيس – "ليبرالي معتوه". إلا أنه لم يكن ليحتوي غضبه

إزاء الرئيس جورج دبليو بوش، ففي كل مرة ينطق فيها بوش باسم العراق بطريقة خاطئة يصيح: "انطق اسم البلد بطريقة صحيحة!" ، وقد تميز غيظًا عندما ذكر بوش للشيعة والأكراد أن الجيش الأمريكي سوف يكون في مساعدتهم إذا هم حاولوا الإطاحة بصدام حسين، ثم أعلن – وهو يلعب الجولف - إنه لم يكن يظن أن إرساله الجيش الأمريكي إلى بغداد هو الشيء الصحيح الذي يجب عمله وهو يعلم تمام العلم أن هذا يعني الموت الأكيد للمسلمين الذين وثقوا فيه، وكان والدي يصيح: "المسلمون يموتون بالالآف وهؤلاء الناس لا يعيرون الأمر أدنى اهتمام."

ثم موضوع البوسنة، كان أبي ملتصقـًا بالأخبار الدولية، ويتحفني بالحوادث وصور الرعب في الخارج في كل فرصة تتاح له. وكان يصيح "إنهم يستخدمون الاغتصاب كأحد أدوات الحرب وأقوى جيوش العالم لا يفعل شيئـًا"، ويتجه نحوي بعينين جاحظتين ويقول "ماذا لو جاء الجيران وقاموا بتقييدك وجعلوك تراهم وهم يقتلونني ويغتصبون والدتك، وكان هناك رجل شرطة يقف على الناصية ولا يفعل شيئا؟ هذا بالضبط ما يحدث في البوسنة وأمريكا هي رجل الشرطة العاطل هذا".

كان والدي دائمًا على دراية بشئون العالم ولكنه لم يكن من النشطاء فيها أبدًا. إنه رجل مهذب للغاية ومشاعره الروحانية عالية إلا أنه لم يكن أبدًا من المسلمين المتمسكين بالطقوس، ومن المؤكد أنه لم يكن ممن يميلون لاتخاذ جانب أبناء دينه إزاء البلد التي يشعر أنه مدين له. ولكن عندما شعر والدي أن جزءًا من هويته قد أصبح تحت خط النار – مهما كان ذلك أمرًا ثانويًا بالنسبة له في ظل الظروف العادية - فقد انطلق هذا الجزء وظهر على السطح، وبدأ يسيطر على شخصيته. وكانت البوسنة هي القشة التي قسمت ظهر البعير. كان والدي يتابع بصمت القوى التي تعيث فسادًا في العالم الإسلامي لعقود من الزمن: مساندة الولايات المتحدة لشاه إيران المستبد خلال السبعينات من القرن الماضي، والغزو السوفييتي لأفغانستان في نهاية نفس العقد، والرد الإسرائيلي على الانتفاضة الفلسطينية في أواخر الثمانينات. فإذا كانت هذه الأحداث يمكنها أن تغضب أبي المنحاز لريجان صاحب العقيدة الدينية التي تتسم بالقوة ولكن بالخصوصية، فإنني أستطيع أن أفهم كيف دفع غضب المسلمين- ممن لهم صلات عالمية أعمق بالأمة الإسلامية وممن كانوا أقل نجاحًا في الارتباط بالغرب- للتحرك.

وعندما أعود بذاكرتي أرى في حياتي أنا ومضات للعناصر التي مهدت الطريق لمهمة حسيب حسين الانتحارية. إحساس يعتصر القلب بانك مستبعد من التيار الرئيسي للمجتمع في شكل سيل مستمر من البلطجة العنصرية، وشعور ضعيف بكوني مسلم جاءني من أمي بدون أساس حقيقي يبين ما هي الصلة أو الفائدة من ذلك بالنسبة لحياتي. ووعي متزايد من خلال أبي بأن أولئك الذين أتقاسم الهوية معهم يعاملون معاملة رهيبة في أماكن أخرى عادة على يد أناس يشبهون هؤلاء الذين كانوا يمارسون معي البلطجة هنا.

مثلما فعل حسيب اتخذت خطوة على طريق المراهقين المخاطرين، وبما أني لم استطع أن أتخذ لي مكانا في المدرسة الإعدادية بدأت أتسكع مع صبية الذين كانوا يتدافعون نحو خلفية الحافلات، ويدخنون السجائر على الطريق وهم عائدون من المدرسة، ويسرقون مبردات النبيذ من ثلاجات أهاليهم، ويتباهون بصوت مرتفع بلمسهم ثدي صديقاتهم من الفتيات بينما الفتيات المعنيات يضحكن على مسمع من الجميع. كانت أمي تطلق عليهم عبارة "الصبية الذين يركبون دراجات في الوحل"، وقال أبي بوضوح أنه لا يريد أن يراهم من حولنا. إلا أن أبواي كانا عادة لا يعودان للبيت حتي السابعة مساء أو بعد ذلك في أيام الأسبوع فكنت أتسلل مع هذه المجموعة بقدر ما أستطيع. ولقول الحقيقة لم أكن معجب بهم كثيرًا، ولكن طالما أني كنت أضحك لنكاتهم الفجة وآتي بمجموعتي من شرائط موسيقى "هيفي ميتال" إلى بيوتهم كانوا يوافقون على السماح لي بالتسكع معهم.

مثل حسيب، كنت في حاجة إلى تقويم مساري. كانت درجاتي في المدرسة تتدهور، وكنت أرد على أبواي، وأعود للبيت بقصص تمجد العراك الذي رأيت أصدقائي يشاركون فيه. وربما في مكان وزمان مختلفين كنت سأتبع محمد صديق خان في غرفة خلفية من غرف مركز إقرأ التعليمي، وأستمع إلى رجل ممن له ذقن في الحجم التقليدي ينهرني لاستسلامي لمغريات سن المراهقة بينما يلاقي المسلمون العذاب في أنحاء العالم. وربما كنت سأتبع منهجه ووأوافق عليه واكتشف هويتي في المجتمع التخيلي للجهاد العالمي.

كيف يمكن أن يتحول التزام شاب عادي بدينه إلى مهمة انتحارية، بينما يصبح التزام شاب عادي آخر بنفس العقيدة كيانًا مكرسًا للتعددية؟ والإجابة على ما أعتقد تكمن في التأثيرات التي يتعرض لها الشباب والبرامج والناس الذين يشكلون القوالب لهويتهم الدينية.

إن الشموليين الدينيين مثل الشيخ عمر يدركون بصورة استثنائية الأزمات التي تواجه الجيل الثاني من المهاجرين المسلمين في الغرب. إنهم يعرفون أن أهالينا الذين تشكلت هويتهم في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا وجنوب آسيا منذ قرن مضى لديهم مجموعة نقاط مرجعية تختلف بصورة كبيرة عما لدينا. إنهم يعلمون أن الهوية التي نأخذها عنهم تبدو غير ذات صلة، وأنه من المستحيل أن تكون باكستاني أو مصري أو مغربي ينتمي لحقبة الخمسينات من القرن الماضي وتعيش في شيكاجوأو لندن أو مدريد في القرن الحادي والعشرين.

في حالات كثيرة يصنع أهالينا فقاقيع لأنفسهم عندما ينتقلون إلى الغرب – عوالم صغيرة حيث يمكنهم تناول الأغذية المألوفة والتكلم بلغتهم واتباع الطرق القديمة. وبما أنهم أعادوا إنتاج قطعة صغيرة من كراتشي في مانشيستر بانجلترا أو جزء من بومباي في بوسطن – بولاية مساشوسيتس- إفترضوا أن أبنائهم لن يخرجوا من الشرنقة. إلا أننا نحن أبناء الجيل الثاني والثالث من المسلمين لا يمكننا أن نفصل أنفسنا عن المجتمعات التي نعيش فيها. إننا نشاهد قناة أم.تي.في، ونذهب للمدارس العامة، ونتخطى حدود لا يراها أهالينا عشرات المرات يوميًا، ونفهم سريعا أن منحنيات حياتنا لا يمكن أن تتكيف مع الخطوط المستقيمة التي يعيش عليها أباؤنا.. ويتجه كثير منا ممن نشأوا في بيوت إسلامية متدينة ويشاركون أحيانًا في الجوانب الثقافة الغربية المتساهلة للاعتقاد أن كل من العالمين والجانبين بداخلنا هما بالضرورة متضادين. وتتفاقم هذه الازدواجية بسبب اشتعال العنصرية، والأمر أسوأ بكثير بالنسبة لمسلمي جنوب شرق آسيا في بريطانيا عما هو عليه هنا في الولايات المتحدة، إنهم يستمعون لرئيس الوزراء يقول أنهم بريطانيون ويشجعون الفرق الرياضية المحلية إلا أنهم يجدون أنفسهم بالفعل محاصرين بعصابات من الشباب الأبيض بعضهم يرتدي رباط الاحذية الأحمر ذا العلامة التجارية الخاصة "بالجبهة الوطنية"، وهي واحدة من بين جماعات العنصريين البيض العديدة في بريطانيا والمنظمة تنظيمًا جيدًا.

ومع تقدمنا في السن وسعينا لطريقة معيشة إسلامية موحدة، نجد في معظم الأحيان أن المسلمين المتطرفين هم من يقابلوننا في مفترق الطريق في أزمة هويتنا، يقولون "أنظروا كيف يتم اضطهاد المسلمين في كافة أنحاء العالم، وأنتم يا من تعيشون في قلب الوحش وتنغمسون في تجاوزاته الطريق الوحيد لتتطهروا: هو أن تصبحوا الموت أو أن تقتلوا."

أين القياديون المسلمون الذين يفهمون هذا التحدي المعقد ممن يساعدون الشباب في تطوير هوية إسلامية متجانسة في الغرب ووثيقة الصلة بالموضوع؟ إن معظم القيادات الإسلامية منشغلة بتلبية احتياجات أخرى للجالية – بناء المساجد والمجالس الإسلامية، وتطوير العلاقات مع السياسيين الغربيين ومع إدارات الشرطة المدنية، إلا أن معظمهم لم يشارك بالقدر الكافي في حياة الشباب.

إن شخصيات مثل دكتور عمر عبد الله والشيخ حمزة يوسف والإمام زيد شاكر والبروفيسور "شيرمان جاكسون" و" أمينة ماكلاود" في الولايات المتحدة هم استثناءات. إنهم يفهمون أن المشروع الأمريكي واستمرار الهوية الإسلامية متكافلان وليسا متعارضين. إنهم بعض من القيادات الفكرية في الإسلام المعاصر ممن ينفقون وقتًا كبيرًا يديرون الندوات لطلبة الكليات من المسلمين، والخلوات الروحانية للقيادات الإسلامية الشابة. وقد أنفق واحد من نظرائهم في بريطانيا وهو زكي بدوي (الذي توفي في يناير عام ٢٠٠٦) حياته محاولاً مواجهة مشكلة رعاية الهوية الإسلامية في الغرب إلا أنه كان يعلم جيدًا أن نموذج القيادة التي كان يمثلها كان نادرًا للغاية في بريطانيا. وعندما سأله "توني بلير" هو وعدد من القيادات الإسلامية لماذا نجد أن الراديكاليين مثل الشيخ عمر وغيره لهم تأثير على الشباب، قال بدوي " إن الشباب المؤمنين به ليس لنا سبيل للوصول إليهم،" والحقيقة أنه ليس هناك عدد كافي من القياديين المسلمين الذين يبذلون المحاولة.

لقد اعترف أحد القياديين الكبار للجالية الإسلامية في مدينة "ليدز" اعترافا مماثلاً لصحيفة "نيويورك تايمز": "لماذا هذا الدمار لشوارعهم ومدنهم ومجتماعاتهم؟ ربما لو كنا أعرنا الأمر اهتمامًا أكبر لما حدث هذا".

أعرب شاب مسلم يعمل في محل على الناصية في مدينة "ليدز" عن نفس الشعور بالإحباط من وجهة نظره: "إن الأجيال السابقة والأجيال الجديدة لا يتكلمون سويًا كما تظن، فإن المتطرفين لا يدخلون المساجد ويقولون: عذرًا، أتحب أن تنضم إليَّ لتفجير لندن؟ ولكن الأمور لا تسير بهذا الشكل." وكان يقصد أن المتطرفين يبذلون الوقت والجهد لبناء علاقات قوية مع المسلمين الشبان بينما عدد كبير من أعضاء الجيل الأكبر سنًا المستقر لا يبذلون حتى محاولة للتواصل.

وبقراءة ذلك، لا أستطيع أن أتمالك نفسي من التفكير في جنازة حضرتها لأم صديق مسلم في الحادية والعشرين من عمره، جاءت الوفاة كصدمة بالكامل. كان سهيل نائمًا عندما طرق أحد الجيران الباب وقال أن أمه، وهي سيدة عاملة في الخمسينات ترقد على أرض الحديقة الأمامية، لقد أصيبت بأزمة قلبية وهي تجرف الجليد من على مدخل السيارة. كان الإمام الذي يؤدي الجنازة يشعر بعدم الارتياح نحو سهيل وأخته ومجموعة الشباب الحزين ممن يحملون معزة عميقة لوالدتهما. كانت خطبته عند الدفن تتألف من هذا البيان: "هذه السيدة كانت مسلمة مؤمنة وعلمت القرآن والحديث لأبنائها، وعليكم اتباع مثالها وتعليم الإسلام لأبنائكم." ولم يذكر أي كلمة عزاء عن المعنى الروحاني للموت والحياة الآخرة في الإسلام، ولم يلف ذراعه حول كتف سهيل، ولم يذكر خيوط السمو في أقوال مولانا الرومي عن رجوعنا إلى مصدرنا، مجرد أمر مقتضب وبارد. ففي أصعب وقت في حياة سهيل خذله قائده الديني. فإذا كان لسهيل أي سؤال عن الدين سيكون هذا الرجل بالقطع هو آخر شخص يلجأ إليه.

كنت محظوظًا فقد كان سقوطي الحر في جمعية الشبان المسيحيين (YMCA). فمنذ أن بدأت أمي العمل التحقت بدار رعاية بعد المدرسة في جمعية الشبان المسيحيين في منطقة "جلين ألين" بولاية "إلينوي" في ضواحي مدينة شيكاجوحيث نشأت. وكان الأطفال الذين لا يتحدثون إلي في المدرسة يقيمون علاقات الصداقة معي في الجمعية، كنا نلعب لعبة "التقاط العلم" و"الطبق الطائر المطلق"، وجعلنا من الرقص في أوقات الراحة عادة. وفي يوم من الأيام عندما تأخر أهلي عن الحضور لاصطحابنا أنا وأخي قررت أن أعود للبيت سيرًا على الأقدام، ولم أتوقف لأفكر أنه ليس معي مفتاح. كنت على سطح المنزل أزيل شباك غرفة نومي عندما سمعت صياحًا محمومًا من ناحية ممر السيارة، كان ذلك أبي وعدد من موظفي الجمعية. لقد ظلوا يطوفون منطقة "جلين ألين" طوال الساعة السابقة بحثـًا عني. كان ما يزال هناك أناس في الغابات الواقعة خلف الجمعية يبحثون إذا ما كنت قد تهت هناك. استشاط أبي غضبا، وشرح لي أن تهوري سبب له القلق وأساء لناس كثيرين، كنت أشعر بالخوف من الذهاب للمعسكر في اليوم التالي، إلا أن "شيلا" وهي أحد مستشاري المعسكر داعبت رأسي وقالت "تعبت قدماي بحثـًا عنك يا صغيري، ولكني سعيدة يا رجل أننا عثرنا عليك فأنت واحد من المفضلين لدي هنا ولا أريد أن يصيبك مكروه." كدت أرتمي بين ذراعيها.

عندما كبرت شجعني المستشارون في المعسكر على الانضمام إلى "نادي القادة" ويضم مجموعة من المراهقين في الجمعية يركزون على العمل التطوعي كمفتاح لتنمية المهارات القيادية، وهناك نوادي للقادة في الجمعية في سائر أنحاء البلد، وفي كل صيف تقام معسكرات لمدة اسبوع تسمى "مدارس القادة" في مناطق مختلفة. وإذا كان معسكر الجمعية هو المكان الذي اكتشفت فيه أنه يمكنني أن أكون محبوبًا فإن مدرسة القادة في المنطقة المركزية هو المكان الذي عرفت فيه أنه يمكنني أن أكون مبدعًا ومشاركًا. كان الناس يطلبون مني دائمًا أن أتولى مسئولية شيء ما. وقمت بتصميم مشروع الخدمات ليوم الأربعاء الذي نظمناه في دار للمسنين. وقمت بالدور الرئيسي في نهاية الأسبوع في مسرحية هزلية. وكان اسمي يظهر بانتظام في النشرة اليومية. وكان أعضاء هيئة الإشراف يطلبون مشورتي في كيفية التعامل مع المشاركين المتعثرين وطلب مني تقديم خطابات الترشيح للمتقدمين لرئاسة مدرسة القادة، كما انتخبت شخصيًا للمجلس لمدة عام.

شعرت بالألم البدني عندما انتهى أسبوع مدرسة القادة. فإن الشخص الواثق من نفسه والمبدع والمشارك الذي ظهر، كان عليه أن ينطوي داخلي حتي أستطيع أن أمر من خلال المدرسة دون أن يلحظني المتنمرون. إلا أن ذكرى ما كنت عليه خلال هذا الأسبوع والشخص الذي يمكن أن أكونه قد بقيت حاضرة. ارتفعت تقديراتي، وتوقفت عن التسكع مع الصبية الذين يركبون الدراجات في الوحل.

إن سر جمعية الشباب المسيحيين بسيط، إنه ينبع من حب حقيقي للشباب. ففي الفكر التقليدي يسعى الشباب جاهدًا حتى يكون له مكان في العالم. وتعلم الجمعية أن الشباب في أعماقهم يريدون ما هو أكثر من مجرد مكان. إن المكان شئ سلبي أكثر من اللازم. ولما كان شكل الأشياء يتغير باستمرار فإن المكان أمر عابر أكثر من اللازم. إن ما يريده الشباب ليس مكانًا وإنما "دورًا" وفرصة ليكونوا أقوياء ويتمكنوا من تشكيل عالمهم. ولذلك تحفزهم الجمعية للاتجاه نحو المهارات القيادية – ذوي الأربعة عشر عامًا يكونون مسئولين عن ذوي العشر سنوات في المعسكر. ويقوم طلاب الكليات بتدريب فرق كرة السلة لمن هم في المدارس الثانوية.

كنا في مدرسة القادة نشدو بأغنية تسمى " تناقلها"، إنها تستخدم مجازًا النار للتعبير عن تقاسم العقيدة الدينية. وكنت أشدو بها في البيت لمدة أسابيع بعد انتهاء مدرسة القادة،(و قد انزلقت

مرة وأنشدت بعض السطور من الأغنية أمام أصدقاني في المدرسة الثانوية وكان ذلك سببًا لتعذيبي بلا رحمة لشهور.) وفي لحظة من اللحظات التي كان يشعر فيها والدي بأنه على حق في إسلامه، سمعته يعرب عن قلقة لأمي من أن الجمعية، وهي على كل حال "جمعية الشبان المسيحيين" تعلمنا أغاني مسيحية، سألها "هل تعتقدين أنهم يحاولون تعليم المسيحية لأبنائنا؟" وكانت نبرة صوته تنم عن ضيق الصدر.

ردت أمي "أتمنى ذلك، وآمل أن يعلموا أبنائنا الأغاني اليهودية والهندوسية أيضًا، هذا هو نوع المسلمين الذين نريد لأبنائنا أن يصبحوا عليه."

في هذا الرد المرتجل الذي سمعته صدفة عندما كنت مراهقا استطاعت أمي أن تتنبأ بمسار حياتي.

الفصل الثاني

أن تنشأ أمريكيًا
أن تنشأ غير ذلك

" يقترب الوعي من الطفل كما يقترب طائر خطاف البحر عندما يهبط للأرض ليلمس ظله بقائميه على الرمال: وبالتحديد يلمس أصبع قائمه الأصبع الأخر"

أني ديلارد (Annie Dillard)

لقد نشأت وسط الطقوس الدينية. كانت أسرتي تجتمع صباحًا ومساءً للصلاة وأيادينا مجوفة على شكل فنجان لاستقبال البركات، ومقدمة الرأس والأنف تلمسان الأرض مع السجدة، وحبات المسبحة تنزلق بين أصابعنا ونحن نرتل يالله يالله.

لقد نشأت مسلمًا إسماعيليًا، وما أن تعلمت كيف أتكلم حتى بدأت والدتي في تعليمي الأجزاء الستة للصلاة التي يؤديها الإسماعيليون مرة في الصباح ومرتين في المساء، وعندما جاءت جدتي لأبي لزيارتنا من بومباي، جعلتني أجلس معها وأتعلم "الجنان" الإسماعيلية (أغاني التعبد) سطر بسطر، نغمة بعد نغمة. وكنت أؤم "جماعة" شيكاجو للصلاة قبل أن أتعلم ركوب الدراجة.

كانت والدتي تقول لي أنا وأخي الصغير وهي تداعبنا: "قل: يا علي، يا محمد" وأنت ذاهب للنوم، فهذا سوف يحميك". وكانت تلك هي الأغنية الإسماعيلية المفضلة لوالدتي لطلب البركة من كل من الإمام الأول للشيعة (على) ونبي الإسلام (محمد).

و ذات يوم بدأ والدي يغادر مبكرًا للذهاب إلى العمل حتى أنه لم يعد يشاركنا في صلاة الصبح. وسرعان ما تعودت على جرس الهاتف حوالي السادسة مساءً، حيث يطلبنا والدي ليخبر أمي أن عليه أن يستضيف عملاء في وقت متأخر عن المتوقع، وان علينا أن نشرع في العشاء والصلاة بدونه. فعلنا ذلك لفترة، ثم لم نستمر. فقد بدأت والدتي في تسلق خطوتها

الصاعدة في العالم المهني. ولم يخبو الطقس الديني تمامًا في الخلفية بقدر ما توارى أمام معتقد أخر هو القوة المتألقة والخانقة في آن واحد: الإنجاز الأمريكي.

وبقي شيء واحد: "قل يا علي، يا محمد عند ذهابك للنوم، فتلك العبارة ستحميك"، وكانت أمي تهمس بذلك وهي تجعلنا نأوى لفراشنا.

كانت أمي تؤكد دائمًا أن الإسلام دين متنوع، فأي دين له أكثر من مليار من الأتباع منتشرين عبر ثمانين دولة وتاريخ يرجع لأكثر من ألف عام لابد أن يكون متنوعًا. ونحن الاسماعيليون طائفة مسلمة تشارك المسلمين الآخرين في نواحي كثيرة، ولكننا متميزون أيضًا في بعض الجوانب. ونحن نؤكد على "الشهادة" الأساسية للإسلام، وإعلان الإيمان بأنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. وكمسلمين شيعة نعتقد أن محمدًا عين ابن عمه وزوج ابنته علي قيادة الأمة الإسلامية بعد وفاته. وقد عرف عن على أنه الإمام الأكبر (ولا يجب الخلط بينه وبين إمام الصلاة وهو الشخص الذي يؤم المسلمين في الصلاة). كانت له وحده القدرة على تفسير المعنى الحقيقي للقرآن وتطبيقه مع تغير الأزمنة وبذلك قيادة المجتمع الإسلامي. ويختار الإمام من يخلفه من بين أفراد أسرته ليضمن أن تظل الإمامة بين أهل البيت. وعلى مدار التاريخ ثارت نزاعات حول تعيين بعض الأئمة وانقسم الشيعة إلى طوائف مختلفة. وتعتقد أكبر طوائف الشيعة (الإثنى عشريون) بأن إمامها مختفي، و الاسماعيليون هم الطائفة الشيعية الوحيدة التي لها إمام موجود وعلى قيد الحياة.

آخر إثنين من أئمة الشيعة كانا شخصيتين عالميتين وهامتين فالسلطان محمد شاه كان إمامًا من ١٨٨٥ حتى ١٩٥٧ كما كان رجل دولة مسلم محترم خدم كرئيس لعصبة الأمم وحصل على جائزة نوبل للسلام. والإمام الحالي كريم الحسيني المعروف كذلك بأنه الأغاخان، وقد وضع بصمته ببناء أبنية مبتكرة رفيعة للصحة والتربية والثقافة، ومؤسسات لمساعدة الفقراء تعمل عبر ثلاثين دولة، ومجموعات تعرف بأنها شبكة أغاخان للتنمية.

ويقود الإمام الإسماعيلي كل من الحياة المادية والروحانية لإتباعه بسلوك مشابه لما يقوم به الشيخ الصوفي في قيادته لإتباعه. وفيما يتعلق بالجوانب الروحانية، فان الاسماعيلين قد تم توجيههم ليتبعوا ممارسة صلاة متميزة. فنحن نؤدي صلاة من ستة أجزاء مرة صباحًا ومرتين في المساء بدلا من الصلاة الأكثر شيوعًا لدى المسلمين، والتي تسمى صلاة أو نماز

namaz، تؤدى خمس مرات يوميًا. ولدينا أماكن خاصة للعبادة تسمى الجمخانة Jamatkhanas، وعددًا من أيام الصيام خارج شهر رمضان، ولدينا نظمًا خاصة للهبات. وعلى المستوى المادي، شجع الإمام فريق من الاسماعليين، وكانوا عادة جماعة من التجار،على الحصول على تعليم عالي والإقامة في الغرب.

كان والدي من هذه المجموعة، فقد انتقل من بومباي إلى الغرب الأمريكي في منتصف عقد السبعينات من القرن العشرين للحصول على درجة الماجستير من "نوتردام"، حيث اكتسب أثناء ذلك حماسًا متطرفًا للعبة كرة القدم الأيرلندية. ولكي نقول الحق، فإن والدي لم يكن يحتاج للإمام ليشجعه على ترك الهند. فموسيقى "الروك آند رول" أثارت شهوته، والعين التي ترى كل شيء والتي ورثها عن والدته بدأت تشعره بالاختناق. وهكذا رحل بزوجته وطفليه ليقيم في مقاطعة بند ساوث (Bend South)، بولاية إنديانا، وهي أرض الجليد الرمادي والكاثوليك الأبيض.

وبعد كلية التجارية، حصل والدي على وظيفة في التسويق في شركة" ليو برنيت" بمدينة شيكاجو، وهو ما يعد انجازًا كبيرًا لمهاجر هندي في الغرب الأمريكي الأوسط في نهاية عقد السبعينات من القرن العشرين. وقد انتقلنا على بعد عدة منازل فقط من الجمخانة الوحيدة في مدينة شيكاجو، في مجاورة "روجرز بارك"، وهي منطقة يرتدي فيها الهنود والباكستانيون السترة التقليدية ويدخنون تبغهم في الشوارع التي يتقاسمونها مع السود. وقد أدرجني والدي أنا وأخي في مدرسة مونتسوري. في كل يوم كان والدي يذهب للعمل، وأمي كانت تقود السيارة بنا أنا وأخي لفترة ٤٥ دقيقة حتى نصل للمدرسة. وكان والدي يعود متعبًا، بينما هي تعود للمنزل ولديها الكثير من القصص عن كيف يبدو أن أطفالها غير قادرين أن يمنعوا أنفسهم من عض التلاميذ الآخرين وإصدار الأصوات العالية في فترات الراحة.

كانت والدتي مدرسة، أولاً من خلال شخصيتها، ثم من خلال وظيفتها، كانت الرحلة معها حتى متجر البقالة تستلزم مني التكرار الذي لا نهاية له لجداول الضرب والصلوات الاسماعيلية. كانت قد تخرجت من كلية تجارة معروفة في بومباي وقد اكتشفت سريعًا أن حياة ربة المنزل لمن تهاجر لأمريكا لا تحقق ذاتها، فبدأت تدرس للحصول على شهادة المحاسب القانوني عندما كنت في الصف الدراسي الأول، وكانت تسحبني بين كليات المجتمع المحلي

حيث كانت تعقد حصصها، وكانت تتركني لساعات طويلة في مكان تواجد آلات البيع ومعي شنطة بلاستيكية كبيرة ممتلئة بالشطائر وما يكفي لعدة ساعات من المسائل الحسابية لحلها.

كنت أركب دراجة مع صديق في يوم ظهور نتيجتها في اختبار المحاسبة القانونية قال "ما هذه الضوضاء"؟ "يبدو ان أحدهم يصرخ عاليًا باسمك" أوقفت دراجتي واستمعت، قلت له " آه، على أن أذهب".

قمت بالتبديل بقوة على دراجتي، وعدت للمنزل لأجد مجموعة صغيرة من الجيران الفضوليين ينظرون إلى أمي، وكانت هي واقفة على درجات سلم المبنى الذي نسكن فيه وهي في ثوب النوم الأصفر تلوح بورقة في يدها وتصرخ" أيبو، لقد نجحت! لقد نجحت!"

حاولت أمي أن تعمل في عالم الشركات أولا في مؤسسة "آرثر أندرسون" ثم في شركة "ماكدنوالدز"، ولكن حياة الشركات لم تناسبها. وقد استجيبت دعاواتها عندما أعلنت كلية "دو باج - Du Page " أنها بحاجة لتعيين مدرس محاسبة. ومنذ ذلك الحين لم تترك التدريس .

اتبع والداي مسار المهاجرين الناجحين، بالانتقال خارج المدينة، وفي شقة في ضاحية داخل الطريق الدائري ثم إلى منزل واسع في "جلين ألين"، وهي ضاحية تتمتع بنمو متصاعد. كانت الجمخانة الخاصة بنا على بعد ٤٥ دقيقة، وكانت مسئوليات أبي الجديدة كنائب لرئيس شركة "ليو برنيت" تجعله غالبًا متغيب عنا ومشغول بالعمل. وقد جعلت ضغوط الإعداد للدروس، وإرشاد الطلاب، والعمل في اللجان والدتي مشغولة بشكل مفرط. وبفعل ذلك انكمشت الطقوس الدينية.

كان ذلك لا بأس به بالنسبة لي، فقد ركزت طاقتي لكي أتكيف كطفل بني اللون في عالم البيض. كنت أخطط استراتيجيًا في فراشي قبل أن أنام، واسأل نفسي أسئلة مثل "ماذا يمكنني أن أفعل حتى أجعل الأطفال البيض ممن لهم شعبية في المدرسة يتقبلونني، أو على الأقل لا يتحرشون بي؟" في الأيام القليلة للأعياد الدينية الهامة عندما كان والدي يجرني وأخي إلى الجمخانة، كنت أنظر إلى بحر من الاشخاص أصحاب البشرة البنية اللون الذين يرتدون القرطاس والقميص الهندي (سترة قصيرة ضيقة هندية)، يتلون أدعية عربية بعيونهم المغمضة وأجسامهم المتمايلة، ويلوحون بأيديهم على نحو مضحك وهم يروون قصصًا باللغة الجوجراتية، كنت أشعر أنهم فصيل متدني، ولم أعد أتساءل عما سيقوله الأطفال البيض في المدرسة

عن هؤلاء الناس. كنت قد تبنيت سخريتهم.

لعدة سنوات، كان أكبر ارتباط لى بالإسلام يعتمد على إصرار والدتي ألا أتناول لحم الخنزير، وعندما خرج طلاب الصف الخامس من المدرسة الابتدائية "مارك أفينو" إلى معسكر رحلة، كانت الاختيارات المطروحة للعشاء مساء الجمعة هي بيتزا إما بالسجق أو البيبروني. تذمرت والدتي وأصرت على أن يقدموا لي شريحة الجبن فقط. وعندما اجتمعنا لنتناول الطعام ونحن متحمسون، نادى الناظر على اسمي أولاً، قائلاً "إيبوا.. تعالى لتأخذ قطعة البتزا الخاصة بك" رفعت رأسي ودلفت للأمام بينما كان الأطفال الآخرون يسخرون مني.

وعندما كنت أدعى لأحد حفلات عيد ميلاد، كانت والدتي تتصل بالبيت المضيف لتتأكد من أن الطعام المقدم لا يحتوي على لحم الخنزير، وعندما تكون وجبة اليوم في المدرسة هي "هوتدوج"، كانت تقوم بتحضير حقيبة بلاستيكية لي بها قطعتين من اللحم البقري وتطلب مني أن أذكر من سيقوم بطهوها أن يستخدم مقلاة منفصلة. "ولكن لماذا يا أمي؟" كنت أسألها شاكيًا. "ما أهمية ذلك؟" لم يكن هناك شيء استطيع عمله حيال لون جلدي الذي يجعلني مختلفًا، ولكنني بالتأكيد كنت أحاول أن أشبه الأطفال البيض في كل النواحي الأخرى.

كانت والدتي تشتعل غضبًا وتكاد تصرخ "لأننا مسلمون. ونحن لا نأكل لحم الخنزير". ثم تقول لي بصوت أعلى "نحن لا نأكل لحم الخنزير". وبينما كنت أبذل قصارى جهدي للتخلص مما تبقى من الآثار التقليدية كانت تحاول بكل الصور التمسك بها.

في المدرسة الثانوية، كان لدي بعض النوبات حيث تتملكني رغبة داخلية في التواصل مع الله ، وفي بعض أيام الآحاد، كانت والدتي توقظيني في الساعة ٣:٣٠ صباحًا للذهاب إلى الصلاة في الجمخانة، وبدأت أصطحبها. وقد اختبرت نفسي بأن ألعب كرة السلة وأنا صائم وكنت فخورًا بامتناعي عن الماء والطعام الذي كان أصدقائي يقبلون عليه بعدها. في ذهني كان ذلك قليل الصلة بالإسلام. كان ذلك يتعلق أكثر بما لا أستطيع وصفه ولكني في حاجة لإرضائه نوعًا ما. وأتذكر إنني أخبرت أمي بقصص عن طفل في المدرسة أعجبت به، وهو نجم رياضي وطالب متفوق واستطاع بوجه عام أن يكون إنسانًا صالحًا ثم أخبرتها "ولكنه قال إنه لا يؤمن بالله. وهذا يجعلني أفكر في أنه لم ينقصه شيئًا".

نظرت إليَّ والدتي وهى مصدومة، كما لو كانت تريد أن تقول "بشكل ما هناك شيء ما

فعلته ويتعلق بالدين قد هوى لأسفل" .ومن حسن الحظ أنها لم تقل شيئا بصوت عالى" لقد انتقل جدك الكبير من قرية في ولاية "جوجارات" إلى مدينة بومباي وهو لا يحمل شيئًا سوى صفيحة مسلي (الزبد الصافية) وساعة يد. وقد عمل في بيع الخضروات على عربة يد ليحصل على رزقه، بحيث يكسب قرشين من بيع كل وحدة. وكان يخبز باستخدام الشمس وينام على جانب الطريق".

وأحيانا كان والدي يجعل القصة أطول من ذلك فيقول، أن جدي الكبير كان أحيانًا يشعر بالجوع القاتل ولكنه كان ينتعش عندما يفكر في الأساس الذي وضعه لعائلته. أحيانًا أخرى، كانت منتجاته كلها تعصف بها الرياح الموسمية وكان عليه أن يعيد بناء عمله من جديد نبات بعد نبات. وبعد أن يصبح والدي راضيًا أنه قام بعمل رائع لجعل قصة جدي تحمل صورة الأبطال، يرفع صوته ويلوح بذراعيه ليطرح وجهة نظره: "لقد عمل بجدية شديدة حتى يجعلنا نصل إلى هنا. ولذلك فليس لديك الحق لتكون شخصًا كسولاً على هذا النحو".

لقد سمعت هذه المحاضرة أسبوعيًا عندما كنت في مرحلة الدراسة الإعدادية. لقد بذل والداي أقصى جهد لديهما ليعطياني انطباعًا بأنهما بذلا تضحيات كبيرة من أجل الاستقرار في مدينة "جلين ألين" وبذلك فقد أمكننا، أخي وأنا الدراسة في أفضل المدارس. كنا لا نبالي، كنا فقط نركز على التصرفات والسلوكيات بدلاً من التركيز على الحصول على الدرجات العالية، وكان والدي يشعر أنه محتاج لأن يستدعي الأجداد لمساندته. وكنت أعلم أن والدي إذا لمح عدم اهتمامي بقصة جدي لغضب غضبًا شديدًا، ولذلك كنت أغض بصري كلما رأيته يستعد لسردها، وكنت أعض على شفتي حتى تكاد تدمي حتى لا تبدو ابتسامتي متكلفة.

مارس والداي ضغوطًا كبيرة لأكون ضمن طلاب فصول برنامج "التحدي"، والتي يلتحق بها صفوة طلاب مرحلة الدراسة الثانوية (جونيور هاي) في مدرسة "جلين كريست – Glen Crest". وكان سجلي الأكاديمي والسلوكي السابق متفاوتًا، ولكن والداي أصرا مع الإدارة إلى أن انصاعت وقبلتني في البرنامج. ولكني لم أتمسك بالصفقة للنهاية. وحتى بعد انتهاء مرحلتي مع الصبية الذين يركبون دراجات الوحل، ظللت أيضًا طالبًا متوسطًا فقط. وأثناء الحصة، كان كل ما يشغل بالي هو معرفة كيفية وضع لفافة كاملة من اللادن في فمي. من ذا الذي يحتاج لتعلم كيفية تركيب الجمل أو حل مسائل الجبر؟

لقد أدى تعليق عابر صدر من مدرس العلوم "مستر شيراج"، إلى تغيرعميق في حياتي، فقد أدار" شيراج" ندوة خاصة لطلاب العلوم في الصف السابع والثامن في مجموعة "التحدي" والهدف منها تعليمنا كيفية القيام بالبحث الأصيل. كما أنه كان مدرس العلوم عندما كنت في الفصل السادس، واعتقد اني كنت في حصته عندما نجحت أخيرًا في وضع أربعة وعشرين شريحة من لادن الفاكهة في فمي. رفعت كلا يدي كعلامة على النصر، ولكن لم استطع أن أقول شيئًا إذ أن فمي كان ممتلئًا وقد تحول لمختلف درجات اللون الأزرق بسبب الألوان الصناعية الموجودة في اللادن، وربما بسبب أننا كنا أقتربنا من نهاية العام الدراسي، لم يهتم "شيراج" بطردي رسميًا من مادة العلوم في برنامج التحدي، معتقدًا أني سوف أجعل حياتنا أسهل وأرسب لأعود لدورة العلوم العادية لباقي مدة دراستي الثانوية.

لم استوعب الإشارة منه. دخلت لفصله في اليوم الأول فى الصف السابع وتوجهت لمقعدي المعتاد في الخلف. ولكن قبل أن أصل إليه سمعت" شيراج" يقول بجدية مطلقة " الم نتخلص منك في السنة الماضية؟"

قال ذلك بصوت مرتفع بحيث يسمعه بعض الطلاب الأخرين- ممن أقضىوا وقت الحصة في تدوين مذكراتهم عن محاضرات شيراج. استطعت أن أشعر بسخريتهم، وشعرت أن عنقي أصبح ساخنًا من الحرج. وشعرت بالدموع في عيني. إن "شيراج" وهو في المعتاد مرحًا وصاحب نكتة لم يكن يضحك، كان ينظر إلى باستعلاء. كان يقصد الفوز بالموقف. كنت كالشوكة في جانبه طوال السنة السابقة، ولم يكن مستعدًا لأن أسبب الإزعاج لفصله مرة أخرى. تبادر كل ذلك إلى ذهني على الفور. فتحت فمي لأقول شيئًا ثم أغلقته ثانية. لم يكن هناك شيء يمكن قوله، كان "شيراج" على حق.

ثم طرأت لي فكرة أخرى: " هل يظن ذلك الشخص انني لست ذكيًا بما يكفي لأكتب بحثًا علميا لمجموعة "تحدي" في العلوم؟" فجأة طارعقلي. وأعددت سيلاً من التحديات له.

ولكن غضبي قاطعته فكرة مخيفة أكثر: " هل أنا ذكي بما يكفي؟" إنني لم أطبق على نفسي أي شيء ابدًا. ماذا لو حاولت في مشروع البحث العلمي في مجموعة التحدي هذه وفشلت؟ سيثبت ذلك أن "شيراج" كان على حق. وكافة الصبية الأخرين في برنامج التحدي الذين كانوا يتعاملون معي على أني لا انتمي لهم سيكونوا جميعهم على حق. وإلى هذا الوقت

كنت أدعي إنني أذكى من القيام بالواجب المنزلي أو القيام بالمذاكرة للامتحانات. وماذا لو لم تكن درجاتي عالية وعلى نفس مستوى الآخرين؟ كان هدفي هو ابتكار طريقة أثبت بها أنه يمكنني أن أبلي بلاء حسنًا إذا ما أردت ذلك.و قد أدركت أنني كنت الشخص الوحيد في الفصل الذي يؤمن بهذه القصة. وفي هذه اللحظة، لم أكن متأكدًا من أنى أستطيع أن أصدق نفسي بعد الآن.

جلست هادئًا في مقعدي في الفصل طوال اليوم الأول، واحتفظت بشريط اللادن في جيبي. لم أبك، وكان ذلك انتصارًا. ولكني كنت أرغب في ذلك، وكان ذلك شيئا أيضًا. وبسبب الإهانة ساعدني "شيراج" لاكتشاف هوية دفينة في أعماقي لم أكن حتى أعرف بوجودها. كنت أريد أن أكون طالبًا جيدًا- وليس طالبًا متميزًا. كنت أريد أن أكون من هذا النوع من الطلاب الذي يهمس الآخرون عنهم عندما يدخلون إلى البهو ويقولون ""لقد جاء "أيبو". هذا الشاب ذكي". كنت أريد أن يقول المدرسون "كان ذلك عملا مرموقًا" وهم يعيدون إلى أوراق بحثي. كنت أريد أن يطلب مني قراءة بحثي بصوت عالٍ أمام كل الفصل.

عدت لفصل "شيراج" بعد الجرس الأخير في ذلك اليوم. قلت له "أنني أريد أن أكون في بحث العلوم في مجموعة التحدي " قلت له "أريد أن أكتب أفضل بحث رأيته في حياتك".

كان بوسع "شيراج" أن يقول لي أن القرار بإدراجي في فصل العلوم النظامي قد اتخذ بالفعل من رئيس القسم، آسف، كان بوسعه أن يقول أني غير مستعد لكتابة البحث حتى إذا غيرت سلوكي وإنني لا أملك مهارات الكتابة أو البحث. وكان بوسعه أن يكون صريحًا بقسوة ويقول أنه لا أحد من المدرسين في "جلين كريست- Glen Crest" يعتقد أنه يمكنني أن أصل لأي شيء، وأنهم لا يحبونني كثيرًا على أي حال، لأن كل ما يعنيهم هو أن أظل جالسًا في الجزء الخلفي من الفصل وأن أضع أصابعي على فمي، طالما أني لا أسبب إزعاجًا لأحد.

بدلاً من ذلك قبل المخاطرة وقال "عليك أن تجد موضوعا الأسبوع القادم"، وغادرت وقد كلفت بمهمة.

اخترت أن أكتب في موضوع طب تقويم العامود الفقري (chiropractic) ولم يكن هناك سببًا واضحًا لاختياره سوى كلمة "chiropractic" التي أعجبتني، أمضيت الليالي وعطلات نهاية الأسبوع منغمسًا في الموضوع فحصت كل كتاب عن الموضوع في مكتبة كلية "دو باج

- DuPage" حيث كانت تقوم أمي بالتدريس. وقد اكتشفت أن الكلية الوطنية لطب العمود الفقري مقرها في الضواحي الغربية لمدينة شيكاجو، وأمضيت أيام الأجازات في مكتبتها. عرفت المناطق المختلفة في الظهر، ودرست أنواع الالتواء المختلفة التي تصيب العمود الفقري، وقمت بمقابلة الأطباء المعالجين لمعرفة تفاصيل طرق العلاج، والأهم من ذلك، أني اكتشفت أني أحب مسألة البحث. واستمتعت بقراءة وجهات النظر المختلفة في الموضوع الواحد ودمجها في شيء متجانس ونابع مني. أحببت شعور طرقي للقرم الرصاص على بهجتي في محاولة للحصول على جملة مفيده. وأعجبني إحساسي بأنني ذكي.

ساعدني أبي في كتابة البحث على الآلة قبل أسبوع من موعده المقرر. وقد جاء في اثنين وسبعين صفحة، قال لي وهو يعبث بشعري "قد يكون هذا أطول بحث قام بكتابته طالب في الصف السابع أبدا". لقد كان فخورًا بي. لم أكن قد سمعت قصة جدي الأكبر لأسابيع. ربما ظن أبي أنني قد استوعبت بعضًا من أخلاقيات عمل الرجل الكبير.

وصلت المدرسة مبكرًا هذا اليوم وكان معي البحث وتوجهت مباشرة إلى فصل "شيراج". كان جزء مني يريد أن يكون متحديًا عندما أقدم له البحث وأقول – "ها هو أمسك هذا أيها المرتعش. لم تكن تعتقد أن باستطاعتي عمله " ولكن هذه العملية كانت أكثر من الشريحة التي على كتفي فمنذ أن منحني الفرصة الثانية، و"شيراج" هو الشريك الكامل في هذا المشروع، يتقابل معي كل أسبوعين لمتابعة التقدم الذي أحققه، وفي وقفتي أمامه، كان الشعور الذي يسيطر على هو العرفان العميق بالجميل. قلت له "لقد فعلناها" وقدمت له الغلاف الأسود الذي يحوي بحثي. أخذ يطلق صفيرا ناعما ودافئا وهو يتصفحه، ويراجع جدول المحتويات، ويتفحص الفهرست، وأخيرًا قال "أنت لك شأن يا فتى".

وضع الغلاف على مكتبه. بينما الأغلفة الأخرى، للمشروعات التي تمت بواسطة طلاب آخرين في برنامج التحدي، كانت مكدسة في نهاية الغرفة. سألته "لماذا لم تضع بحثي هناك؟ "

" لأنني سأستخدم بحثك كمثال هذا العام. سوف أعرضه على كل فصولي الأخرى وكافة زملائي في قسم العلوم كنموذج لما يمكن لطالب في الصف السابع أن ينجزه " .

قلت " لن يصدقوا أني أنا حقـًا من قام بكتابته".

قد تتغير شخصية المراهق في لحظة. فقد تحولت من صبي سيء إلى شخص أحمق ثم

إلى المرتبة الأولي من الطلاب المجتهدين. عندما أصبحت في المدرسة الثانوية سيطرت على حياتي أحلام ساكني الضواحي فى مستقبل مريح ومرتب ضخم، كنت أنا والمجموعة الصغيرة من أصدقائي مقتنعين بأن أداءنا أثناء المدرسة الثانوية يعطي مؤشرًا ممتازًا للشهرة وللثروة التي سنحققها لاحقـًا، كنا قلقين بشأن الدرجات والتقديرات في الاختبارات الموحدة والجوائز الأكاديمية. وفي أمسيات السبت، كنا نجتمع في مطعم " تاكو بيل" المحلي ونتصور مستقبلها المهنى، ونجادل حول من منا سوف يكون له المنزل الأكبر وأجمل سيارة وأكبر عدد من الصديقات، "آريل" سوف يعمل في المحكمة العليا بالولايات المتحدة الأمريكية،" كارثيك" سوف يصبح رئيس الجرّاحين في مستشفى كبرى، " كاريس" سيصبح عالمًا في المعاهد القومية للصحة. وأصبح أنا محاميًا مرموقـًا في كاليفورنيا، أقود سيارتي المرسيدس الحمراء ومعي شقراوات جميلات إلى "ألعاب ليكرز"، تمامًا مثل الممثلين الذين أراهم في العرض التليفزيوني "قانون لوس أنجلوس – L.A. Law "

كان معظم مرحنا ينبع من تهكم كل منا على أحلام الآخر. كنت أوخز "كارثيك" قائلا "لقد حصلت على تقدير باء في اختبار التاريخ ولن تلتحق أبدًا بكلية الطب بجامعة هارفارد". ويجيب وهو يشعر بالحرج أن هذا يقال عنه على الملأ وأمام الجميع "أنت أحمق.. أنت لا تستطيع أن تؤدي العمليات الهندسية الأساسية".

.وكانت هذه المناقشات تتدهور سريعًا إلى نكات الأمهات، وأخيرًا إلى شجار بالأيدي والأذرع النحيلة.

كلما كان الأمر لا قيمة له كلما زادت المنافسة بيننا، وعند انصرافنا من المدرسة في الساعة الثانية وخمسين دقيقة، نتسابق للوصول للمنزل لمشاهدة برنامج "جيوباردي - Jeopardy!" ومن يحصل على أكبر عدد من الإجابات الصحيحة يفوز، ويتجمع الخاسرون حول الفائز لتسديد اللكمات له. وباختصار، كنا مقززين.

أخبرت والداي برغبتي في ترك نادي القادة في جمعية الشبان المسيحيين ووقف التطوع وهكذا يمكنني أن أقضي مزيدًا من الوقت في التركيز في عملي الدراسي. لم أكن أتحمل فكرة حصول أصدقائي على درجات أفضل مني، ولم أصدق حينما قال والدي لا. ماذا عن جدي الكبير وكل ما فعله لوضع الأساس حتى تتاح لي الفرصة للحصول على تعليم ممتاز؟

كان والدي متحير بسبب أن قصة قدوته عادت وألقيت في وجهه وبالتحديد عندما شعر إنني كما لو كنت قد حرّفت القصة لأسباب مريبة. "كان جدك الكبير يجد دائمًا الوقت ليخدم الآخرين. فقد كان اسماعيليًا عميق الإيمان يقوم بتأدية خدمات تطوعية - حتى في الأوقات التي لم يكن لديه ما يكفيه لنفسه. هذا جزء من عقيدتنا يا ايبو."

ماذا؟ كان والدي يبدو فاترًا دائمًا إزاء الدين. كان متباطئـًا في المجئ للصلاة حتى في السنوات التي كنا فيها نصلي معًا كعائلة، وكان بالتأكيد يبدو فرحًا بالفرار من الجمخانة كلما كنا نذهب إليها، وهو الأن يذكر العقيدة كسبب للتمسك بأنشطتي التطوعية. سألت أمي عن ذلك.

شرحت لي: "إن ايمان والدك قوي جدا، وبالنسبة له الإيمان هو الخدمة وليس الطقوس". كانت عائلته في الهند تنخرط في الخدمة على كافة المستويات التي تتخيلها.

وفي يوم من الأيام سوف تسمع عن هذه القصص وسوف تجعلك فخورا. إن والدك يبذل أقصى جهد لينقل هذه التقاليد إلى هنا. فقد ساعد عشرات المهاجرين الجدد ليبدأوا حياتهم في هذه البلاد، وكان والدك يساعدهم في الحصول على الإقامة ورخص القيادة وتأسيس أعمالهم. هل تتعجب لتلك المكالمات الهاتفية التي نتلقاها من أشخاص يتكلمون فقط باللغة الأوردية أو الغوجاراتية؟ هؤلاء كانوا ممن نساعدهم.

وهكذا كنت أقضى صباح أيام السبت في تعليم السباحة للمعوقين في جمعية الشبان المسيحيين وكنت أقضى الأمسيات في الجمعية في الأسابيع التي تسبق احتفال "هالوين" وعيد الفصح للمساعدة في إعداد "بيت الرعب" ومسابقات بيض عيد الفصح. وتعلمت شيئـًا عن حياة من هم مختلفون عني، تعلمت أن أشجع غيْري ولا أقتصر على نفسي فقط.

وعندما لاحظ أبي أن أصدقائي وأنا نتعامل مع الدرجات على أساس حافة الهاوية أصابه القلق من أني أصبحت أنظر للتعلم على أنه مسألة وظيفية تمامًا، لقد كان هو ممثلاً ومنتجًا سينمائيًا في الهند، وكان التعلم بالنسبة له شيء أكثر من مجرد ممر للحصول على الدرجات العالية وعلى وظيفة فاخرة. وفي يوم من الأيام جاء لغرفتي وهو يحمل مجموعة من الكتب وقال "آن الأوان أن تبدأ في قراءة الأعمال الأدبية الحقيقية". وقد نجحت خطته، نحيت جانبًا سلاسل "هاندي بويز – Handy Boys" و"جريت برين – Great Brain" والتهمت المجموعة

التي تركها على المنضدة المجاورة لسريري. قرأت كتاب "وطار فوق عش العصافير" للكاتب "كين كيسي" واقتبست منه مائة طريقة بحيث نستطيع أنا و"ر. ب. ماكمورفي" أن نحصل على مكسب على حساب "نورس راتشيد"، ولحقت بشخصية "ماك" والصبية من كتاب "جون شتاينب" "كانري روي" في خطتهم لتسجيل زجاجات ما يسمى "أحذية التنيس القديمة" وإصلاح القصر المتهالك، تركت المقار الأميرية لأخرج إلى الدنيا مع "سيدهارتا" وأنا أتساءل كيف ستتغير حياتي عندما أواجه كبر السن والمرض والموت.

في المدرسة لحقت بزملائي في الشكوى من الكتب المقررة في درس الانجليزية زاعمين استبدال "ملاحظات كليف – Cliffs Notes" بالشيء الحقيقي، إلا أني كنت أحب كل منهما سرًا، وأذكر أني حبست نفسي في غرفتي طوال الأيام الأربعة لإجازة عيد الشكر أثناء السنة الأولى لانغمس في كتاب "ثورو" بعنوان "والدن"، وفي الصيف عندما كنت لا ألعب كرة السلة أو أعمل في محل "سابواي" للساندوتشات الذي يملكه والداي كنت أقضي الوقت في إعادة قراءة كتبي المفضلة من كتب السنة الدراسية مثل كتاب "أن تقتل طائرًا غردًا" للكاتبة "هاربر لي" و"دانديليون واين" للكاتب "راي برادبوري" وكتاب "مغامرات هاكلبيري فين "لمارك توين".

كنت أشعر بإحباط عميق من أن مناقشات الكتب تدوم فقط إلى أن يدق الجرس وكانت محدودة في التكليف بكتابة مقالات وبالرد على أسئلة الامتحان. وأذكر الأخذ والعطاء الميكانيكي في حصص الإنجليزية في المدرسة لمناقشة ما إذا كان "ثورو" يستحق الحبس لاحتجاجه على الحرب المكسيكية الأمريكية. وفي السنة السابقة (١٩٩١) كانت أمريكا قد غزت العراق، ولم يربط من تكاسلوا في الانحياز لجانب "ثورو" – بما في ذلك المدرس – بين الأمرين. وفي الواقع لم يكن هناك في مدرستي تقريبًا من يبدي اهتمامًا بهذه الحرب وبالتأكيد لم يقترح أحد أن نأخذ فكرة "ثورو" مأخذ الجد، إلا أنني فجأة شعرت بالحرج من أني بدون تفكير ارتديت قميصًا كتب عليه "عليك اللعنة يا صدام – Saddamned" وأنا ذاهب للمدرسة أثناء الحرب. لم أكن أتبين بوضوح إذا كنت أعتقد أن الغزو هو من الصواب أم الخطأ وتبينت فجأة اني لم أطرح هذا السؤال على نفسي قط، نظرت للعصيان المدني بشكل مختلف، وقد ألقى ذلك بضوء جديد على العالم من حولي.

كانت هذه البداية لتحول أوسع في أسلوب تفكيري، ففي رأسي أحببت بعض الأفكار وفي داخلي كنت أعرف أنه يعتد بها فقط عندما تكون متصلة بالواقع.

كانت ليزا مختلفة، ويمكنك إدراك ذلك بمجرد النظر لها. لم تكن تنضم لباقي الفتيات اللاتي كن يتجمعن في الفناء في وصلات ضحك ولم تكن تبدو وحيدة عندما تسير بمفردها، كانت هادئة في الفصل ولكن يمكنك القول أنها لم تكن خجولة، ومن حين لآخر تجاوب على سؤال وحينئذ يبدو في وضوح أنها صاحبة فكر فريد.

انتقلت أسرة ليزا لمدينة "جلين ألين" في وقت ما أثناء السنة الثانية لي. بصفة عامة كانت تحدث ضجة في غرفة البنين لخلع الملابس عن أي فتاة تستجد، إلا أن ليزا لم تكن ترتدي نوع الملابس أو توزع الابتسامات التي تسترعي مثل هذا الانتباه. ظلت تتحرك دون أن يلحظها أحد لعدة أسابيع. وكان صديقي "إيريال" هو أول من ذكرها في مجموعتنا، كان ذلك في ليل يوم جمعة، وكنا نستكمل لعبة كرة السلة كالعادة في جمعية الشبان المسيحيين وأثناء وجبة من بقول "البوريتوس" التي كنا نشتريها بتسعة وخمسين سنتـًا في مطعم "تاكو بيل"، وتحول الحديث من السخرية عن المهارات الرياضية إلى مقارنة المرتبة العلمية، راهن "كارثيك" بأنه من الخمسة الأوائل معلنا أقرب منافسيه واضعًا خطة للتفوق عليهم.

قال إيريال " لقد نسيت أمر ليزا".

سأله بارتباك "من هذه؟"

أجاب إيريال "إنها تتسم بالذكاء، إنها أكثر ذكاء منك، وأعتقد أنها أكثر ذكاء مني"، مما كان يعني أنه يحبها.

ليتني أستطيع القول بأن علاقتنا كانت رومانسية أو على الأقل متعمدة، إلا أنه تنقصني الحنكة تمامًا في مثل هذه الجوانب. كل ما كنت أعرفه أن ليزا كانت تضع خططها متجهة نحوي، ولكن، بغض النظر، حدث الأمر، وبدأت فجأة في ترك معارك مباراة مسابقة "جيوباردى" بعد ساعات الدراسة مع أصدقائي، وبدلاً من ذلك أقوم بتوصيل ليزا لبيتها كل يوم.

كنت أشعر بشيء من الحرج بالنسبة لسيارتي فقد كانت من طراز "أولدزموبيل كاتلاس" موديل ١٩٧٣، وكنت قد أقضيت عليها كل ما أملك من مدخرات والبالغة ٤٠٠ دولار، كان أبي يسميها "القارب الكوبي"، وكان الطلاء الأخضر والصدأ البني اللون يتعاركان

للظهور على السطح، وكان الشباك المجاور للسائق لا ينغلق سوى لمنتصفه فقط وهذا يعني أن البرودة تصل لدرجة التجمد في الشتاء. كان المقعدين الأماميين قطعة واحدة يفصلهما فقط مسند ذراع يصدر عنه صرير، وكان جهاز التسجيل معطل وشريط "من هو كوادروفينيا" محشور بداخله وأحيانـا لا يمكنني غلقه وهذا يعني أن تظل موسيقى "ريل مي" تطن في آذاننا عالية طوال الطريق نحو البيت، لم تقل ليزا كلمة واحدة عن ذلك أبدًا، كانت تدلف لمكانها وتضع كتبها عند قدميها وتحكم ربط حزام المقعد وتقول "أنا جاهزة".

كنت أدعو أن تغلق الإشارتان المروريتان الموجودتان في الطريق ما بين مدرسة "جلينبارد ساوث" الثانوية وبيتها الذي يبعد ميلاً ونصف، كان هذا يعني أن يطول حوارنا عن "الكوميديا الألهية" التي كتبها "دانتي" والتي كنا نقرأها في دروس الإنجليزية المتقدمة أو الفيلم الذي شاهدناه في درس التاريخ الأمريكي المعاصرلمدة تسعين ثانية إضافية.

"تطلع إذا أردت، ولكن سوف يكون عليك أن تقفز" هذا ما كتبه "دبليو إتش أودن" وفي يوم من الأيام فعلت ذلك.

لم يكن هناك خطوات في غرفتي أو مران أمام المرآة، أو مداولات أو مشاورات مع الأصدقاء المقربين أو إحساس بالقرار الخطير ولكن مجرد اندفاع في القول. فبعد أن وضعت ليزا حقيبتها عند قدميها وقبل أن تحكم ربط حزام مقعدها قلت "أنا أعتقد أنه ربما آن الأوان لنكون أكثر من صديقين، وأنت؟

نظرت إلي ثم نظرت للأرض ثم عادت ونظرت إلي قائلة "نعم" ثم قالت "لا" واختتمت بقولها "ربما".

أمسكت بحزام المعقد ثم توقفت، رفعت مسند الذراع الذي يفصل بين الراكب والسائق وانتقلت ببطيء وجلست بهدوء إلى جواري وقالت "أنا جاهزة".

في ذلك اليوم استوقفتنا إشارتا المرور إلا أننا لم نتحدث كثيرًا، كنا معا، وكان كل منا قد قفز تاركا هذا العالم لعالم آخر.

كنت أنا على استعداد لترك عالم معارك "جيوباردى" والمناقشات في مطعم "تاكو بيل" ولم تكن ليزا من نوع الفتيات اللاتي يردن التسكع ومتابعتي مع أصدقائي ونحن نلعب كرة السلة ونتفاخر فيما بيننا، وكنت أنا متعبًا من كل ذلك على أية حال.

إلا أن تردد ليزا في السيارة كان ينطوي على مسألة أكثر صعوبة وتعقيدًا، كانت ليزا من طائفة "المورمون" وتؤمن بأن الرب قد أوحى إلى "جوزيف سميث" بأن المورمون هم شعب الله المختار وبأن أمريكا هي أرض الميعاد، كان حلمها هو أن تقابل زوجًا في الكنيسة أو في جامعة "بريجهام يانج"، ربما مبشر عائد يتحدث بلغات متعددة بعد أن حول عددًا من الأسر إلى عقيدته وتكون لديه شغف بالكتابات الأدبية للبلاد التي صادفته وأقام فيها. قد يذهبون معًا إلى السينما لمشاهدة فيلم مصنف "بإرشاد الأباء" ويشربان الحليب المخفوق "ميلك شيك" بعده (ولا يتناولان القهوة أو الشاي لأن كل المشروبات المنبهة محظورة). ويتم الزواج في معبد المورمون وينجب الزوجان ستة أطفال.

وأحيانًا قد تحضر الأسرة كلها في الكنيسة صباح الأحد، وفي أحيان أخرى يجلس الأطفال منفصلين ليعطوا ليزا وزوجها وقتًا روحانيًا معًا. وقد يصبح بيتهم بمثابة مكان جاذب لأطفال الحي حيث يتجمع العشرات لكي يلعبوا ألعابًا في الداخل أو لعبة البحث عن العلم في الغابات المجاورة، وقد تقوم ليزا بعمل المخبوزات لهم، وقد يدير زوجها عملاً خاصًا ويحصل على الكهنوتية (بمعنى أنه ذكر وفي وضع جيد في كنيسة المورمون) أو يخدم بتميز كأسقف في الجناح المحلي (بمعني أنه في وضع قيادي بين المورمون في منطقة جغرافية معينة). وقد يكون أبناؤهما من محبي المغامرة أو مشاغبين إلا أنهم قابلين للإصلاح، فإذا تم الإمساك بأحدهم وهو يتسلل وبحوزته "صودا بوب" أو يتصفح مجلات لصور الفتيات أو يتبادل الشتائم مع أصدقائه فإنه يقال له بلطف أن المورمون لا يفعلون ذلك فيكف عنه.

وعندما يكبر الصغار قد تلتحق ليزا بعمل في الكلية المحلية لتدريس الآداب، هذا كله بينما تكتب مقالات لمجلات مثل "ليديز هوم جورنال" ثم تركز بجدية أكبر على كتابة القصص القصيرة والشعر، وقد لا تستسيغها الأسرة ولكن هذا العمل يسعدها. وقد تعيش في الخارج لبضع سنوات لتقديم المشورة للمبشرين الشبان، وعندما يتقدم بهم السن فإنهم يرحبون بالعبور للعالم التالي حيث يضمن لهم عرس المعبد تجمعهم كلهم مرة أخرى وللأبد.

بدلاً من ذلك قابلتني، شاب هندي مسلم فاره الطول ونحيف أكثر من اللازم كثير العناد ويستمتع بالأفلام التي تصنف "للكبار فقط" واكتسب حبًا لمذاق القهوة.

وقد حسمت قيم المورمون التي تؤمن بها ليزا الصراع الدائر بين نشأتي الإسلامية

وهورموناتي الذكورية، ففي إحدى الأمسيات عندما كنا جالسان أنا وليزا عن قرب في الطابق السفلي لبيتي، تنهدت وقالت لابد أن أفعل شيئًا وأمسكت بورقة وقلم ورسمت عصا وقالت "هذه أنا" ثم رسمت بعناية دائرة فوق الجسم وتركت رقبتها ووجهها ويديها وذراعيها حتى الكتفين وكذلك ساقيها تحت الركبتين خارج الدائرة، وقالت لي "ما هو داخل الدائرة هو خارج حدودنا".

ولما كان هذا الجانب من علاقتنا مقيدًا، كنا نمضي وقتنا في أشياء أخرى، وأخيرًا وجدت من يشاركني في حياة القراءة الخفية. كنا نمضي أيام الصيف أنا وليزا في الحديقة العامة يقرأ أحدنا للآخر من كتبنا المفضلة، وكان خيالها الشاعري يعقد الصلات بين الكتابات الأدبية وبين الحياة كما لم أشهد أبدًا من قبل.

إن الحب الأول غير محدود في تنوعه، ولكنه فريد في أثره، سواء كان ما تحبه هو ديانة أو دواء أو كتابًا أو شخصًا، فلا يمكنك أن تتوقع أن تخرج على الجانب الآخر إلا وقد تغيرت تمامًا على أقل تقدير. وهكذا كان الأمر بالنسبة لي مع ليزا. كانت حياتي حتى هذه المرحلة تسيطر عليها الرغبة الشديدة في تحقيق النجاح الشخصي، وبالرغم من أني كنت أرى ليزا تتميز في الدراسة وفي النادي ولها فكر وشخصية تتفوق تفوقًا واضحًا على فكري وشخصيتي، وجدت قلبي رغمًا مني يتجه نحوها، ولا احد كان مندهشًا لهذا الأمر أكثر مني. قبل ليزا كنت أتصور أني قادر فقط على التنافسية، ولكن مع ليزا – أو ربما بسبب ليزا- اكتشفت مساحات واسعة داخلي وكان ذلك إعدادًا جيدًا لمستقبل إعادة التزامي بالإسلام مثله مثل كل شيء آخر.

كان تدين ليزا يركز على الحقيقة، كان هذا لدى المورمون ولم يكن لدى الآخرين، ولم يكن خيار ليزا أن يكون الأمر هكذا، لم تكن تسيطر على الحقيقة ولكن تلك هبة يمنحها الرب. هل كانت تؤمن بذلك؟ هل كانت تتبع ذلك؟ كانت هذه هي الأسئلة ذات الصلة، وأستطيع القول بأن ذلك كان يؤلمها أحيانًا. كانت جدتي لأمي تعيش مع أسرتي عندما كنت في المدرسة الثانوية، كانت لطيفة للغاية ومرحة وتقية، وفي غير أوقات الصلاة كانت تطلق النكت بكل أنواعها، وتمضغ حبات التبغ عندما لا تراها أمي (و تصر على أن ذلك يحتفظ لها باليقظة) كما أنها كانت تنضم لنا أنا وأخي في إزاحة أوراق الخريف من على ممر السيارة، وذلك باستخدام أكثر أداة تناسب حجم يدها: محفة صغيرة لغرف المعجنات.

سألت ليزا ذات مساء بشيء من التحدي "ألن تذهب إلى الجنة؟"

كنت أنا على استعداد لترك عالم معارك "جيوباردى" والمناقشات في مطعم "تاكو بيل" ولم تكن ليزا من نوع الفتيات اللاتي يردن التسكع ومتابعتي مع أصدقائي ونحن نلعب كرة السلة ونتفاخر فيما بيننا، وكنت أنا متعبًا من كل ذلك على أية حال.

إلا أن تردد ليزا في السيارة كان ينطوي على مسألة أكثر صعوبة وتعقيدًا، كانت ليزا من طائفة "المورمون" وتؤمن بأن الرب قد أوحى إلى "جوزيف سميث" بأن المورمون هم شعب الله المختار وبأن أمريكا هي أرض الميعاد، كان حلمها هو أن تقابل زوجًا في الكنيسة أو في جامعة "بريجهام يانج"، ربما مبشر عائد يتحدث بلغات متعددة بعد أن حول عددًا من الأسر إلى عقيدته وتكون لديه شغف بالكتابات الأدبية للبلاد التي صادفته وأقام فيها. قد يذهبون معًا إلى السينما لمشاهدة فيلم مصنف "بإرشاد الأباء" استدارت ليزا بعيدًا وكانت أكثر ذكاء من ألا تكون قد طرحت نفس السؤال على نفسها، إلا أنها لم تكن لتتحمل الإجابة، قالت أخيرًا " ستكون لها منزلة جيدة"، وقد رضيت برد ليزا، وأستطيع القول بأنه نابع من قلبها أكثر مما يعبر عن عقيدة المورمون. تيقنت أن قلبها أكثر أهمية، وهذا اليقين هو ما شكل حياتي وعملي منذ ذلك الحين كنت مقربًا من عدد كبير من المورمون خلال العقد الأخير، ومازلت لا أعرف كيف تنظر عقيدة المورمون للمؤمنين المخلصين بالعقائد الأخرى، وقد علمتني هذه اللحظة مع ليزا درسًا دائمًا في علم الاجتماع الديني:أن قلب أكثر أنسان إيمانـًا سوف يأتي بدلائل أكثر دقة لسلوكه من لاهوت ديانته.

في علاقة دامت أكثر من السنة بقليل لم تجعلنا نشعر سواء أنا أو أسرتي بأننا أقل شأنـًا لأننا لسنا من المورمون، وعلى الرغم من أني كنت أعلم أنها لا تتمنى شيئـًا أكثر من أن أعتنق عقيدتها لم تكن أبدا تستعلي أو تتصرف بشكل غير لائق. ذكرت بضعة مرات أنه يمكنني أن أذهب معها للكنيسة وأعطتني نسخة من كتاب المورمون إلا أن النقاش لم يذهب لأبعد من ذلك، كانت تجعل كلمة القسم تمر دون لوم كما أنها وافقت على مشاهدة الأفلام المصنفة "للكبار فقط" على الرغم من أنها كانت تجعلني أسرع عرض كافة المشاهد "الجيدة" من أفلام "فرانك وجوني" و"آل باتشينو" و"ميشيل فايفر". ولكني علمت بعد ذلك أنه حتى يكون لي مستقبل مع ليزا لابد أن أغير عقيدتي، قلت لليزا أني أقرأ في كتاب المورمون وأني

سوف أتخلى عن مباراة كرة السلة مع أصدقائي في صباح أيام الأحد لأذهب معها إلى الكنيسة، ولكني لم أفعل هذا قط، كنت أحب واحدة من طائفة المورمون إلا أني كنت أنكر عقيدة المورمون، والواقع أني كنت أنكر أشياء كثيرة عندما جاء ربيع السنة النهائية في المدرسة الثانوية، شعرت أن بلدة "جلين ألين" هي بلدة مليئة بالجدر العالية وأن هذه الجدر تطبق علي. كنت مستعذا لعالم جديد.

بكيت كالطفل في الليلة التي سبقت رحيل ليزا إلى جامعة "بريجهام يانج" وأقسمت على أن بعد المسافة لن يمنع علاقتنا من الاستمرار اثناء الجامعة، اشتريت كروت تليفون بمائة دولار كما بحثت في البرامج الأكاديمة في جامعة "بريجهام يانج" إلا أني عندما وصلت لجامعة "إلينوي" شعرت أن صدري قد انشرح في ليلة وضحاها. كانت مدينة "شامبين أوربانا" لا تبعد عن بيتي سوي ثلاث ساعات بالسيارة إلا أن شعوري بالهواء كان مختلفا.

كلما انغمست في هذا العالم كلما شعرت أن هذه هي بيئتي الطبيعية، كان كل فيلم شيق أشاهده يبدو لي وكأنه "للكبار فقط"، وعند مغادرتي لدار السينما لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في أني لم أكن لأشاهد هذا إن كنت بصحبة ليزا"، وأكثر الكتب التي أعجبت بها كانت كتبًا تنتقد أمريكا، حاولت أن أتحدث عنها مع ليزا ولكن لم يكن هذا إلا ليذكرني بأنه بالنسبة للمورمون أمريكا هي أرض اللبن والعسل.

جاءت ليزا مع عالم أخر وفي "بريجهام يانج". أصبحت أكثر استغراقًا فيه، لم أعد أستطيع الكذب على نفسي أو على ليزا. لم أكن أعرف وجهتي ولكني عرفت أنه علي أن أترك رئتي تتمدد. بدأت ليزا تسألني على فترات متقاربة إذا كنت أقرأ كتاب المورمون، وتوقفت عن الكذب عليها، وبكيت كالطفل مرة أخرى عندما قالت لي ليزا أنها تحتاج للمغادرة، ولكني عرفت أن كلانا قد غادر بالفعل.

الفصل الثالث

سياسات الهوية

تأتي سائر المخلوقات إلى الدنيا وهي تحمل معها ذكرى العدالة .

جي. إم. كويتزي

كانت أولى ذكرياتي في الكلية في قاعة التمرينات الرياضية، حيث كانت تقام ثلاث مباريات لكرة السلة – مباراة للسود ومباراة للأسيويين ومباراة للبيض، شعرت بالحيرة ليس بالنسبة لمن أنا، فأنا أعرف أني أبيض، لقد أنفقت سنوات لأصبح هكذا، ولذلك بدأت ألعب كرة السلة كأول شيء، فهذا ما كان يفعله الصبية البيض المرموقين في مدرستي. وتصورت أن المشكلة البدنية ولون بشرتي البني سيتم التغاضي عنه إذا ما أتقنت قفزة التصويب على ارتفاع خمسة عشر قدمًا، وكان ملعب كرة السلة في نظري وكأنه دلو كبير ممتلىء بمبيض للبشرة.

نظرت للصبية من السود والأسيويين وكان يبدو عليهم الارتياح كانوا يتصايحون الواحد للآخر في أول الملعب وآخره في اندفاع واضح وركض والتقاط ومناورة وتمرير والتحرك بالإيقاعات الفريدة الخاصة بهم. ألم يشعروا برغبة في اللعب على ملعب البيض؟ ألم ينفقوا سنوات يتعلمون فيها لعبة البيض حتى يتمكنون من جعل حركاتها ملكًا لهم؟ أليس هذا معنى أن تكون ملونـًا في أمريكا؟

لم يبدُ العالم جديدًا أبدًا على هذا النحو في نظري كما بدى لى في تلك الشهور القليلة الأولى في الكلية. كان الدرس الأول عن فكرة العنصر، تعلمت فيه أنه ليس بالضرورة أن يرغب الجميع في أن يصبحوا بيض اللون. أتذكر أني رأيت فتاة كورية كانت زميلتي في المدرسة الثانوية عبر البهو في "اتحاد جامعة إلينوى". ناديتها "كريستين" ولكنها لم تستدر، وقد شرحت لي صديقة مشتركة فيما بعد وهي أيضًا من كوريا بعد أن أخبرتها بما حدث :"لقد عادت لاسمها الكوري وقررت ألا ترد أبدًا على من يناديها بكريستين."

سألت :"ما معنى هذا بحق الجحيم؟"

"هذا ما يحدث لعدد كبير من الكوريين عندما يلتحقون بالكليات، يصبحون أكثر تمسكًا بأصلهم العرقي وبثقافتهم، ويختلطون فقط بالكوريين الآخرين."

لقد استخدمت الكلية كمكان لتعود فيه إلى لونها، وكلما نظرت حولي تيقنت أنها لم تكن الوحيدة، كانت المقاهي مقسمة وفقـًا للعنصر والعرق، بخلاف ما كان يحدث في المدرسة الثانوية حيث كان يجلس الصبية ممن لهم الشعبية (معظمهم من البيض) على مائدة ويتمنى الآخرون مكانـًا هناك وكان الناس يريدون أن يكونوا في مكانهم، والحقيقة أنهم كانوا يفتخرون بمناطقهم الخاصة ويحافظون عليها بشراسة.

كان لكل مبني سكني للطلاب بالإضافة للمجلس العام للطلبة اتحاد للطلاب السود، وحضرت درسًا مع رئيس اتحاد الطلاب السود في مبنى "ألين" حيث أقمت خلال السنتين الدراسيتين الأولى والثانية وانبهرت بفكره وحماسه، سألته :"لماذا لا تترشح رئيسًا لمجلس مبنى ألين؟ أعتقد أنك ستكون عظيمًا وأعتقد أنه سوف يقع عليك الاختيار."

أجاب"اللعنة على مجلس مبنى ألين، كل ما أفعله أقوم به من أجل السود." ولم يلتفت الصبي الأسود الجالس إلى جانبه ليواجهنا، وإنما أومأ فقط.

أتذكر اللحظة التي فهمت فيها معنى كل ذلك، فأثناء الفصل الدراسي الأول في الكلية، وجدت نفسي شديد الإعجاب بشابة جميلة في حصة الجيولوجيا، وبالطبع كانت بيضاء وكانت بالنسبة لي جميلة بكل ما تعنيه الكلمة. وحصة بعد حصة كنت أبحث عن الفرصة. وفي أحد الأيام كنت قريبًا منها بحيث ألقيت إليها بابتسامة مباشرة وحاولت أن ألفت نظرها، صوبت نحوي نظرة ازدراء وغيرت وجهتها، وبدأت تسير مع مجموعة من الجميلات، فتيات بيضاوات مثلها.

وأذكر أني قلت في نفسي "حسن، كان لا يجب على كل حال أن أحاول فالفتيات اللاتي على شاكلتها لا يقبلون شبابًا مثلي" وتوقفت عن محاولتي، ماذا كنت أقصد بهذا؟ أساسًا الآتي: الفتيات البيض لا يقبلون الشبان أصحاب البشرة البنية، لون بشرتي واسمي الإثني ونوع الأغذية التي تطهوها أمي معناه عدم الوصول لبعض الدوائر. لقد تعلمت هذه القاعدة في سن مبكر للغاية وعشت بها لسنوات عديدة، ومن يخالف هذه الشفرة السرية فإنه يتعرض لعقوبة الاستهزاء.

تقبلت ببساطة هذا الوضع لمدة طويلة على أساس أنه حقيقة من حقائق الحياة، إلا أن الكلية أعطتني إطارًا مختلفـًا أنظر به إلى مسألة العرق، المشكلة لم تكن تكمن في بشرتي ولكن في عينيها.

وبعد أن ابتلعت برشامة تفوق البيض طوال فترة المدرسة الثانوية وسمحت لسمومها أن تنتشر في جسدي، أعتقد أنه لم يكن من المفاجئ أن أقبل طواعية أول دواء شاف يظهر. هذا الدواء كان سياسات الهوية وكانت في أوجها أثناء سنوات دراستي وقبل التخرج.

كانت الفكرة العظيمة لسياسات الهوية حوالي عام ١٩٩٤ أو على الأقل وفقًا لما فهمناه أنا وفريقي تتلخص في الآتي: إن مكانة الفرد في العالم تتحدد بالكامل وفقًا للون بشرته ودخل أبويه وشكل أعضائه التناسلية. لقد قام أبناء الطبقة المتوسطة البيض ببناء ثقافة واقتصاد ونظام سياسي بهدف الحفاظ على نفوذهم. في البداية أطلقوا عليها الحضارة الغربية ثم أسموها أمريكا والآن يسمونها العولمة. هؤلاء هم الظالمون، أما نحن الباقون – فمظلومين – كنا لهم بمثابة المخالب في لعبتهم التي مارسوها لمدة أطول من اللازم. وعدد قليل من الأبطال على مر الزمن من اعترضوا على ذلك، وكان أشجعهم –"نات تيرنر" و"لوسي بارسونز" و"ستوكلي كارمايكلز" هم الذين ثاروا. وكان ظهور سياسيات الهوية بداية عصر جديد وقوة فكرية تحررية عظيمة سمحت لنا ليس فقط أن نفهم الآليات الحقيقية التي يعمل بها النظام ولكن أن ندرك حقيقتنا الأصيلة وأن نعود إليها.

كانت حقيقتنا الأصيلة بالطبع محددة بالكامل بالعنصر الذي نعود إليه والطبقة التي ننتمي إليها والهوية والنوع الاجتماعي الذي يشكل كل شيء بدءًا من السياسات الشخصية إلى الصداقات وإلى الذوق في المأكل وفي الموسيقى. أن تكون أسود معناه أن تكون على الأقل ليبراليًا، وإذا كنت تعرف أي شيء عن تاريخك (مما يعني بالنسبة لنا معرفة الزعيم "ماركوس جارفي" أو "فريدريك دوجلاس") فإنك تتنبه لطبيعتك السياسية الحقيقية أي أنك تصبح راديكاليًا، هل يمكن أن تكون جمهوريًا أسود؟ لا يوجد شيء من هذا القبيل. وماذا عن "كولين باول" و"كلارينس توماس"؟ لدينا تفسيرين إما أن يكونا قد انخدعا بهيكل سلطات البيض (وبذلك لم يكونا حقيقة من الجمهوريين) أو أنهما كانا على استعداد لبيع شعبهما لمكاسب شخصية (وبالتالي لم يكونا حقيقة من السود).

لقد قضينا ساعات لا تحصى نناقش فيها المسميات: أسود أم أمريكي من أصل أفريقي أو أسباني أو من أمريكا اللاتينية، أمريكي بالمولد أو من السكان الأصليين؟ كنا نتناقش إلى حد العراك حول الطبيعة المختلفة لأنواع الاضطهاد، هل تتعرض المرأة السوداء للقمع بصورة

أكبر على أساس من عنصرها أم على أساس من نوعها؟ من كان أكثر تعرضًا للتهميش الأمريكيين من أصل أفريقي أم من أصل لاتيني أم الأمريكيين من السكان الأصليين؟ وعندما شعر الأمريكيون من أصل آسيوي أنهم مهملون إلى حد ما وجهوا الدعوة لمتحدث أمريكي راديكالي من أصل آسيوي داخل الجامعة حيث ألقى خطابًا بعنوان" أين الأمريكيون الآسيويون من أتباع "مالكوم إكس"؟

كان هتافنا في المعركة "أي مسألة شخصية هي مسألة سياسية"، انشطرت على الفور بعض الأعمال الفردية المنتقاه لتصبح حقائق على نطاق واسع، فلم تعد المسألة مسألة أربعة من الشرطة البيض يضربون "رودني كينج" ولكنها أصبحت قضية كل إنسان أبيض يقمع إنسانًا ملونًا على وجه الأرض.

في حصة التاريخ في المدرسة الثانوية كانت أمريكا تطرح على أنها أرض الفرص والحرية ولم يذكر لي أحد شيئًا تقريبًا عن جانبها المظلم، والأن لا أحصل على ما يكفي، لقد قرأت قصة "هوارد زين" عن رحلة "كولومبس" وشعرت بالسقم بسبب أن الرجل الذي نحتفي به على أنه "مكتشف" أمريكا قد وضع الخطط لاستغلال السكان الأصليين هنا فور أن وقع بصره عليهم، علمت أن "قرار خليج تونكين" الذي أدى إلى تصاعد كبير لحرب فيتنام ربما كان أساسه أكذوبة، لقد أرسل الرئيس "ليندون جونسن" دفعات من الفقراء ومن الأقليات الأميركيين لتدمير بلد بسبب أنانيته، لقد قال أحد أساتذتي إن السلطة سوف تقوم دائمًا بقهر الشعوب.

كان الدليل على ذلك أمام عيني، لم تكن "شامبين أوربانا" مدينة بالمعنى الكامل ولكن كانت لها مشاكل اجتماعية أكثر من "جلين ألين"، كل ما عليك أن تفتح عينيك لترى المحاربين القداماء في فيتنام وهم في الشارع يشربون غسول الفم لما به من الكحول والأطفال السود في الجانب الفقير من المدينه يتوجهون لمدارس مستواها أدنى بكثير من مدرسة "يونيفرسيتي هاي" حيث كان الأساتذه يرسلون أبنائهم.

بدأت أرى الدنيا من خلال إطار وعيي السياسي الذي يتجه نحو الراديكالية، وكما شاهدت الصبية البيض السكارى يقلدون المشردين في "جرين ستريت" في مساء أيام الجمعة رأيت القطط السمان من أصحاب الشركات يأكلون "الكافيار" بينما الأمريكيون الفقراء

يتضورون جوعًا أثناء حقبة الكساد الكبير، وعندما تدفقت حشود مشجعي "فايتينج إلليني" في طريقهم إلى مباراة كرة السلة وهم يرتدون فانلات "تي شيرت" وقبعات تبين التميمة المهينة للجامعة الزعيم "إللينيويك" رأيت روح كريستوفر كولومبوس تسحق السكان الأصليين.

كان رد فعلي هو الغضب، وأذكر أني كنت أصيح في زملائي الطلبة في حصة العلوم الاجتماعية في جامعة إلينوي لأقترح إصلاح نظام الرعاية الاجتماعية بحيث يحظى الفقراء بالمزيد من المسئولية الشخصية وكنت أحتج غاضبًا على المتحدثين من المحافظين الذين كانوا يأتون في مقر الجامعة وكنت أسمي أي شخص يتقدم لشغل وظيفة في شركة بأنه خائن، وكانت أول فكرة لى تعن كل صباح وآخر فكرة تأتيني كل مساء هي فكرة أن "أمريكا مصممة على الإمبريالية".

كان الفكر الراديكالي للسود في فترة الستينات – "هـ. راب براون" و"هيو نيوتن" وبدايات "مالكوم إكس- هو الذي يقودني أكثر من أي شيء، وكان الدرس الأساسي الذي تلقيته من هذه الموضوعات هو أن التقدم خرافة، فإما الثورة أو لا شيء، وأقتبس من "مالكوم إكس" قوله لليبراليين أصحاب اللسان المعسول ممن يستشهدون بانتصارات حركة الحقوق المدنية "لا يمكنك أن تغمد سكينـًا طوله تسع بوصات في ظهر رجل ثم تسحبها ست بوصات وتسمي ذلك تقدما"، وجدت نفسي مغرم بشكل متزايد بالإشادة من حين لآخر بقيمة العنف، لقد قرأت في أحد الكتب "في كل مرة يقتل فيها شرطي شخصًا من حي "هارلم" سوف ننتقم بقتل شخص من وسط المدينة" وكان تعليق مالكوم إكس "شيء ضروري بأي وسيلة". وكان هذا يعني الكثير بالنسبة لي، إذا كانت الأداة الأولي للنظام الأمريكي في التعامل هي لغة العنف إذن فإن من يسعوا منا لتغييرها لابد لهم أن يصبحوا متمكنين من هذه اللغة.

وجدت نفسي أمارس الضغط بشكل أكبر، بدأت أسمي الليبراليين "زنوج المجلس – house niggers" وهي عبارة تعلمتها من قراءة "مالكوم إكس" وتعني أنهم أصبحوا مستأنسين ومتراخين أكثر من اللازم للقيام بالإجراء اللازم لهدم النظام، ولشعور أبي المتزايد بالإحباط بسبب أسلوبي الحاد طلب مني ألا اتكلم في السياسة عندما أحضر للبيت وكان ردي: "أنت بورجوازي أكثر من أن ترى ما يحدث بالفعل في هذا العالم" فانفجر من الغضب قائلاً ما معناه أن أساليبه "البورجوازية" هي التي تدفع لي مصروفات الدراسة في الكلية، وأعتبرت غضبه

دليلاً على أني على الطريق الصحيح. لقد كان كل راديكالي يُرفض ويتعرض أيضًا للسخرية عندما يقول الحق أمام السلطة، كان شعور أبي بالإحباط بمثابة تأكيد لي بأنني دخلت في زمرة الثوار الصالحين.

بحثت عن نماذج من الناس ممن حاولوا التصدي لآلية الإمبريالية الأمريكية، قال لي واحد من الراديكاليين في الجامعة: " هل سمعت من قبل عن "بيل آيرز" و"برنادين دورن"؟ لقد شكلوا تنظيمًا في الستينات من القرن الماضي اسمه "ويذر أندرجراوند – Weather Underground" الذي قام بتفجيرات استرتيجية هنا في الولايات المتحدة عليك أن تتفحص ذلك."

احتفظت بهذا بعيدًا في مؤخرة رأسي وكنت واثقا من أن هذا المرجع سينفعني في يوم ما.

ذهبت أحلامي أثناء المدرسة الثانوية في الحصول على تقدير ممتاز في اختبار القبول في كلية الحقوق وفي الحصول على وظيفة قانونية متميزة في إحدى الشركات في "لوس انجلوس"، كنت قد حررت نفسي من إطار العمل الرأسمالي الذي يجلب الرخاء للبعض والفقر للأغلبية، كنت قد غادرت العالم المعروف ودخلت في عالم الأساطير.

كان الشيء الوحيد الذي يربطني بالماضي هو العمل التطوعي، شيء من تجاربي في جمعية الشبان المسيحيين وإصرار أبواي على أن الخدمات جزء لابد وأن يلازمني. كنت أيضًا في حاجة للعلاقات الإنسانية، كان رأسي يهيم مع النظريات الراديكالية وكانت روحي تتفجرغضبًا، وكانت اللحظات التي اقضيها في محاولة جدية لتحسين معيشة شخص ما هي التي حفظتني من السقوط من حافة الهاوية. ففي صباح كل يوم أحد كنت أذهب لدار الإيواء لألعب الجيتار للمقيمين، وفي مساء يوم الإثنين كل أسبوعين كنت أساعد في الطهي وتنظيف المطبخ في مأوى النساء، وفي يوم الخميس من كل أسبوع كنت أتسلم الكيك والفطائر من المخبز المحلي واسلمها لجيش الخلاص (سالفيشن أرمي). وقد أصبح القياديون في المؤسسات المحلية للخدمة الاجتماعية بعضًا من أقرب الموجهين لي في "شامبين".

إلا أن أصدقائي من المثقفين والنشطاء كانوا غير مهتمين بمثل هذه الأنشطة، كانوا يظنون أن الخدمات الاجتماعية هي جزء من "النظام" وأنه بالتطوع كنت أساعد على استمرار

الظلم الكامن في النظام الرأسمالي، وكان محك الاختبار الذي يستخدمونه لأي مبادرة هو إذا ما كانت "راديكالية" وكانوا يعنون بذلك هل تؤدي عمليًا في النهاية إلي القضاء على النظام؟ توقفت عن إخبارهم بالبرامج الجديدة التي بدأتها كرئيس لمجموعة المتطوعين في "ألين هول" لأنهم سوف يرفضونها بالتأكيد مع وابل من الانتقادات ويكتبون سطرًا واحدًا "يبدو وكأنه برنامج ليبرالي آخر للطبقة الوسطى."

مما لا شك فيه أنه كان هناك شيئـًا سطحيًا في جزء كبير من العمل التطوعي الذي كان يجري عندما كنت تلميذًا، وكان الطلبة الاخرون ممن كنت أعمل معهم في مأوى المشردين وفي برامج التدريب يأخذون أنشطتهم التطوعية بجدية، ولكني عندما حاولت بدء النقاش عن أسباب التشرد أو التعليم غير المتكافئ لم يرغبوا في الاستماع لما أقول، قال لي أحدهم "تطوعي في جيش الخلاص في يوم الخميس لمدة ساعتين يجعلني أشعر بأني أرد الجميل، ولا أشعر بالاستياء بعد ذلك عندما أخرج واستمتع بوقتي في مساء الجمعة."

فكرت في أنه "أجل.. ولكن هؤلاء الذين تلعب معهم الورق مساء الخميس ما زالوا في جيش الخلاص يوم الجمعة بينما أنت في الخارج تستمتع بوقتك"، فإذا كان الهدف الأول من التطوع هو مساعدة الأخرين وليس التخلص من شعورنا نحن بالذنب أليس علينا أن نقضى بعض الوقت في التفكير في كيفية تحسين وضع المشردين بصورة دائمة؟

ولكني كنت متنبهـًا لحركة بناءة بدأت تتكون، التطوع جوهرها ولكن رسالتها العريضة كانت التغيير الاجتماعي، فإن منظمات مثل "درس من أجل أمريكا- Teach for America" و"عام المدينة – City year" و" الإسكان من أجل الانسانية – Habitat for Humanity" جمعت معًا الأنشطة الملموسة للبرامج التطوعية النموذجية إلى جانب رؤية حماسية للتغيير على النطاق الواسع. فإذا تطوعت في مشروع من مشروعات الإسكان للإنسانية فإنك لا تبني مساكن فقط ولكنك تنهي مساكن الفقر. وإذا التحقت ببرنامج من برامج " درس من أجل أمريكا" فإنك لا تساعد فقط ٣٠ من طلبة الصف الرابع ولكنك تغير شكل التعليم الأمريكي، وفي"عام المدينة" لا تمارس الاستعراضات في الحديقة وأنت ترتدي سترة حمراء ملفتة ولكنك تبين للعالم أن الشباب هم صناع التغيير المثاليين وأنهم ليسوا من غير المبالين أو المنطوين على أنفسهم.

علاوة على ذلك أخذت هذه المنظمات مسألة التنوع على محمل الجد، لقد تيقنوا أن تقديم الخدمات هو المكان المثالي لتجميع الناس من خلفيات عرقية وإثنية وطبقية وجغرافية متنوعة. وقد أنشأ الناس علاقات خاصة فيما بينهم وهم يقومون بمناولة لَبِنات الطوب في موقع من مواقع الإسكان للإنسانية أو وهم يقومون بالتخطيط لدروس للاطفال في مدرسة داخل مدينة. إن الهدف المشترك جعل لهم روابط مشتركة، وعلاوة على ذلك، ولأن هؤلاء الناس جاءوا من خلفيات متنوعة، فقد أتوا بالتالي بمنظور متنوع للتحديات التي ظهرت في مشروعاتهم الخدمية، وبعبارة أخرى هم فريق متنوع تكون من أجل خدمة أفضل.

بينما كان أصدقائي من النشطاء غاضبين بسبب قلة عدد المشاركين في اجتماعاتنا السياسية رأيت الآلاف من الدارسين في المراحل المتقدمة من أقسام الاقتصاد واللغة الانجليزية يسارعون في المشاركة في "درس من أجل أمريكا" و"الإسكان للإنسانية" و"عام المدينة". لقد تمكنت هذه المنظمات من خلق هالة حول نفسها. لقد كانت أوسع بكثير من البرامج الخاصة، وتحولت إلى أفكار ضمن الثقافة العامة. لقد اعترف الرئيس بيل كلينتون بذلك وأسس "أمريكوربس – AmeriCorps" للبناء على أساس تلك الطاقة.. وقد تنبهت صحيفة نيويورك تايمز ومطبوعات رئيسية أخرى ونشرت مقالات تمجد هذه المجموعات. وقد تيقنت أن "ويندي كوب" رئيسة جمعية "درس من أجل أمريكا" و"فانيسا كيرش" من جمعية "بابليك ألايز" و"ألان خازي" و"مايكل براون" من "عام المدينة" لم يكونوا أكبر مني سنًا بكثير، لقد أسسوا منظماتهم في وقت مبكر بعد تخرجهم من الكلية. كان هناك من جعلني اقتنع بأن أبطالنا الوحيدون هم شهداء الستينات من القرن الماضي. وشعرت بالفخرعندما علمت أن جيلي قد أنتج قادة كذلك.

كان السكن الطلابى الذي عشت فيه - ألن هول- معقلاً للسياسات المتطرفة والإبداعات الثقافية. كانت هذه أول تجربة لجامعة إلينوي في الجمع بين المعيشة والتعلم، وهذا يعني أن الدروس الأكاديمية تقدم في المهجع نفسه، بهدف زراعة نوع من الجو الليبرالي وكلية للفكر الحر. أما باقي من في الحرم الجامعي فكانوا يسمون هؤلاء "المهاويس وأصحاب النزوات".

واحدًا من أوائل من قابلت في "ألين هول" شاب طويل القامة نحيف اسمه "جيف بينزينو"، وكان يجسد "ألين هول" تمامًا. وعندما عدت من الفصل في فترة ما بعد الظهر كان

كعادته في الشرفة يلعب الكرة الشراب ويعزف الهارمونيكا مع شباب من "الهيبي". وكان يهتم بأشياء مثل علم الموسيقات الإثنية ويتابع الفيلسوف البريطاني "ألان واتس" وكان قد نظم فرق للكشافة "إيتر- ATER، ومجموعات الكتابة، وحلقات نقاش سياسي في المبنى. كان "جيف" يحصل دائمًا على أعلى الدرجات ومع ذلك لم يره أحد أبدًا يذاكر. وكانت المرة الوحيدة التي رأيته في المكتبة كان يستمع لموسيقى فرقة "دلتا بلوز" في أرشيف الموسيقى. وقد رأيته مرة يقرأ نشرة عن جامعة "مهاريشي" في ولاية "إيوا"، وعندما سألته عنها ذكر لي أنها واحدة من برامج الدراسات العليا التي ينظر في الالتحاق بها مع جامعة "ستانفورد" وجامعة "شيكاجو".

أحببت في "جيف" اهتماماته المتنوعة، وأحببت أكثر من ذلك قدرته على جعل الأمور تتحقق. سألته مرة "لماذا تضيعكل هذا الوقت في البدء في تكوين هذه المجموعات الصغيرة؟"

أجاب "لأن أهم شيء يمكن أن تتعلمه هو كيفية تحويل فكرة إلى واقع." كتبت هذه الجملة في يومياتي ووضعت ثلاثة خطوط تحتها.

كان مدير "ألين هول" واسمه "هوي شين" من الهيبيز القدامى، وقد حصل على درجة الدكتوراه من جامعة "بيركلي" أثناء ذروتها السياسية. كان ملتزمًا بالعدالة الاجتماعية وبتمكين الطالب بطريقة غير مكلفة. استطاع "هوي" أن يجتذب المدرسين بالمجمع من المهتمين بالسياسة الراديكالية وبالطلاب، للتدريس في "ألين". وقد اكتسب القسم الذي تدرس فيه مادة "مقدمة العلوم السياسية" في "ألين" شهرة وكان يدرسها أحد الماركسيين ممن لعبوا دورًا بارزًا في منظمة "المحاربين القدامى في فيتنام ضد الحرب". كان "هوي" لديه أيضًا غرفًا للموسيقى واستوديوهات فنية بداخل المجمع، كما استطاع جمع الأموال للطلاب لتأسيس برامج سياسية وثقافية، كما بدأ أيضًا واحدًا من أوائل البرامج بالبلاد لاستقبال الضيوف بداخل المجمع، مما أتى بالكتاب والفنانين والمحرضين السياسين للإقامة في المجمع والتفاعل مع الطلبة لمدة أسبوع أو أسبوعين. وكان الهدف من ذلك، كما قال لي يومًا ما، هو تعريف الطلبة أن المحاسبة والقانون والهندسة والطب ليست المسارات الوظيفية الوحيدة المتاحة في الحياة.

كان واحد من ضيوف المجمع هو من شجعني على ثاني علاقة جادة، "أميلي شهادة – Emily Shihadeh" مؤلفة مسرحية فلسطينية أمريكية، وقد أدت مسرحيتها الفردية التي تدور حول امرأة نشأت في مدينة رام الله وصنعت مستقبلها بنفسها في "سان فرانسيسكو" أمام

جمهور منتشي في "ألين هول". لقد احببتها، فقد كانت قوية الإرادة مثل أمي ولديها حس الفكاهة مثل أبي. أرادت أن ترى منطقة "شامبين" لذلك اصطحبتها لكافة الأماكن التي سبق أن تطوعت فيها: دار الرعاية حيث كنت أعزف الموسيقى، مساكن الإيواء حيث كنت أقدم العشاء، والمدرسة الابتدائية حيث كنت أعلم الأطفال ألعابًا عن السلام. وبعد واحدة من تلك النزهات ونحن عائدون بالسيارة التفتت إلى وقالت "أستطيع أن أرى ماذا تفعل، فإنك تحاول أن تعطي ما تملكه من حب من خلال تلك الأنشطة المختلفة، من الجيد أنك تساعد الناس ولكن لا يمكن أن تكتفي بالحب الناتج عن هذه الأعمال فقط، هذا النوع من الحب الذي لديك يجب أن يعطى لشخص واحد، شخص مميز".

لقد حدثتها عن سارة التي قابلتها بمؤتمر القيادات الطلابية ثم صرنا بعد ذلك أصدقاء. كانت حلقة النشطاء في "إلينوي" صغيرة لذلك كنا دائمًا ما نعثر على بعضنا البعض بسهولة. في بداية ذلك العام أنشأنا برنامجًا نأخذ فيه واحدًا من المقيمين بمساكن الإيواء لنزهة اجتماعية مرة اسبوعيًا. عادة ما كنا الطالبين الوحيدين اللذين يقومان بهذا العمل، وبعدما نعيد السكان للمأوى كنا نذهب لتناول الفطائر وسماع بعض موسيقى البلوز في وقت متأخر في محل "زوربا". وفي إحدى الليالي بعدما أوصلنا السكان نظرت سارة للسماء وقالت, "اليوم يوم مثالي لأن ندورتحت النجم".

سألتها " ماذا تقصدين بذلك؟"

سألت بسخرية متعجبة "ألم تمارس الدوران تحت النجوم من قبل؟". وهكذا قدنا السيارة إلى حقل يبعد بضعة أميال عن المجمع مشبكين معصمينا، وأمسكنا بأيدي بعضنا البعض وأخذنا ندور حول أنفسنا ونحن ننظر نحو السماء، ثم سقطنا على الأرض وأذرعنا ممتدة ونحن نضحك بشكل هستيري.

قلت لإيميلي "ولم أشعر بالدوار حينها لكنت احتضنتها". قالت لي "يا حبيبي" مستخدمة اللغة العربية. "عليك أن تذهب لهذه الفتاة الجميلة قبل أن تتوصل إلى أنك شديد الغباء وتبحث عن شخص غيرك".

كونها يهودية كان الشيء المحوري في شخصية سارة، فقد نشأت وسط برامج شبابية يهودية، وشاركت مرتين في "مسيرة الأحياء - March of the Living" حيث يحي شباب اليهود

ذكرى الهولوكوست عن طريق زيارة مواقع المعسكرات اليهودية بأوربا. كما خدمت أيضًا في المجلس الدولي للمنظمة الشبابية "B'nai B'rith's". وعندما تقابلنا كانت تدرس العبرية استعدادًا لقضاء فصل دراسي في إسرائيل.

بينما كانت معتقدات ليزا الدينية قائمة على مفاهيم الحقيقة، كانت مفاهيم سارة قائمة على الالتزام بالعدالة الاجتماعية والترابط بين الناس. لم تكن تلتزم بيوم السبت، يوم الراحة والامتناع عن العمل عند اليهود، ولكنها كانت تشعل الشموع مساء كل جمعة احتفالاً بقدوم يوم السبت."كانت أم جدتي تضيء الشموع وجدتي تضيء الشموع ووالدتي تضيء الشموع لذلك سأضيء الشموع", هكذا شرحت لي. لقد هرب أبويها من الدكتاتور الروماني القاسي "تشاوشيسكو" في أوائل السبعينيات وانتقلوا إلى اسرائيل، ثم غادروا اسرائيل وذهبوا إلى أمريكا ثم عادوا إلى إسرائيل مرة أخرى بعد انتهاء حرب ١٩٧٣. كانت سارة تسخر قائلة "معظم الناس يتركون ديارهم في حالة الحرب، ولكن أهلي عادوا لها". ولكني استوعبت الجدية وراء ما تقول. فقد كان قومها على استعداد للحرب دفاعًا عن يهوديتهم وكانت سارة تشعر أنه من مسؤليتها ومن دواعي شرفها أن تكون جزءًا من الثقافة ومن المجتمع الذي حارب ومات آخرون من أجله.

كثيرًا ما كانت سارة تتكلم عن tikkun olam وعن "tzedakah "، وهي عبارات عبرية تعني إصلاح العالم والصدقة. كانت هذه هي أهم مبادئ اليهودية بالنسبة لها، وفي رأيها أن هذه العبارات أوصت اليهود بمساعدة الإنسانية جمعاء خاصة من يتألمون. أتذكر أني ذهبت مع سارة إلى قاعة "فولينجر" في جامعة إلينوي لسماع رجل من الناجين من الهولوكوست يروي تجربته. لقد أخذت سارة تبكي طوال المحاضرة فقد قامت بزيارة المخيم الذي كان يقيم به الرجل. عند انتهاء المحاضرة قامت سارة بطرح أول سؤال :"لقد كنت منغمسة في ثقافة الهولوكوست منذ أن كنت في الثانية عشر، وعشت بشعار 'لن تتكرر'، ولكنها تتكرر الآن ثانية ونصب أعيننا في البوسنة فما الذي سيجعل ذلك يتوقف؟"

خيم الصمت على الحضور، وتمتم الرجل فوق المنصة بشيء ضعيف مهنئـًا سارة على اهتمامها. استمرت الأسئلة والأجوبة، ولكن ظل سؤال سارة معلقـًا في القاعة حتى نهاية الاجتماع. غادرنا أنا وهي، كنت هادئـًا أكثر من المعتاد سألت "هل هناك مشكلة ما؟"، قلت لها

"لاشيء حقـًا", ثم استطردت "فقط لأن الشخص الوحيد الذي سمعته يتكلم عما يحدث في البوسنة هو أبي، فهو شديد الغضب لأن المسلمين يذبحون هناك، وهو مقتنع إنه إذا ما كان هذا يحدث لليهود أو المسيحيين لحاول باقي العالم وقفه."

قالت سارة "أعتقد أنه شيء فظيع أن يتم قتل كل هؤلاء"، "لم أكن حتى أعلم أنهم مسلمين، ولكن أيًا كانوا فيجب على العالم أن يقدم لهم المساعدة".

عن لي شيء، ففي كافة دروس علم الاجتماع الخاصة بالهوية والتي تلقيتها وفي كافة المحادثات الليلية التي خضناها في "ألين هول" عن الموضوع، نادرًا ما كنا نتطرق إلى الدين. كنا نتحدث عادة عن حرية المرأة واللاتينيين والمساحقات. كانت دائمًا ما تعرف الهوية على أساس العرق أو المستوى الاجتماعي أو الجنس أو في بعض الأحيان التوجهات الجنسية. وعندما أصبحت مستشارًا مقيمًا، كان نصف تدريبي يركز على مواضيع تدور حول هذه الجوانب الخاصة بالهوية. لقد اتخذت حركة الخدمات التعليمية التنوع بجدية إلا أن التنوع كان يتناول دائمًا البيض والسود، والفقراء والأغنياء، وسكان الحضر وسكان الضواحي؛ ولكن لم يكن يتعلق بالمسلمين والمسيحيين واليهود. لقد عملت ببرامج مكتب شئون الطلاب من الأقليات وكان التركيز دائمًا على نفس الأشياء. كنا نتحدث عن الدور المحدود للفاعلين السود والتفرقة التي جعلت الساسة المعنيين بالشذوذ يستبعدون، وعبئ الوردية الثانية للمرأة، والرأسمال الثقافي الذى تراكم لدى أطفال الطبقة الوسطى بسبب ظروف مولدهم. كنا نشيد بكل من الكاتبتين "بيل هوكس - Bell Hooks" و" جلوريا أنزالدوا – Gloria Anzaldua" لقدرتهما على الكتابة حول تلك الهويات المتنوعة بطريقة متكاملة، وأمضينا ساعات طويلة نجادل إذا ما كان القمع المرتبط بكل هوية يتجمع أم يتضاعف. لكننا في الوقت الحالي بينما نحن متمسكون بأن الممثل "دانزل واشنطن -Denzel Washington" قد حصل على الأوسكار عن دوره في فيلم "مالكوم إكس- Malcolm X" كانت هناك حرب دينية تهز البلقان ويموت فيها عشرات الآلاف من البشر ولم يكن للعقيدة مكان في الحوار عن التنوع.

ما لم أخبر به سارة في ذلك الوقت وقلته في الواقع لعدد قليل، حيث أني لم أكن أعرف كيف أفسره لنفسي، هو أنني قد أكتشفت الدين مؤخرًا.

حصلت صدفة على نسخة من كتاب "روبرت كولز – Robert Coles" عنوانه "نداء

الخدمة - Call of Service"، وقد أنجذبت لشخصية كتب عنها وهي "دوروثي داي - Dorothy Day"، لقد تحدث عنها بمنتهى الرهبة وكأنها قوة من قوى الطبيعة.. كانت في الثلاثينات من عمرها أثناء فترة الكساد الكبير عندما أنشأت "داي" حركة تسمى حركة العمال الكاثوليك جمعت ما بين السياسة الراديكالية والخدمة المباشرة والعمل المجتمعي. خلال حوالي نصف قرن تخلت "داي" عن مميزات الطبقة الوسطى التي تنتمي إليها لتعيش مع البسطاء ممن جاءوا للإقامة بما سمي دار الضيافة للعمال الكاثوليك. كان الموقع الأصلي لدار الضيافة في الجانب الجنوبي الشرقي من مدينة نيويورك إلا أنه شجع قيام المئات من الدور في أنحاء البلاد.

ومثله مثل كل شيء آخر يبدو جيدًا، كنت مقتنعًا بأن حركة العمال الكاثوليك قد تلاشت في الستينيات من القرن الماضي.

قال لي أحدهم "كلا" وذلك عندما أشرت للعمال الكاثوليك وتحسرت على اختفائهم."ما يزال هناك العديد من دور العمال الكاثوليك قائمة، وفي حقيقة الأمر هناك واحدة هنا في مدينة "شامبين".

سألته وأنا مندهش "كيف تبدو؟".

"جزء منها ملجأ للفقراء، وجزء حركة فوضوية من أجل الرادكليين الكاثوليك، جزء مجتمعي وهو لأي شخص يدخله. والحقيقة أنه أسلوب معيشة جديد. عليك أن تذهب لهناك حتى تعرف".

منذ اللحظة الأولى التي دخلت فيها منطقة " سانت جود - St. Jude " بدى لي واضحًا أنها مختلفة عن أي مكان آخر ذهبت إليه فلم أستطع التمييز إذا ما كان ملجأ أم دار. لم يكن هناك من يقوم بالاستقبال، ولم يكن هناك مكتب للمديرالتنفيذي، أطفال بيض وسود وأطفال ذوي بشرة بنية يلعبون معًا بغرفة المعيشة. شممت رائحة طعام وسمعت أصوات إنجليزية وإسبانية تأتي من المطبخ. أول شيء قاله لي شخص هو "هل ستمكث للعشاء؟ "قلت "نعم"..

تم إعداد السلطة والخضراوات المطهوة بطريقة بسيطة ومشبعة وجاء الحوار سلسًا. سألت أحدهم بعد العشاء،"من هم طاقم العمل هنا؟ ومن هم المقيمون؟"

قال لي هذا الشخص "ليست هذه أفضل طريقة تفكر بها في هذا المكان، نحن نشكل مجتمعًا والسؤال الذي نطرحه هو 'ما هي قصتك؟'. توجد هنا عائلة هاجرت من بلدة صغيرة

في المكسيك، وقد تعرف الأب على هذا المكان من خلال أبريشيته الكاثوليك التي يتبعها، ولقد جاءت هذه الأسرة منذ أربعة أشهر، وهو وقت كافي حتى يجد الأب عملاً ويجمع مقدم لتأمين شقة، هناك آخرون هنا ممن يحملون شهادات جامعية يؤمنون بأن مشاركتهم المعيشة مع الفقراء هو من تعاليم المسيحية، وإذا أردت أن تتعرف على الفلسفة الكامنة وراء ذلك، أقرأ للكاتبة "دوروثي داي - Dorothy Day".

وجدت بعضًا من مقالات "داي" القديمة ونسخة من سيرتها الذاتية التي كتبتها. وجدت بتلك الكتابات تفسيرًا لما يعنيه أن تكون إنسانيًا وأن تكون راديكاليًا وأن تكون مفيدًا. كتبت "داي" مستحضرة أفكار أيامها في الجامعة لم أر شخصًا يخلع معطفه ويعطيه للفقير، لم أر شخصًا يقيم مأدبة ثم يدعو إليها الكسيح والضعيف والأعمى، ومن فعل ذلك مثل جيش الخلاص لم يعجبوني، كنت أرغب في الحياة وأرغب في الحياة المنعمة وأردتها للأخرين أيضًا."

كتبت في مقطع آخر في سيرتها الذاتية، "لماذا يبذل الكثير من أجل علاج الشرور الاجتماعية بدلا من تجنبها منذ البداية؟...أين كان القديسون ليحاولوا تغيير النظام الاجتماعي ليس فقط لمعاونة العبيد ولكن لانهاء الاستعباد؟"

هذا ما كنت أبحث عنه منذ أمد بعيد: رؤية للمساواة الأساسية- بحيث تعيش البشرية جمعاء حياة رغدة – ويمكن تحقيق ذلك من خلال تطبيق أسلوب الخدمة المباشرة وتغيير سياسات تغيير النظام. و قد تواجد هذان الأمران لوقت طويل في حيزين منفصلين في حياتي – فريق مختلف من الاصدقاء، وطريقة كلام مختلفة مع كل فريق، وها هي حركة جمعت بينهما، وأخيرًا أمكن الجمع بين جانبي نفسي في حيز واحد.

لقد كان الجزء الأساسي في كتابات "دوروثي داي" وحركة العمال الكاثوليك هو الإصرار على أن كل ما تقوم به الحركة تقوده قوة واحدة: هي الحب. كتبت "داي" في ختام سيرتها الذاتية "لقد عرفنا جميعًا الوحدة الطويلة، وتعلمنا أن الحل الوحيد هو الحب وأن الحب يأتي مع المجتمع"..لقد شعرت كأنها تتحدث إلي شخصيًا. كنت قد تعبت من الغضب، لقد تركني وأنا أشعر أني مفرغًا، وعلى كل حال ماذا حققه لي الغضب؟ كنت أريد تحسين حياة الناس لأني أحب البشرية وليس لأني أكره النظام. وكنت أحيانًا أشعر أن أصدقائي من النشطاء يكرهون النظام أكثر من حبهم للبشرية.

أصبح العمال الكاثوليك هم مجتمعي وبدأت القيام بزيارات أسبوعية لدار "سانت جود" أثناء وجودي في مدينة "شامبين"، وخلال الصيف التالي للسنة الثانية من دراستي بالجامعة قمت أنا و"جيف بينزينو – Jeff Pinzino" برحلة لمدة سبع أسابيع لزيارة لبيوت العمال الكاثوليك الممتدة من الشمال الشرقي حتى أقصى الجنوب. قمت بتقطيع الجزر لإعداد الحساء في مطبخ دار "سانت جوزيف - St.Joseph " بنيويورك؛ وتظاهرت أمام البنتاجون مع العمال الكاثوليك في واشنطن العاصمة؛ كما استمعت في "أتلانتا " للقصة الملهمة لأحد المحاربين القدامى في فيتنام بعدما تعافى من الإدمان ومن المرض العقلي وكان يقوم آنذاك بمساعدة الأخرين للتعافي مثله.

كنت معجبًا أكثر من أي شيء آخر بروح العمال الكاثوليك وهم يقومون بعملهم، والكلمة الوحيدة التي يمكن أن تصفها هي الرحمة. كنت معتادًا على رؤية العاملين في مؤسسات الخدمات المجتمعية حانقين وغاضبين أيضًا على الأشخاص الذين يعملون معهم (ممن كانوا يلقبونهم بجهالة "الزبائن"). لم أر ذلك قط في أي من دور العمال الكاثوليك. لقد كانت دور الضيافة بشكل عام تتبنى ثقافة المعاملة الطيبة. وعلى عكس المظاهرات الأخرى التي ذهبت إليها والتي غلب عليها الغضب والتعصب للذات، كان العمال الكاثوليك يدلون بأقصى بياناتهم الراديكالية في جو من التواضع والحب. وعندما قمت بالتظاهر أمام البنتاجون مع مجموعة من العمال الكاثوليك لم يطلقوا الهتافات عن المعاملة القاسية من جانب الجنود؛ ولكنهم رددوا التراتيل وقالوا أنهم سوف يصلون من أجل كبار العسكريين السائرين. حتى عندما أشارت Dorothy Day إلى النظام الأمركي على أنه "نظام فاسد وعفن" فقد عملت على أن تفعل ذلك بأسلوب يدعو للأمل وحب التغيير وليس للغضب والحنق.

لقد كنت منتشيا برؤية "داي" وشعرت بإعجاب عميق بالعمال الكاثوليك الذين تقابلت معهم. ووجدت نفسي أتساءل باستمرار ،" ما هو مصدر الحب الذي تتحدثون به عادة؟" وكانت تأتي إجابتهم بكلمة واحدة من حروف قليلة كنت نادرا ما اسمعها في أيام الجامعة: الرب.

ذكر "روبرت كولز – Robert Coles" في كتابه " نداء الخدمة"حديثـًا دار بين واحد من طلابه في جامعة "هارفرد" وبين "داي" في أواخر السبعينات من القرن الماضي قال الشاب الذي اختار أن يتخصص في العلوم لداي " لقد قدمتِ بالفعل الكثير لهؤلاء الناس".

فأجابت، "لقد فعل المولى ذلك كله؛ نحن نحاول أن نكون أدوات كافية لتحقيق إرادته". أصر الشاب على قوله "حسن .. ألم تكونوا انتم يا شباب من قام بكل ذلك"، مشيرًا لمطعم المؤسسة حيث كانت "داي" وعمال كاثوليك آخرون منهمكين في إعداد الوجبة،متشككًا في استدعاء قوة فوق الطبيعة وراء ما يبدو بوضوح أنه عملا بشريا.

كانت "داي" إنسانة لطيفة ولكنها كانت تصر على أن الرب هو مصدر عملها، قالت له "عندما ندعو يقال - أنه يستجاب لنا، وتأتي إلينا هذه الإستجابات وبالتالي نعرف أنه "هو" من أرسل لنا تلك الأفكار والآراء وهي ليست ملكًا لنا، فالرب يعيش في أفكارنا، المولى هو الفاعل."

بحسب "داي"، كل ما نستطيع نحن البشر فعله هو أن نكون ممتنين لفرصة سماعنا نداء الرب وأن نطلب القوة لتلبية هذا النداء، وبالنسبة لداي تأتي التلبية في شكل الصلاة والعمل وهما بالنسبة لها في نفس المنزلة:

> قد أكون هرمت وقربت نهايتي، ولكن في ذهني، مازلت "دوروثي" القديمة التي تحاول أن تبين للرب أنها مازالت تعمل من أجله بأقصى ما تستطيع. وأدعو الرب أن يمنحني الفرصة للصلاة من أجله بالطريقة التي أحب أن أصلي بها من أجله، فإذا كنت أصلي بأن أصنع الحساء وأقدم الحساء فإنني أشعر أني أصلي بعملي هذا، وعندما أرقد في الفراش وكان الطبيب قد أكد على ضرورة البقاء فيه لبضعة أيام لا أشعر أني اكتسبت الحق في الدعاء لنفسي والآخرين، ولكن الدعاء لهؤلاء المساكين الذين يأتون هنا للحصول على وجبة مشبعة.

كانت تدور سنوات فى الجامعة حول دخول أراض غريبة بشجاعة، ما هي الضواحي، المستوى المتوسط، ماذا كان يفعل فتى هندي في الدوائر الماركسية ومساكن الإيواء؟ ارتديت كافة تلك الأشياء غير المتوقعة كوسام شرف. وأحيانًا كنت أتساءل إذا ما كانت قيمة الصدمة أكثر أهمية بالنسبة لي من العدالة الاجتماعية.

كان العمال الكاثوليك على ما يبدو آخر دائرة تناسب طفلاً مثلي. لقد كانوا أكثر راديكالية من المفكرين المركسيين الذين عرفتهم وأكثر لطفًا من القائمين بالخدمة المجتمعية الذين تطوعت معهم وأكثر ذكاء من الأساتذة الذين يدرسون لفصلي، وأكثر فاعلية من النشطاء الذين

شاركتهم الاحتجاج، وبذلك كنت أشعر بالراحة معهم. وبقراءة مذكرات "دوروثي داي " أدركت لماذا: عرفوا أن الرب قد خلق البشرية على أمل أننا سوف نحقق المملكة على الأرض، وهدفهم من القيام بهذا العمل كانت تحمله عظامهم ويخرج مع الأنفاس. وما أن يدرك المرء ذلك، ماذا يستطيع أن يفعل سوى الطاعة وهو سعيد؟ وكما كتب "ويليام جيمس- William James " في كتابه "تنوع التجربة الدينية The Varieties of Religious Experience"، "[إن العقيدة هي] الإيمان بأن هناك نظام غيبي، وأن أكبر خير لنا يكمن في أن نحاول التكيف لهذا."

واحد من أسباب عدم ارتياحي للسياسات الرادكالية أنها كانت تؤله الفرد. كانت العقيدة الكامنة لكل الرادكاليين الذين عرفتهم هي أن حكمتنا ومناهجنا وقدرتنا على مساعدة الأخرين تنبع جميعها من عقولنا. فنحن أذكياء ومعجبون بأنفسنا، حتى أني شعرت بتشابه غريب بمعارك "جيوباردي" التي كنت ألعبها أنا وأصدقائي في المدرسة الثانوية، باستثناء أن اللعب مع أصدقائي الرادكاليين كان من منا يستطيع أن يطبق بكياسة أفكار "فانون على الأحداث الجارية، ورؤية "داي" لأن الرب هو مصدر الحب والمساواة والتواصل – وأنه يطالب مخلوقه الأساسي، البشر، بتحقيق نفس الشيء على الأرض – كان له معنى بالنسبة لي في مكان عميق، ربما هو نفس المكان الذي كنت أحاول أن أملأه بالصيام عندما كنت فى المرحلة الثانوية.

عندما سألني العمال الكاثوليك عن ديانتي قلت لهم أني ليس لي واحد في الواقع، وكانوا سعداء بمشاركتي في صلاتهم الخاصة على أية حال، وأوضحوا لي أنه علي أن أفعل ما أرتاح إليه ليس إلا. كنت أجد الغناء والصلاة ولحظات الصمت ملهمة للغاية. كنت أحني رأسي وأتابع بأقصى ما يمكنني. ولكني دائما ماكنت أجدُ نفسي أقف منحرفًا قليلاً عن زاوية الرموز الأساسية للعقيدة المسيحية – الصليب والدم والبعث - ولم يكن لدي أية رغبة في التحول. ولم يقترح علي أبدًا اي من حركة العمال الكاثوليك أن أفعل ذلك.

لقد احتفظوا بي كما أنا بالضبط. ولقد أدركت ذلك بعد عدة سنوات عندما قابلت" بيل أيرز- Bill Ayers". كنت أعمل في شيكاجو ومهتم بالنماذج الجديدة لتطوير الشباب. نصحني عدد من الأشخاص بالذهاب لمقابلة "بيل" وهو أستاذ تربوي مرموق في جامعة إلينوي

بشيكاجو وشخصية بارزة في كل من حركة إصلاح المدارس المحلية وحركة المدارس الصغيرة. أخذت أفكر "أين سمعت هذا الاسم من قبل؟"، ثم فجأة توصلت للصلة بموضوع "ويذر أندرجراوند- Weather Underground" وهي مجموعة راديكالية زرعت في الستينات قنابل في المباني الفيدرالية كخطة استراتيجيه لاسقاط النظام.

كتبت "داي"،كان "بيل" قد نشر مذكراته مؤخرًا بعنوان "أيام الهارب - Fugitive Days". كان التشابه بين قصتينا مخيفًا، فكلانا كان طفلاً من الطبقة المتوسطة في "جلين ألين" أكتشف الجانب المظلم من أمريكا هو في الكلية ورد بغضب، وكلانا احتقر الليبراليين وأضفى رومانسية على المتمردين العناف التابعين "لجون براون - John Brown" و"تشي جيفارا - Che Guevara". كلانا عرف خط "جيفرسون- Jefferson" والذي يرى أنه على الشعب أن يتمرد في كل عصر، وكلانا تخيل نفسه في الطليعة.

و بينما كانت الجلسة في إحدى الليالي عام ١٩٦٨على طاولة المطبخ والحديث عن آلة الموت، ألا وهي حكومة الولايات المتحدة، ذكر شاب جديد على دائرة "بيل" واسمه "تيري روبينس - Terry Robbins " أن الأمور قد ذهبت بعيدًا أكثر من اللازم وأنه حان الوقت لقذف هؤلاء الخنازير بالقنابل ليذهبوا للعصر الحجري. في البداية قاوم "بيل" وأصدقاؤه وقالوا إن هذا جنون،و لكن "تيري" أجاب "لابد أن يكون هناك مكان في هذه الثورة لرجل لديه مبادئ العنف". وجد "بيل" الصورة ساحرة وأمضى السنوات التالية في الدخول في معارك عنيفة مع الشرطة وفي تعلم صنع القنابل ودعوة كافة "الراديكالين في البلد الأم" لنقل الحرب للبلاد مع أعمال العنف على الأراضي الأمريكية. وبالتالي فقد عديد من الأصدقاء وعشر سنين من حياته في هذه العملية.

ماذا لو كنت على مائدة المطبخ في تلك الليلة؟ ماذا لو عبر شخص مثل "تيري روبينس" طريقي وأراني كراس الرسم الخاص به المليء بتصميمات القنابل وشجعني على دراسة "دليل المتفجرات"؟ في سن التاسعة عشر كنت مقتنعًا بالفعل بأن أمريكا لا تفهم إلا العنف، لقد كنت على جانب الاعتقاد بأنها مسوليتي أن أسدد ضربة موجعة ولم أكن احتاج إلا لوخذة.

لم يستطع أبي أن يكمل كتاب "أيام الهارب"، قال لي "أنه يذكرني كثيرًا بك"، و"إنه يؤدي لشعوره بالرعب الشديد لما كان من الممكن أن تصبح عليه".

كان من حظي – ومن النعم - أني جلست على طاولة العمال الكاثوليك وأن كتاب "دوروثي داي" هو الذي سقط بين يدي.

في طريق رحلتنا الصيفية زرنا أنا وسارة "أميلي شهادة" في سان فرانسيسكو، وقد استقبلتنا بحرارة وبالأحضان الكبيرة، وبعدما جلست بضعة دقائق مع سارة أقرت بأن اتباعي نصحيتها وتحركي كان أذكى شيء قمت به على الإطلاق. بعد ذلك قدمت لنا أطباق الحمص والفلافل والبيتا. قالت سارة "أحب أطعمة الشرق الأوسط."

أجابت "أميلي" ببرود مفاجئ "أنها مأكولات عربية، مأكولات فلسطينية"، ثم استطردت "الإسرائيليون يحتلون أرضنا ولكن لا يستطيعون انتزاع ثقافتنا."

فهمت سارة التعليق في سياق يعكس مشاعر الشعب الذي فقد شيئا وفي بعض الأحيان كل شيء عندما انتصرت إسرائيل. لم تتخذ موقف المدافع أو الغاضب وبدلاً من ذلك عقدت العزم على اكتشاف الجانب الفلسطيني من القضية خلال الفصل الدراسي الذي ستمضيه في إسرائيل.

قمت بزيارتها في إسرائيل بالجامعة العبرية في"جبل المكبر"، حيث تواجد، وذلك بعد بضعة أعوام، صديق مقرب لها في المقهى أثناء تفجير انتحاري، سبحنا في البحر الميت وتجولنا بأسواق القدس (حيث اشترت سارة لوحة لوالدي مكتوب عليها "بسم الله" باللغة العربية) وأكلنا خبز بالزعتر اللذيذ (و خليط من البهارات العطرية) وذهبنا لحائط المبكى وقبة الصخرة وزرنا طريق الصليب. وفي حيفا تنزهنا في حدائق المعبد البهائي واستمعنا إلى شاب جاد يرتدي سروال كاكي به كسرات يتحدث عن الحاجة للتوحد.

فتشت سارة عن الوضع الفلسطيني وعن التاريخ اليهودي في إسرائيل وقد حزن قلبها بسبب الإثنين. كنت أعلم القليل عن كلاهما ،فاخذتني سارة فى جولة في الأحياء العربية في القدس الشرقية. كان مرشد الجولة صديقـًا لها وهو شاب يهودي أمريكي وقد انتقل لإسرائيل وهذا ما يسميه اليهود"MAKING ALIYAH "- كان يتحدث هو والأطفال العرب الذين تجمعوا بكل من اللغة العبرية والعربية. تحدثوا عن الحياة في القرى العربية والمتعة البسيطة للعبة الطاولة وشرب القهوة العربية في مساء أيام الأحد والشعور بالإحباط بسبب الانتظار لساعات عند نقاط التفتيش الإسرائيلية وهم في طريقهم لزيارة أهلهم في الضفة الغربية. غطت سارة وجهها بكفيها عندما سمعت ذلك وقالت لي فيما بعد "أنا أكره أن تكون حياتهم بهذا الشكل."

كان مرشدنا السياحي عند "ياد فاشيم" وهو النصب التذكاري الإسرائيلي للهولوكوست هو الآخر أمريكي ممن عادوا، وقد مرعليه كمفكر هادئ وهو يلمح إلى أنه حاصل على درجة الدكتوراه مرتين، وبعدما جعلنا أسرى في شباك فكره الجذاب بدأ يبث السموم، روى لنا قصصًا عن الدمار في "كرستال ناخت"- عمليات قتل لليهود بألمانيا على يد النازيين- وعن الارزاق التي قطعت وخوف الأطفال والنساء في الأحياء اليهودية وخوف الرجال من أن الأمرلا يمكن إلا أن يزداد سوءًا، وأنهى قصته بصوت واضح قائلاً أن العالم لم يفعل شيئًا آنذاك، فلماذا يتوقع اليهود أن يتنبه العالم الآن لمعاناتهم؟ سار بنا في قاعات "ياد فاشيم" المختلفة وهو يروي المزيد من قصص المعاناة متسببًا في بكاء نصف المجموعة ومستمرًا في تأكيد سياساته الخاصة. قال وهو يهزرأسه باشمئزاز "أوسلو" ألم نسمع نحن اليهود ذلك من قبل؟ أرض السلام، لم ينجح ذلك عندما حاول "نفيل شامبرلين - Neville Chamberlain" هذا الضعيف الرخو منذ ستين عام مضت. انظروا ما أدى إليه آنذاك فمن يستطيع أن يصدق أن يؤدي إلى شيء مختلف الآن؟"

كانت معلوماتي قليلة أعلم عن صنع السلام العالمي ولا أعرف شيئًا عن اتفاقيات أوسلو التي وقعتها إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية في سبتمير ١٩٩٣، لكني استطيع أن أميز المفسدين عندما أرى واحدًا منهم. لقد كانت سارة غاضبة منه مثلي. قالت لي ونحن نغادر"هناك العديد من الأشخاص الذين يحاولون تحقيق وضع عادل هنا بينما يعمل أشخاص مثله على هزيمتنا كل يوم".

لعبت قضايا الهوية اليهودية دائمًا دورًا كبيرًا في حياة سارة وقد تفاقمت في إسرائيل. قالت لي "أهم شيء للناس هنا أن تتزوج يهودي مثلك، لقد أصبح معدل الزواج بين اليهود وغير اليهود مرتفعًا حاليًا حتى أن بعض القادة اليهود يقولون أن اليهود هم أنفسهم يقتلون اليهودية. فهم يفضلون أن يأكل اليهودي لحم خنزير عن أن يتزوج ممن هو خارج عقيدته". وبطريقتها اللطيفة كانت سارة تحاول أن تخبرني بأنها تناضل من أجل علاقتنا، فقد شعرت كما لو كان لديها التزام تجاه تقاليدها وناسها، وكنت أنا أغبى من أن ألاحظ منحاها.

ذهبنا إلى عشاء السبت بالقدس بصحبة مجموعة من الشباب الأمريكيين واليهود الاسرائيليين. تجاذبنا أطراف الحديث ما بين خطط الدراسات العليا وقضايا العدالة الاجتماعية، كانت هذه هي الأشياء التي يتحدث فيها الطلاب الجامعيون وحديثي التخرج طوال الوقت. شعرت أني في بلدي تماما واشتبكت في محادثة مع شابة يهودية ترتدي تنورة طويلة، وقد بدت

ملابسها وكأنها دينية، سألتها عن ذلك، فشرحت لي أنها يهودية أرثونوكسية وتتبع مذهب يسمى "شومر نيجيا - shomer negiah" وفي مذهبها لا يجوز أن يتواعد الرجل والمرأة غير المتزوجين أو أن يتلامسا أو أن يتواجدا في غرفة معًا بدون مراقبة "قالت لي بثقة كاملة سوف أتزوج من يهودي،" قالت لي ذلك بمنتهى الجدية، "وسأفعل ذلك بالطريقة التي تمليها علي شريعتي".

أشارت نحو سارة وقالت،"الفتاة التي جئت معها هي صديقتك؟ هل هي يهودية؟"

قلت "نعم."

"وأنت، ماذا عنك؟"

قلت لها "لاشيء في الحقيقة على ما أظن، فأنا اتفحص الروحانيات المختلفة في الوقت الراهن".

سألت "هل ستتزوج أنت وسارة؟"

قلت لها "مم، حقا نحن لا نتكلم فى هذا الأمر حاليًا ،أقصد أننا معًا، وهذا يعني الكثير بالنسبة لنا فى هذه المرحلة من حياتنا."

قالت "أوه،" وهي تنظر لي ببعض الارتياب. لاحظت أنها أصغر مني ومن سارة، ولكنها لم تنظر للزواج على أنه مسؤلية كبيرة بالنسبة لها. فمن دواعي الشرف والواجب بالنسبة لها أن تكون متزوجة، فهذا يحقق إرادة مجتمعها وهو استمرار لممارسة تقاليدها.

"وإذا تزوجتما، كيف سيبدو حفل الزفاف؟ أي التقاليد ستتبع؟"

تجاهلتها، بأنى لم أفكر فى هذ ا من قبل، ولم يكن يبدو ذا أهمية.

كانت سارة تستمع لحديثنا وقد أحسست أن شعورها بعدم الارتياح يتزايد. ولدى ذكر حفل الزفاف، همت فجأة، وقطعت المحادثة التي كانت تجريها وقالت لي، "أريد أن أذهب." أكاد أجزم أنها كانت غاضبة تمامًا، ولكن لم يكن لدي فكرة عن السبب. أحضرت معطفينا وناديت سيارة أجرة وانتظرتها لتأتي إلي.

قالت "هل لديك أى فكرة عما كنت تفعله الليلة؟"، استطردت "هذه الفتاة التي كنت تتحدث إليها هي يهودية أرثوذكسية متشددة، تعيش بقوانين أنزلها الرب وهي جزء من مذهب عمره آلاف السنين، كل سؤال كانت تسأله لك كان يحمل سخرية مني، كان هناك حديث خفي كنت أنت غافلا عنه تمامًا، وكان الغرض الأساسي منه هو أن سارة يهودية سيئة لأني أواعد شابًا، والسبب الوحيد الذي جعلها تستمر في طرح الأسئلة عليك هو معرفة تفاصيل أكثر عن مدى عصياني."

لقد أردت أن أقول "لا تلقي لها بالاً. فما شأنها هى حتى تملي عليك ما تفعلينه؟" ثم لاحظت بعدها أن سارة كانت تريد ذلك. فقد جاءت لإسرائيل لتتواصل مع مجتمعها وتقاليدها. وما هو المجتمع سوى مجموعة من الناس لهم مطالب عليك وما هي التقاليد سوى مجموعة من القصص والمبادئ والقواعد تم تناقلها على مدى مئات أو آلاف السنين وكل جيل جديد عليه أن يتصارع معها؟

بدأت في البكاء، لابد أن سائق السيارة قد ظن أننا مجانين. تحركت سارة نحوي بدفئ وحنان ووضعت يدها على ظهري، كنت قد فقدت الموقف تمامًا في تلك اللحظة وبكيت دون أي سيطرة على نفسي كما لو كنت فقدت عزيزلدي.

سألت سارة "ماذا بك، يا حبيبي؟".

أخيرًا استجمعت نفسي."الأمر فقط أنك تشعرين أن هناك شيء تعيشين من أجله، تلك اليهودية، لديك هذه المبادئ التي تتكلمين عنها وهذا المجتمع الذي يراقبك وحتى عندما يكون خانقـًا فعلى الأقل تعلمين أنهم مهتمون بك. ليس عندي شيء كهذا، لدي فقط أشياء اهتم بها وباقة من المجموعات التي أدخل واخرج منها، ولكنني أستطيع أن أتركها في أي وقت ولن يعرفوا أني غادرت.

لقد كان ما أقوله يمثل حقيقة مرة، فبعد كل كلامي عن سياسات الهوية كان ما يزال علي الكثير لبناء هوية.

الفصل الرابع

أنشطة في عالم الواقع

باستطاعتنا إما أن نهدئ من حمية التعصب الديني لدى الشباب أو أن نزيدها اشتعالا .

جين أدامز (Jane Addams)

كان القس "واين تيسديل" يأمل في أمرين عظيمين بالنسبة لي: أن أبدأ حركة للشباب للتقارب بين الأديان وأن أتناول معه عش الغراب، وقد تحقق له أحدهما.

قابلت القس "واين" في ربيع عام ١٩٩٧، وعلاوة على أنه راهب كاثوليكي كان القس واين حاصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة، وأقضى سنوات في معتكف في الهند حيث تلقى النذور وفقًا لتقاليد رهبانية هندوسية. كما كان عضوا في مجلس برلمان أديان العالم، وهو منظمة دولية للأديان مقرها في شيكاجو.

لقد بهرني القس "واين"، كان رأسه يكسوه الشعر الرمادي ولكن روحه كانت وثابة وكأنه مراهق يتطلع للمثالية ويتحمس بسهولة ولكن بعيدًا تمامًا عن الاستخفاف. كان يبدو خليطًا ما بين "دون كيشوت" و"زوربا" اليوناني والقديس "فرانسيس دي أسيسي" والعالم المجنون في الفيلم السينمائي "العودة للمستقبل"، قال لي عندما تقابلنا: " تعالى لتقابلني في هايد بارك"، وقد أغتنميت الفرصة.

كان يعيش في شقة صغيرة في مجمع الاتحاد اللاهوتي الكاثوليكي. وكانت كتب عن اللاهوت المسيحي وصور الآلهة الهندوسية والاسطوانات المدمجة للموسيقي الكلاسيكية الهندية متناثرة في كل مكان. نظف القس "واين" مكانًا صغيرًا إلى جوار النافذة وأعلن أنه حان موعد التأمل، كانت تكات الساعة تضايقه، سمعته يقوم لإستبعادها، وعندما انتهينا من التأمل وجدته يستعيدها من داخل غرفة التجميد بالثلاجة.

قال "حان الآن موعد التمشية". ارتدى كل منا سترته واتجهنا جنوبًا نحو جادة "كورنيل"، تخطينا كلبًا فانحنى القس "واين" وربت على رأس الكلب، هز الكلب ذيله ونبح،

قال لي القس "واين" ونحن نسير:" هذا الكلب روحه نقيه للغاية، أنا أعرف معظم كلاب هذه المنطقة."

واصلنا سيرنا إلى أن قابلنا رجلا يرتدي معطفا شتويا ثقيلا، ويحمل كيس مخلفات أسود بداخله علب ألومنيوم، قال "هاي واين" أجاب القس واين "هاي رالف.. شيء لطيف أن أراك"، توقفا، وأخرج القس واين محفظته وناول رالف ورقة بعشرين. قال "رالف إنسان روحاني للغاية، وأنا أعرف معظم من لا مأوى لهم في هذا الحي."

دخلنا مقهى وأدلينا بطلبنا وجلسنا، رأى رجل من الخارج القس واين فلوح له بشدة ثم دخل، صاحت الفتاة التي تقف خلف حاجز الاستقبال: "قلت لك من قبل أنه لا توجد دورات مياه عمومية هنا!"

نظر نحو القس واين، فأومأ القس واين، قال الرجل منتصرًا "قهوة.. فنجان كبير" قالها وهو في قمة الفرح. جلس الرجل معنا على المائدة، وأتت الفتاة بالقهوة، ودفع القس واين دولارين. بدأ الرجل يصرخ ويتشدق بأن العمدة "ريتشارد دالي" يضع السم في إمدادات المياه، كان القس واين يستمع، ثم قال "الآن يا هارولد ربما كان عليك...." قاطعه هارولد وبدأ في الكلام عن حكومة "كلينتون".

أخذت صحيفة من على المائدة المجاورة، استمع القس واين للمزيد منه. انتهينا من قهوتنا، تعانق القس واين وهارولد، مددت يدًا بأدب وتحفظ نوعًا ما، صافحني بشدة، وعدنا أنا والقس واين إلي شقته، شرح القس واين: "هارولد له جانبه الروحاني ولكن يصعب أحيانًا رؤيته"، كنت نصف متوقع أن يضيف أنه يعرف معظم المجانين المصابين بالهذيان في الحي.

عرفت بشكل ما فيما بين هذه اللقاءات بسبب اهتمام القس واين بي، لقد كان مقتنعًا أننا نمر بلحظة روحانية مشتركة في تاريخ البشرية، زمن تتجمع فيه الأديان العظيمة في العالم لتأكيد قيمها المشتركة. كان يريد المزيد من العمل فى الحركة الدينية، وبصفة خاصة حول قضايا البيئة وقضية تحرير "التبت". ولكن بعد عقد من الانخراط في أعمال منظمات حوار الأديان فقد القس واين الأمل في أن يتخذ القادة الحاليون لهذه الحركة خطوات جريئة، شرح لي "إنهم جميعا أناس روحانيون إلا أنهم يخافون من استخدام أصواتهم المهيبة" ولذلك بدأ في البحث عن دم جديد.

إلتفت نحوي وقال بلهجة جادة "أعتقد أنه يمكنك أن تلعب دورًا قياديًا في الحركة الدينية العالمية للشباب، ويمكنني أن أقول لك أنك شخص روحاني للغاية".

قلت له "بالتأكيد"، ومن يستطيع أن يرفض ذلك؟

كنت في شيكاجو لمدة ستة أشهر، وأمضيت فصل الصيف بعد التخرج من الكلية في السفر في أنحاء الولايات المتحدة مع سارة. قدنا السيارة من مدينة نيويورك إلى مدينة "سان فرانسيسكو" مرورًا بمدينة "سياتل" ثم عدنا إلى شيكاجو سيرًا لمسافات طويلة في المنتزهات العامة، والتسكع في المناطق البوهيمية في المدن، والتطوع في دور العمال الكاثوليك على طول الطريق، وعلى خلاف أصدقائي - الذين بالرغم من سياساتهم الراديكالية قاموا جميعًا بحجز وظائف لهم قبل تخرجهم أو تم قبولهم في الدراسات العليا – عدت إلى شيكاجو في منتصف شهر أغسطس عام ١٩٩٦ وأنا مصمم تمامًا على القيام بعمل الخير، ولكن لم تكن لدي خطط محددة. اكتشفت دار القديس فرانسيس للعمال الكاثوليك في الجزء الشمالي للمدينة. كانت كل الغرف مشغولة، ولكن تم الترحيب بي للمبيت على أريكة في البهو الأمامي. قالت لي "روثي" إحذر فالقطط لها مطامع في ملكية الأريكة والشباك ينفث التيار الهوائي و"جيمي"، وهو أحد المقيمين يتلقى مكالمات هاتفية من أصدقائه الوهميين في منتصف الليل، ويناقشهم بصوت عالي حتى الفجر. وبدى لي ذلك وكأني في بيتي. انتقلت للإقامة فيه وبدأت أبحث عن عمل.

وجدت ما كنت أبحث عنه بالضبط: وظيفة في التدريس في برنامج للتعليم البديل للمتسربين من التعليم الثانوي من الأقليات في المدينة، وذلك في الجانب الشمالي الغربي القريب في مدينة شيكاجو. فقد قال لي صديق، وكان يعرف أنْ هناك مدرس سيغادر المدرسة أنهم يطلبون موظفًا. توجهت يوم التخرج وحضرت الاحتفال ثم جلست على مقعد عند باب مديرة المدرسة إلى أن عادت. نظرت في سيرتي الذاتية، ولاحظت أنه ليست لي خبرة سابقة بالتدريس كما أشارت إلى أني في سن العشرين وقد أكون أصغر سنًا من كثيرين من تلاميذي، قلت لها "سوف أبذل قصارى جهدي لأكون هنا مدرسًا صالحًا"، كان هناك مدرس واحد متبقٍ بالمدرسة، وكانت مديرة المدرسة في حالة يأس، وأعتقد أني كنت مقنعا بالقدر الذي يجعلها تخوض التجربة.

كانت المدرسة هي أحد برامج "دار الجمعية في شيكاجو - Association House of Chicago" وهي هيئة كبيرة للخدمة الاجتماعية على غرار "دار جين أدمز في مدينة هال Jane House Addam's Hull". كان موقعنا في جادة "نورث أفينيو" ما بين محطتي "دامن - Damen" و"ويسترن –Western" على الحدود مباشرة ما بين مجموعتين من العصابات تعرف مراهقين كثيرين للغاية ممن نشأوا في شيكاجو. كانت حديقة "ويكر بارك –Wicker Park" القريبة في طريقها نحو إجراء التحسينات عليها، وكانت أضواء الشارع والمقاهي ومطاعم النباتيين تنتقل إليها والطبقة العاملة من الملونين تتجه غربًا بحثـًا عن إيجارات بأسعار مقبولة.

كان المتوقع من المدرسة وتسمى "El Cuarto Ano" أو "السنة الرابعة"، أن تأخذ المتسربين من السنة الرابعة ممن يقرأون إلى مستوى السنة الخامسة وإعدادهم للنجاح في امتحان دبلومة المعادلة العامة (GED) وذلك خلال ستة أشهر. وكانت هذه مهمة مستحيلة حتى لو كان لطلابنا نظام مثالي مساند. والأغلبية لم يكن لهم ذلك، فكثير من التلاميذ من الذكوركانوا منخرطين في عصابات والبعض سبق له أن أمضى بالفعل فترات في إصلاحية الأحداث. ومعظم الإناث كانوا أمهات لطفل واحد على الأقل، والغالبية العظمي كانت فقيرة. وكثيرون كانوا على وشك النزوح من حديقة "ويكر بارك" بسبب التحسينات، ولم يكن لأي منهم تجربة ناجحة في المدرسة. كان لابد من تناول قضايا مثل الأمن ورعاية الطفل والتغذية الأساسية والثقة بالنفس إلى جانب التعليم.

كنت واثقـًا من نفسي تمامًا، ألم أقرأ نظرية التعليم الراديكالية؟ ألم يكن لي نظرة متعمقة في الفقر في الحضر وتنمية الشباب على أساس من دراستي المتقدمة في علم الاجتماع؟ ألم أكن من مؤسسي عدة برامج لأطفال المدرسة الابتدائية؟ لم أعر اهتمامًا لأي من المناقشات التي كانت تدورفي اجتماعات هيئة التدريس، فقد نويت أن أدير فصلي بطريقتي الخاصة. وعندما بدأ التلاميذ في الشكوى من أن المدرسين الآخرين مملين إذا ما قورنوا بي أصبح زملائي على استعداد لأن أبين لهم كيف يصبحون بحق معلمي "غيتو"، ورأيت أن ذلك سوف يتم في شهر أكتوبر.

كجزء من سياستها التحفظية كانت مدرسة "الكوارتو أنيو" تتطلب أن يحدد كل طالب مساندًا له ــ أحد الأبوين أو أخ أكبر أو شريك عاطفي. وفي الاجتماعات التي عقدتها مع

الطلبة المرشحين ومن يساندونهم قبل بدء السنة الدراسية، أقضيت وقتًا طويلا في شرح تفهمي لأسباب عدم نجاحهم في المدرسة، وبينت لهم أن النظام كان هو السبب في إخفاقهم، واستشهدت بما قاله "جونثان كوزول" و"ويليام ريان" حول القصور الدائم فى تمويل المدارس في الحضر بسبب السياسة الضرائبية غير العادلة. تكلمت عن نظرية "بيل هوكس" التي تقول أن ميراث العنصرية ورائحة الاستعمار الذي يؤثر تأثيرًا عميقًا علي موقف الطلبة الملونين تجاه المدرسة التي تقترن في ذهنهم بتفوق البيض، وأكدت لهم أنني سأتخذ أسلوبًا مختلفًا في التدريس باستخدام ما يأتي به طلابي من قاعدة معرفية إلي الفصل. ولكي ترتاح عقولهم أكدت لهم ان لغة "إيبونكس" التي يستخدمها الأميريكون من أصل أفريقي ليس مسموح بها فقط بل مستساغة في فصلي.

وبعد سماع محاضرتي سألني أحد الأهالي "سوف تعلم ابنتي القراءة أليس كذلك؟"

تيقنت أني أغفلت هذه الجزئية. والواقع أني ربما لم أفكر فيها على الإطلاق. فإن دراستي للفنون الليبرالية قد أعطتني طرقًا لفهم ماهي مشاكل العالم، ولكنها لم تمدني سوي بمهارات قليلة لعلاجها. وقد منعني تكبري الشخصي من البحث عن أساليب عملية لمساعدة أبناء الأقليات المتسربين من المدارس للحصول على التعليم. وفي بحر أسبوع واحد كان علي أن أواجه فصلاً مليئًا بالطلاب ممن هم على استعداد للتحدي ولم يكن لدي فكرة عن كيفية التدريس لهم. وتراجعت ثقتي بنفسي سريعًا ليحل الخوف محلها.

أصبحت مدرسًا بصعوبة: بوضع خطط غير فعالة للدروس وكان الطلاب يسخرون مني وأنا أدرس لهم. كنت أعمل إلى منتصف الليل لتعديل خطة درس اليوم التالي حتي لا أكرر نفس الاخطاء التي أرتكبها في اليوم السابق. تعلمت أهمية ان أبدأ الحصة في موعدها وأن أطلب أن تستكمل كل الواجبات بخط واضح ونظيف، وأن تكون الكتب التي أقررها كتبًا تحفز وتجتذب طلابي.

أحيانًا كنت آخذ استراحة أثناء جلساتي في منتصف الليل لوضع خطة الدروس، وأتخيل أحد أساتذتي في الكلية أثناء تدريسه لفصلي. ولم أكن أتمالك نفسي من الضحك من تخيل بعض من أكبر خبراء تعليم الأقليات وعلم الاجتماع الحضاري وهم يواجهون الطلاب في شرح عمن وضعوا النظريات. يكاد يكون كل درس تلقيته في الكلية يبدأ بأن

يقول الأستاذ أن هدفه هو أن يجعل منا أصحاب "فكر نقدي"، وقد نقلت وجهة النظر هذه لفصلي وأمضيت وقتًا طويلاً في شرح العنصرية الممنهجة وميراث الاستعمار.

إلا أن طلابي في مدرسة "الكواترو آنيو" كانوا خبراء في مسألة عدم المساواة، ولم يكونوا في حاجة ليسمعوا مني أن ما يقدم لهم غير عادل. كانوا في حاجة لشخص يعلمهم مهارات أساسية نافعة: الجبر، المطالعة والفهم، وكتابة المقالات. وحينئذ يكتسبون ما حصلت عليه من التعليم في ضواحي المدينة: الأدوات اللازمة لكي أفكر بعقلي في العالم من حولي، وبدأت أتمنى لو أن أساتذتي قد أمضوا المزيد من الوقت في المحاضرة عن كيفية المشاركة البناءة في العالم كما هو، ووقتًا أقل في تعليمي كيفية انتقاده.

كان أكثر ما يثير تعجبي هو الكيفية التي تفشت بها جماعات العنف في حياة طلابي. كان البعض منهم يخشى ركوب الحافلة العامة أو القطار للذهاب للمدرسة خوفًا من مقابلة أعضاء جماعة منافسة. وقد لا يأتي البعض الأخر أحيانًا للمدرسة لأيام بسبب الالتزام نحو الجماعة. ولدى العودة بعد أسبوع يقولون "أجريت عملية"، وكانت هذه هي شفرة معناها أنه استدعي من قائد الجماعة للانضمام لمعركة نظمت مع جماعة أخري، ربما على الجانب الأخر من الشارع أو في المدينة.

وأذكر أنه بينما كنت أدرس "لخوزيه" بعد المدرسة في يوم من الأيام، لاحظت وجود خرم مستدير في بنطاله الجينز، سألته "ماهذا؟"

أجاب وصوته يملأه الفخر "هذا بسبب إصابتي بطلقة. كانت معركة على ناصية شارعي "ليفيت" و"لوموان " عندما كانت جماعة "كينج" تمتلك هذه الناصية". وبين لي وشمًا علي ذراعه هو علامة ترمز للملوك اللاتينيين.

قلت له "لا أفهم، هل تريد أن تقول لي أن هذا الشاب ذاته الجالس هنا يقرأ أشعار "ويليام بليك" يقف على نواصي الشوارع حاملاً بندقية من أجل هذه العلامة الصغيرة؟

"هل تظن أن المدرسة التي كنت أذهب إليها كان لديها مدرسون يبقون بعد الحصص في الفصول؟ يا رجل.. كان المدرسون في تلك المدرسة لا يظهرون حتى لنصف المدة المقررة لهم. وكان لدينا بعض المساعدين السخفاء يقفون في مقدمة الغرفة يصيحون بأنه علينا أن نكتب واجبًا، وربما كان نفس الواجب اللعين الذي أعطانا المساعد إياه لعمله في اليوم السابق. ومنذ

أن كنت في السادسة من عمري كان الجميع من حولي يسالني "إلي أي جماعة تنتمي؟ إلي أي جماعة تنتمي؟ " ولم يسألني أحد "لأي الشعراء تقرأ؟ أو ما هو مستواك في الحساب؟" وفي يوم ما سوف تقرر أنك أنت أيضًا عليك أن تنتمي لشيء وإلا فإنك ستكون نسيًا منسيًا، وبذلك تختار واحدًا من هذه الأشياء، وحينئذ ستكون مكروهًا من النصف ومحبوبًا من النصف الآخر، ولكن على الأقل ستصبح "شخصية".

في أوائل شهر نوفمبر تركت دار "القديس فرانسيس للعمال الكاثوليك"، كنت أعاني بصفة مستمرة من نزلات البرد نتيجة لتيار الهواء الداخل من النافذة، ومن مجموعة من الخدوش علي ذراعي بسبب القطة، ومن حرمان مستمر من النوم بسبب محادثات "جيمي" المتأخرة مع أصدقائه الوهميين والتي أصبحت أعلي فأعلي بسبب أن سمع جيمي أصبح أضعف فأضعف. وكنت قد قابلت شابًا آخر حديث التخرج من خلال دوائر النشطاء في شيكاجو ووجدنا شقة فاستأجرناها معًا.

كان أدائي كمدرس يحقق تقدمًا، ولم تعد المدرسة بالنسبة لي كأنها معركة، كانت مهارات تلاميذي في القراءة والكتابة تتحسن بشكل كبير، حصل الكثيرون منهم علي شهادة المعادلة واستمر العديدون في دراستهم في كليات المجتمع المحلي كما التحق إثنان منهم مباشرة بجامعة "ديبول". إلا أن حياتي كانت حياة من ظل في وحدة، كنت أشعر أن لدي قصصًا عديدة عن المدرسة ولكني لم أكن أجد من أرويها له. كان راتبى الذي يبلغ اثنى عشر ألف دولار يحرمنى من أن أنتظم في مجتمع العشاء والعروض الذي كان يحضره أصدقائى ممن يتقاضون مرتبات أكبر من وظائفهم. وما كنت أفتقده حقـًا هو وجود مجتمع أو مكان أستطيع فيه أن أشارك برواية قصه أو طرح سؤال، ولا يحتاج مني سوى أن إسير إلى نهاية البهو.

وفى يوم رأس السنة عام ١٩٩٧ قررت أن أواجه المشكلة بشكل مباشر. اقترحت على زميلي في الغرفة أن نستضيف أبناء جيلنا من النشطاء فى شيكاجو- مدرسين وأخصائيين اجتماعيين وبيئيين ومنظمي مجتمع وخلافه. وقد جاء ستة أفراد فى الثلاثاء الأول من شهر فبراير، وطهوت لهم بطاطس مقلية وكان هذا هو الصنف الوحيد الذي أعرف طريقة طهوه (ومع الأسف هذه حقيقة ما زالت قائمة). تكلمنا في المواضيع المعتادة بالنسبة للنشطاء:

عمليات الارتقاء الجارية في المدينة والأسلوب المركزي للحزب الديمقراطي ولكن أكثر من تبادلناه كان الحكايات والضحكات، وكان جميعنا قد مر بتجربة محاولة تطبيق مجموعة من المثل التي قمنا بتجميعها ونحن طلبة في حياة ما بعد التخرج.

سأل صديقي "جيف" وهو من "ألين هول" متي سنفعل ذلك ثانية؟ " وكان يعمل منظمًا اجتماعيًا في حي لاتيني في شيكاجو.

اقترحت أن يكون ذلك "الأسبوع التالي".

وهكذا تحول هذا اللقاء الى أحد الطقوس، وفي كل ثلاثاء أستيقظ متحمسًا وأعود للبيت مبكرًا وأطهو البطاطس وأنتظر أصدقائي النشطاء الذين يصلون في حوالي السابعة مساء. تزايد العدد الذي بدأ بستة أفراد واتسع ليشمل دائرة أصدقائهم المباشرة ثم إلي دوائر هؤلاء الأصدقاء وهلم جرى. وسمع الناس في الجانب الجنوبي من شيكاجو بأمسيات الثلاثاء وبدأوا يفدون للجانب الشمالي من أجل الوجبة النباتية والحوار، وكان للبعض أصدقاء في جامعات في المنطقة الوسطي "ميد ويست" في "ميشيجان" و"إلينوي" و"فيسكونزين" وكانوا يأتون أثناء إجازة الربيع، وعندما بدأ الجو في الدفئ كنا نخرج للجلوس في الفناء الأمامي.

وفي مرحلة من المراحل وصل العدد الي نحو ثمانين شخصًا، كانوا يأتون بالأشعار لقراءتها معًا، وبالآلات لعزفها، وكذلك بأخبار النشطاء الذين ينظمون الطلاب والعمال في أماكن خارج الطريق.

وبينما كنت أغسل الصحون في حوالي العاشرة في إحدي الأمسيات سمعت صدفة حديثـًا يدور خلفي، قال أحدهم "إني أعيش اتطلع لمساء الثلاثاء" وقال آخر "وأنا أيضًا فهذا هو المكان الوحيد الذي يشعر الناس فيه بما أقصده، ليتنا نستطيع أن ننعم بهذا النشاط طوال الأربع والعشرين ساعة على مدار أيام الأسبوع السبعة".

سأل ثالث "هل تعني أن نعيش سويا؟ ليس الحال مثلما كان في الستينات، هذا لم يعد يحدث." اتجهت نحوهم، "بل يحدث، ألم تسمع بحركة العمال الكاثوليك؟ كل موضوعهم يقوم علي أساس فكرة أن يتجمع كل من يؤمنون بقيم العدالة الاجتماعية ويعيشون معًا ويخدمون الآخرين."

بدأ حديثنا يجتذب الاهتمام، انضم إلينا إثنان من خريجي جامعة "ويسكونسين" ،"هذا

يحدث أيضًا في "ماديسون". فهناك منظومة كاملة من التعاونيات حيث يعيش الطلاب والنشطاء المحليون معًا يشترون الأغذية بالجملة ويتشاركون في الأعمال المنزلية ويحثون بعضهم بعضًا على عمل الخير في العالم". وبدأت الفكرة تتبلور.

قررنا أن نطلب من واحدة من كبار النشطاء في شيكاجو وهي "كاتي كيلي" مؤسسة منظمة اسمها "أصوات البرية" - تعارض فرض عقوبات وشن حرب على العراق – لكي تأتي لنا في الأسبوع التالي وتقدم لنا بعض النصائح عن تحويل الفكرة الي واقع. وشعرت "كاتي" بالسعادة الغامرة لسماعها أن مجموعة من النشطاء الشبان في شيكاجو تتحدث عن تكوين تجمع للعدالة الاجتماعية. أخبرتنا عن أبرشية كاثوليكية في مرتفعات الحي بها دير يكاد يكون شاغرًا، فمعظم الراهبات غادرن، والقس يفكر في تأجيره. وأنذرتنا "كاتي" بأنه من الأفضل لنا أن نسرع فهناك آخرون مهتمون أيضًا بالمبني.

أعرب ستة منا عن التزامهم بفكرة تكوين تجمع. وبدأنا نجتمع مساء كل أحد لوضع شكل للمشروع، أعددنا معًا بيانًا برسالتنا وقررنا أن تتخذ قرارات هذا التجمع بالتوافق، كما نظمنا عملية قبول الأعضاء الجدد.

قالت "ليندا" أثناء إحدى الاجتماعات "أحب ذلك، فكل منا يضيف شيئًا هامًا وفريدًا في هذه المناقشة. "مارك" و"أليس" لديهما الخبرة في المعيشة في التعاونيات في "ماديسون"، و"ايبو" و"جيف" يعرفون عن حركة العمال الكاثوليك، وهذا يذكرني بأفضل القصص التي سمعتها في طفولتي عن شاب دخل قرية تتضور جوعًا، وجاء بإناء كبير وحجر ضخم وقال للقرويين أنه سيطهو لهم حساء الحجر، ووضع الماء والحجر في الإناء وعندما بدأ الغليان تذوقها وقال "إنه يكاد يكون جاهزًا ولكنه يحتاج لبعض الجزر " فقال أحد أبناء القرية أن لديه بعض الجزر وجرى وأتى به، قطعه الشاب ووضعه في الإناء، ثم تذوقه ثانية وقال: يكاد يكون جاهزًا ولكنه يحتاج الي بعض الكرفس، فقال أحدهم أن عنده كرفس، وجري وأتى به فقطعه الشاب ووضعه في الإناء. وأخذ يكرر هذا مع طلب بطاطس وليفت وثوم، وهكذا أعد حساء الحجر.

التزم الحاضرون الصمت للحظة فقد عزفت قصتها علي وتر حساس، قال "جيف" أعتقد أن هذا بالضبط ما نحن بصدده: تأسيس مكان يأتي بالمواهب المتنوعة من مجتمعات مختلفة ثم تجميع هذه المواهب لتكوين شيء أفضل يمكن أن ينفعنا جميعًا. "

قال جون "أعتقد أننا عثرنا حالاً علي مسمى لنا. "ستون سوب" أي حساء الحجر.

توجهت مجموعة صغيرة منا لمقابلة الأب "لامبيرت" من أبرشية "ليدي أوف لوردز"، وصفنا له رسالة "ستون سوب" وذكرنا له أن كل منا ينشط في مساعدة الأخرين من خلال عمله المتخصص، وقد وجد مشروعنا صدى في نفسه، ولكنه كان يفضل تأجير الدير لمجموعة دينية، سأل هل يوجد بينكم من هو كاثوليكي؟

لم يرفع أحد يده.

"أي منكم مسيحي؟"

رفع إثنان يدهما وذكرا أن نشأتهما مسيحية.

"هل بينكم من هو متدين؟" لا أحد

سكت لمدة طويلة ثم قال "حسن، رسالتكم بالتأكيد جوهرها روحاني، وسوف تحاسبني الأبرشية على هذه الخطوة ولكني أعتقد أني راغب في خوض التجربة".

انتقل سبعة منا إلى تعاونية "ستون سوب" في "أشلاند" في حي "أبتاون" بشيكاجو في سبتمبر ١٩٩٧. وزادت عضويتنا لتصل لخمسة عشر في السنة الأولى، وفي أمسيات الثلاثاء كنا نستقبل ما يزيد على خمسين فردًا، بما في ذلك نشطاء شبان وفنانين مرموقين في المدينة. كانت صحيفة "شيكاجو تريبيون" تغطي أنشطتنا، وكذلك كانت تفعل إذاعة شيكاجو العامة وصحيفة "شيكاجو ريدر"، وهي البديل الأسبوعي في المدينة، وكانت تشير إلى "ستون سوب" على أنها الجماعة التي تفوح منها بشدة رائحة العدس. بدأت "ستون سوب" تقوم بدور في شئون الحي وبصفة خاصة ببذل كل ما في وسعها للاحتفاظ بتنوع حي "أبتاون" من الناحية الاقتصادية والعرقية. وبدأت مجموعة صغيرة من أصحاب الفكر التقدمي في جمع أموالهم. وعندما – وعلى غير المتوقع – طُرح في السوق بيت كبير، كان قد أصبح لديهم بضعة آلاف من الدولارات تكفي لدفع مقدم لمقر سوف يصبح "ستون سوب الثاني" – "دار ليلاند".

طلب مني أحدهم مرة أن آتي له بعبارة مجازية لوصف مجموعة "ستون سوب"، قلت له أنه المولود الذي جاء من صلب "والد ويتمان" و"أني ديفرانكو". وقد كانت أكثر المجموعات التي عرفتها إبداعًا وظرفًا. ولكن ظل هناك فراغ بداخلي لم تملأه. ففي "ستون سوب" كنا نستمتع بتجديد أنفسنا كل يوم، ولم يكن هذا الهرج غير محتمل بقدر ما كان لا يدعو

للرضى. كنت أحيانـًا أفكر في سارة في إسرائيل، وأتعجب كيف يكون الشعور بثقل التاريخ. كنت أحب عملي كمدرس وأحب أولئك الذين أعيش معهم. ولكن بالرغم من أني جمعت بين التجمع والعدالة والإبداع، لم يضف ذلك شيئـًا للهوية.

كان هذا هو أحد الأسباب الرئيسية لإعجابي بالقس "وين"، ربما كان يحلق بفكره عاليًا في السحاب، ولكن كان لديه حس واضح بدوره في الكون.

كنت أنا وصديقي "كيفن" قد بدأنا نرابط إلى جانب القس "وين" في مناسبات دينية مشتركة مختلفة. وحيثما كنا نذهب كان القس "واين" محبوبًا للغاية ويعامل معاملة النجم اللامع بين رجال الدين. وكان بعد إنهاء كلمته يدعونا أنا و"كيفن" إلى المنصة، ويقول "هؤلاء هم قادة الجيل القادم، أحدهما مسلم والثاني يهودي يقومان معـًا ببناء حركة الإيمان المشترك الشبابية"، ثم يبتعد عن الميكروفون ويهمس لنا "تحدثوا لهم عن حركة الإيمان المشترك الشبابية".

كانت هناك ثلاث مشاكل يضعنا فيها القس "وين" بسبب موقفه هذا، أولاً كنا أنا و"كيفن" لا نرتاح لأن نسمى مسلم ويهودي، فالواقع أننا كنا نسعى نحن الاثنين لنكون بوذيين. وكان واحد من أسباب اندفاعنا نحو القس "وين" هو أن لديه معرفة وثيقة بالمعتقدات الشرقية. كان صديقـًا مقربًا للغاية لشقيق "الدلاي لاما"، وكان قد دخل مؤخرًا في حوار مع قداسته شخصيًا، كنا أنا و"كيفن" نريد منه أن يعلمنا التأمل والإنشاد والأسرار وأي شيء كان يبدو لنا غامضـًا. وآخر شيء كنا نريده منه هو أن نوضع في قالب العقائد التي ولدنا بها. فقد كنا ما نزال نخبئ مشاعر المراهقين التي تناهض كل ما هو مألوف.

ولكن القس "وين" لم يكن يرى قوالب أو حدود، شرح لنا التأمل وعرفنا بكتاب من الهندوس والبوذيين. كان قد أقضى سنوات في دراسة الديانتين، وخدمته معرفته بهما في تقوية إيمانه بالكاثوليكية وساعدته في إعادة التفكير فيها مرة أخرى أثناء ذلك. وعلى كل حال كان راهبًا يدَرِّس في معهد لاهوتي ويكرس نفسه لمبادئه بكل جدية، كما أنه تلقى تكريمًا خاصـًا من رئيس أساقفة شيكاجو "فرنسيس كاردينال جورج". قال لي القس "وين" أن العقيدة التي ولدت بها هي البيت - ولكن وكما كتب غاندي في إحدى المرات - لابد وأن يكون بيتـًا به نوافذ مفتوحة حتى يستطيع هواء العقائد الأخرى أن ينفذ من خلالها، وأن يأتي بالأكسجين الفريد لكل منها، وكان يقول "شيءٌ جيد أن تكون لديك أجنحة، ولكن لابد أن تكون لك جذور أيضا".

والمشكلة الثانية في الموقف الذي وضعنا فيه أنا و"كيفن"، أنه لم يكن هناك حركة شباب للأديان، أو على الأقل أية حركة نعلم بوجودها أنا و"كيفن". كنا نحن الاثنان في العشرينات من عمرنا، نستكشف الروحانية والتنوع والمجتمع والعدالة الاجتماعية، وهذا لا يشكل حركة بالمرة. وأيضًا عندما كان القس "وين" يدعونا لإلقاء كلمة كان كل منا ينظر للآخر ونهز كتفينا ثم نتجه للميكروفون. ماذا عسانا أن نفعل سوى أن نتحدث؟ كان "كيفن" يقول بعدها "إنه مثل الكلام المرسل" واستعمال طريقة صنع الكلام في الحال طالما أنه يحمل الحقيقة.

انتهينا بأن وضعنا خطوطًا متعرجة لآمالنا. أليس علينا أن ننظر في الشعر والكتب المقدسة للأديان المختلفة وأن نحاول العثور على النبض المشترك للمحبة الذي يسري فيها؟ أليس علينا أن نأتي بشباب من خلفيات متنوعة بشكل جذري: أغنياء وفقراء، شرقيين وغربيين، عرب وأمريكيين، معًا لبناء مجتمع متنوع؟ أليس علينا أن نحذو حذو "مارتن لوثر كينج" الصغير و"أبرهام جوشوا هيسكل" وهما مسيحي ويهودي سارا معًا في مدينة "سلما" بولاية "ألباما" منادين بالحرية حتى أن "هيسكل" قال: "شعرت كما لو كانت ساقاي تتضرعان"؟

أحب الناس طريقتنا المرتجلة، وكنا نحظى بالترحيب باستمرار. وكان المدرسون يطلبون منا التحدث في فصولهم، وكان الموجهون الدينيون يريدون منا زيارة تجمعاتهم.

بدأنا نشعر بشيء من عدم الارتياح لهذا الاهتمام، وفي مرة اعترفت للقس "وين": ليس هناك حركة شبابية للأديان، أنا و"كيفن" نحلم بصوت عالٍ فقط".

لم يبدِ أي انزعاج "إن مجرد تحديد الأمل يساعد علي تحويله إلى واقع، استمروا في الدعاء من أجل ذلك، واللقاء بمن يشعرون بنفس مشاعركم وسوف يبدأ ذلك في اتخاذ شكلا."

كانت المشكلة الثالثة المرتبطة بالذهاب لهذه المناسبات أنها كانت تدعو للملل بشكل كبير. كانت دائمًا اجتماعات على العشاء أو مؤتمرات يحضرها كثيرون من كبار السن يتكلمون كثيرًا، وكان يبدو أن الهدف الكبير هو صياغة وثائق تعلن أن المتدينين عليهم عقد حوار مع بعضهم البعض ثم التخطيط للمؤتمر التالي لمراجعة الوثيقة. كانوا دائمًا نفس الأشخاص يقولون نفس الأشياء، ومع ذلك كانت هذه المناسبات تستمر لمدة أطول من اللازم.

أذكر مناسبة من مناسبات الأديان على العشاء في شيكاجو وكانت تشكل تعذيبًا بصفة خاصة. فعندما توجه المتحدث التاسع في هذه الأمسية إلى المنصة كان الجمهور قد تخطى مرحلة الحرج من النظر في الساعة، وبدأ يحدث جلبة وهو جالس. كانت الأمسية قد سارت مثلها مثل كل الأنشطة الدينية: حضور مائتي فرد في سن يتراوح بين المتوسط والكبير يلتقطون وجبات الطعام الجاف من الصحون الفندقية، ويستمعون لقائمة طويلة من المتحدثين وهم يكررون نفس أسباب أهمية الأنشطة الدينية. وقد لاحظ المتحدث – وهو من كبار القيادات الدينية الأمريكيين- تململ الحاضرين فحاول أن ينعش الحشد وصاح مغنيًا " ما نفعله هنا غاية في الأهمية إننا نقارب بين العقائد" ثم سكت بينما بدى على وجهه الامتنان "نعم إن تقريب العقائد عمل جليل قولوا معي: نحن نقارب بين العقائد".

تمتم نحو نصف الحاضرين " نحن نقارب بين العقائد"، بينما حملق الباقون طويلاً نحو الباب، وتظاهر المتحدث بعدم ملاحظة رد الفعل الفاتر وعاد ليتكلم مرة أخرى عن أسباب ضرورة الاستمرار في إقامة المأدبة السنوية للأديان، وقال هو ممتن "نراكم السنة القادمة".

لم أكن أشعر بالملل في المناسبات فحسب بل كنت أشعر بالإحباط، كنت أتوق لأن أشارك في حركة تجمع بين الروحانية والتنوع والعمل الاجتماعي بشكل ملموس للغاية، ففي قلب كل حركة اجتماعية درستها – حركة الحقوق المدنية والنضال ضد الفصل العنصري في جنوب أفريقيا، وحركة تحرير الهند، كانت هناك جماعة من ديانات متنوعة تضحى بحياتها من أجل العدالة الاجتماعية، كل زعيم أعجبت به كانت له جذور عميقة في عقيدة مختلفة. ولم أكن أستطيع أن أفهم لماذا كان الناس في المناسبات العقائدية التي حضرتها مبهورين من أن البوذيون والهندوس واليهود والمسيحيون والمسلمون مجتمعون في مؤتمر واحد، على مائدة الغذاء في مدرستي الثانوية كان يجتمع مثل هذا التنوع، وكان ما يحيرني أن يبذل كل هذا الجهد في كتابة وثائق وتنظيم احتفاليات للتقرب بين العقائد ويتم ترتيب وضع الناس على المسرح بكل عناية حتى تظهر الصور مثل إعلان محلات "بنيتون"، أين الالتزام الملموس بالعمل الاجتماعي وهو الشيء الذي كان يسعى إليه أبطالنا العقائديون؟ وأين كان الشباب؟

كدنا أنا و"كيفن" نسأم من فعاليات التقارب العقائدي عندما تلقينا مكالمة هاتفية من "شارلز جيبس" المدير التنفيذي لمبادرة اتحاد الأديان المتحدة (URI) وهي منظمة دولية

للتقارب العقائدي في مدينة "سان فرانسيسكو". كان القس "وين" قد أخبر "شارلز" أن حركة التقارب العقائدي لابد وأن تضم المزيد من الشباب وأنني و"كيفن" في سبيلنا لبناء حركة شبابية للتقارب بين العقائد في شيكاجو، وقد طلبنا "شارلز" لدعوتنا للقمة العالمية لمبادرة الأديان المتحدة، وقد أعطانا منحة كاملة لحضور المؤتمر وذكر لنا أنه سيكون هناك شباب من جميع أنحاء العالم من المهتمين بالمشاركة في الحركة الشبابية للأديان.

تم تكوين اتحاد مبادرة الأديان في منتصف التسعينات من القرن الماضي بمعرفة "ويليام سوينج"، وكان آنذاك الأسقف الرسمي في أبرشية كاليفورنيا. كانت الفكرة الأساسية هي أن أعمال التقارب العقائدي تحتاج لأن تضم، ليس فقط القيادات الدينية على المستوى الرفيع، ولكن أن تضم كذلك ناس من عامة الشعب، ولابد أن تكون هناك أنشطة ملموسة ومستمرة للتقارب العقائدي، وليس فقط عقد مؤتمرات دولية. وتكون وظيفة المنظمة العالمية هي تنظيم شبكات للمجموعات المحلية للتقارب العقائدي وتنسيق أنشطتها.

عقدت القمة العالمية لمبادرة اتحاد الأديان في مدينة "ستانفورد" وحضرها أشخاص من عشرات البلاد حول العالم، وقد تغيب من هم دون الثلاثين عن كثير من جلسات المؤتمر لتمضية الوقت سويًا، فقد جاؤا من ماليزيا وغانا والبرازيل والأرجنتين والولايات المتحدة، وكان هناك هندوس ويهود ومسيحيون ومسلمون وبهائيون وبوذيون ومن يتبعون عقائد السكان الأصليين. وفي مناقشة حياتنا العقائدية برز موضوعان: تم تكويننا العقائدي في وسط تنوع ديني وكانت خدمة الآخرين جزءًا جوهريًا من أسلوب معيشتنا الدينية. أطلقت شابة هندوسية على نفسها اسم "كاما يوجي" ومعناها الشخص الذي يبحث عن الرب عن طريق أن ينشط في خدمة الآخرين. تكلم "كيفن" عن الصلة بين الدعوة للخدمة لدى الهندوس ووصية "تيكون أولام – tikkun olam" أي إصلاح العالم لدي اليهود. استشهد ماليزي مسيحي بالفصل ٢٥ من إنجيل متى وقال أن هذه بالضبط كانت رسالة المسيح، لم أتمالك من أن أفكر في الحوار الذي دار مع والدَيَّ حول التطوع وإصرارهما على أن أقدم الخدمات لأن ذلك جزء من الإسلام.

استمرت المناقشات طويلاً في الليل. وعندما عدت لغرفتي كنت مرهقـًا، ولكني لم أستطع النوم، كان حيزًا نادرًا هذا الذي أنشأناه في هذا المؤتمر: محادثة مفتوحة عن العقيدة والتنوع والخدمة. ففي مرات أخرى جربت أجزاء فقط من هذه المحادثات ولكن لم تكن أبدًا كل

الأجزاء معًا، في الكلية كنت مشاركًا في جهود كثيرة لتعلم الخدمة، وكانت تجمع بين أناس من خلفيات متنوعة معًا لبناء بيوت أو تعليم الأطفال، إلا أننا لم نتكلم أبدًا عن العقيدة. في دور العمال الكاثوليك كانت تجري مناقشات كثيرة عن العقيدة والخدمة ولكن قليلاً ما يدور الحديث عن التنوع الديني. وحتى ذلك الوقت كانت تجربتي عن حركة التقارب العقائدي تتضمن الكثير عن العقيدة والتنوع، ولكن القليل فقط عن الاهتمام بالخدمات الملموسة.

كنت أخشى أن يتبخر هذا البعد مع معانقات الرحيل في نهاية المؤتمر، كيف نجعله يستمر؟ عصرت ذهني في وقت متأخر من الليل وأنا أفكر في ذلك، وفجأة طرأت لي فكرة: ماذا لو أنشأنا مشروعًا حيث يجتمع شباب من ديانات مختلفة لمدة عام في تجمع سكني حيث يعيشون سويًا يشاركون في مشروعات لخدمة المجتمع؟ كان هناك عدد من الجهود المبنية على أساس عقائدي على نفس النهج: فرق المتطوعين اليسوعيين، وفرق المتطوعين اللوثريين، وبرنامج موازي للمتطوعين اليهود اسمه "أفوداه –Avodah"، كانوا يجمعون بين العقيدة والخدمة ولكن لم يكن به تنوع ديني. علاوة على ذلك كانت هناك برامج مثل عام المدينة، وعلم من أجل أمريكا، والمتحالفون العموميون كانت تتعمد أن تأتي بأفراد من خلفيات عرقية وطبقية وجنسية وجغرافية مختلفة معًا للعمل في جهود التنمية المجتمعية (على الرغم من أن هذه البرامج لم يكن بها إقامة) إلا أن العقيدة كانت مغفلة لحد كبير. وكانت هناك حركة التقارب العقائدي حيث كان الناس من خلفيات دينية مختلفة يجتمعون سويًا ولكن يبدو أن مقصدهم هو تنظيم المؤتمرات ورعاية الاحتفاليات وصياغة الوثائق. وسوف تتعلم فرق الشباب للتقارب العقائدي من كل هذه الجهود بينما تؤسس شيئًا جديدًا تمامًا.

كانت الساعة قد بلغت الثالثة صباحًا، وبعد ذلك بأربع ساعات سوف أتمكن من أن أخبر الناس بهذا.

تتحقق الأفكار على أرض الواقع عندما يلتزم بها الأشخاص المناسبون. وهناك فئتين من "الأشخاص المناسبين" – الموجهون والنظراء، فالموجهون هم من لديهم الموارد والشبكات والحكمة، هم من يقودونك ويشجعونك ويعقدون لك الاتصالات. ففي برنامج "يوم واحد لكل الأطفال"، وتصف "واندي كوب" الموجهين المتنوعين الذين ساعدوا في إطلاق حركة "علم من أجل أمريكا". أدرك "مارفن بريسلر" رئيس قسم الاجتماع في جامعة "برينستون" على الفور

قيمة الفكرة، فقام بتحديد موعد مقابلة مع مدير التنمية، حتى تتعلم "ويندي" كيفية الحصول على التمويل. وافق مدير التنمية على أن تقوم جامعة "برينستون" بدور الوكيل المالي لبرنامج "علم من أجل أمريكا"، استمع "ريتشارد فيشر"، أحد خريجي "برينستون" والمدير التنفيذي في شركة "ستانلي مورجان" بتعاطف إلى " ويندي"، ومنحها مقراً لمكتبها مجانًا. وقد وفر مؤسسو "يوم المدينة" وهما "مايكل براون" و"آلان خزاي" المشورة الاستراتيجية المستمرة بما في ذلك النصيحة الهامة للغاية "فقط قل لا" عندما يطلب منك أحد أن تغير مهمتك ولو قيد أنملة. وقد أحدثت الأشياء الصغيرة فارقـًا كبيرًا. كتبت "ويندي" عن موظف في شركة اتصل بها وقال لها:"ويندي لقد قرأت لتوي اقتراحك وهو مذهل"، وقد أدت هذه المكالمة الهاتفية إلى تشجيعها لمدة أسبوع.

ومن حسن الحظ أن القمة العالمية لمبادرة الأديان المتحدة كان عالم بأسره من الموجهين المشجعين. كان "تشارلز جيبس" قد رأى الشباب يتسللون إلى خارج جلسات المؤتمر وعيناه تلمعان فرحًا، وعندما حاصرته أثناء الإفطار بفكرة فرقة الشباب للتقارب العقائدي قال: "كنت أتعجب عما كنتم تدبرونه سويًا." استمع "جيم كيني" - وهو واحد ممن ساندوا طويلاً مشاركة الشباب في أعمال التقارب العقائدي - للفكرة بعناية واقترح الخطوة العملية التالية: أن تساهم منظمات التقارب العقائدي المختلفة ماليًا لعقد مؤتمر للشباب حيث تناقش المزيد من التفاصيل. وقد أقضى "جو هول"، وهو واحد من المشاركين في المؤتمر، جاء من خلفية فنون وتنمية اجتماعية، أمسية كاملة معي يناقش كيفية تحقيق هذه الفكرة. أعطاني ما كنت أحتاجه بالضبط في هذا التوقيت: اعتقاده أن فكرة فرقة الشباب للتقارب العقائدي فكرة قوية وممكنة التنفيذ، ونصيحته أن الأنشطة القائمة على الغضب تسير فقط لجزء من المسافة التي تقطعها الأنشطة المبنية على التعاطف.

الأهم من مساندة الموجهين، كنت في حاجة لزمالة نظرائي. كنت أريد أن أتأكد أني لم أكن مجنونـًا عندما قلت أن الشباب في حاجة إلى حيز للربط بين العقيدة والتنوع والخدمة، وأن مشروعي الأساسي لتكوين فرقة الشباب للتقارب العقائدي يلبي هذا الاحتياج. كتبت "ويندي كوب" أنه خلال كل المحاولات الأولى لتأسيس "علم من أجل أمريكا" كانت أهم صلاتها هي صلاتها بنظرائها ممن يؤمنون بالمساواة في التعليم في أمريكا. شعرت بنفس

الحب لنظراني في القمة العالمية، " قالت صديقتي "بارثي" وهي ماليزية مسيحية "هذا بالضبط ما يحتاج جيلنا أن يفعله"، وقال "سقرات" وهو أفريقي من غانا ينتمي للتقليديين "أجل، عليك يا رجل أن تحقق هذا الشيء". بدأت مناقشاتنا في المؤتمر تركز على شكل هذا المشروع، وعندما بدأت نهاية المؤتمر تلوح كان هناك سؤال هام معلق في الهواء: من سيقوم بماذا عندما نتفرق ويعود كل لداره؟ كررت ما عرضه "جيم كيني" و"تشارلز جيبس" عن المساعدة في تمويل مؤتمر شبابي للأديان وتوزيع المهام والالتزام بالقيام بها. ذكر آخرون ما يستطيعون القيام به، تركت المؤتمر ومعي فكرة ورغبة ملحة ومجموعة من الموجهين والنظراء المستعدين لتحويلها إلى واقع.

ذهبنا أنا و"كيفن" لزيارة القس "وين" بشأن فرقة الشباب للأديان فور عودتنا لشيكاجو، كاد لا يتمالك نفسه عندما وصفناها له. وعندما هدأ بدأ يضع الاستراتيجية، "حسن عندما ينتهي الفريق من تحرير التبت يمكنه أن يبدأ العمل في البيئة، هذان هما أكبر أزمتين في عصرنا وأسبابهما روحانية ولابد أن تكون الحلول روحانية أيضًا".

ظل هادئًا للحظة ثم قال فجأة "هل تعرفان من سيرغب في السماع عن ذلك؟ قداسته"انتصب واقفًا فجأة وهو يشير بأصبعه في الهواء، وأعلن "عليكما الذهاب إلى "دارامسالا" وإخبار قداسته عن فريق الشباب للأديان، لابد من الحصول على بركته قبل أن تفعلا أي شيء آخر".

الفصل الخامس

أمريكي في الهند

ما هو ميراثي؟ ماذا أنا وارث؟ من كل ما وصلت إليه الإنسانية في عشرات الآلاف من السنين، أنا وارث لكل الفكر والمشاعر، والمعاناة وكذلك السعادة، وصيحات الانتصار ومرارة الهزيمة، وللمغامرة المذهلة للإنسان التي بدأها منذ قديم الأزل، وما تزال مستمرة وتدعونا لإتباعها . لكل هذا بل وأكثر منه،مما هو مشترك بين كل البشر. لكن هناك ميراث خاص بنا نحن أبناء الهند، ميراث ينطبق علينا بصورة أخص.جواهرلال نهرو .

كتاب" اكتشاف الهند"

قبل الصعود إلى الطائرة في رحلتي السابقة إلى الهند، عندما كنت في الخامسة عشر من العمر، سألت والدي إن كان لديهم رقائق مجمدة (Frosted Flakes) هنالك في الهند. وكان رده "لا أعتقد ذلك". كيف كان من المتوقع مني أن أمكث ستة أسابيع؟

كنت أبدى ازدرائي الصريح تجاه الهند في هذه الرحلة العائلية. لم تكن "ثامبس أب كولا"(Thumbs Up Cola) قريبة من طعم "الكوكا"، وكل الشفاطات المصنوعة من الورق الذي كنت أرتشف من خلالها هذا المشروب كانت ضيقة جدًا ولا تسمح بشرب جرعة كافية. لم يكن هناك هوائي طبقي في بيت جدتي. كان الاستحمام عملية بدائية حيث كانت الوسيلة تتكون من دلو يوضع فيه الماء، ثم تصبه على نفسك باستخدام إبريق. أجهزة التكييف كانت تصدر ضجيجًا عاليًا. لم تفلح المراوح إلا في توزيع الهواء الساخن. كانت الهند بلد القذارة والإزعاج والتخلف.

في بومباي، حيث يعيش أفراد عائلتي الكبيرة، قضيت أيامي في شقة عمتي أقرأ روايات "آين راند"، وأضع خطة المقالات التي سوف أتقدم بها للالتحاق بالجامعة. عرض علي أولاد عمي أن يصطحبوني لنخرج ليلاً ولكنهم سرعان ما شعروا بالملل من أسلوبي.

"تذكر أن تطلب فهم لا يضعوا ثلجًا في مشروبك،" هكذا قالت لي "باتول" في محل عصائر في شاطئ "تشاوباتي"، وهي تبذل قصارى جهدها لحماية معدتي الأمريكية من الإصابة

بالأمراض المنتشرة. وكان ردي، "ما هذا المكان اللعين الذي لا يمكنك فيه حتى أن تتناول الثلج؟".

عندما ذهبنا في جولة سياحية في الشمال، في مدينة " أجرا" و"جايبور"، كانت الساعة الوحيدة التي لم أتذمر فيها هي عند تواجدنا في "تاج محل". كان أصحابي من البيض في المدرسة قد طلبوا مني أن أذكر لهم كيف كان شكله، لذلك كنت منتبه تمامًا حتى أستطيع أن اقدم لهم التقرير، أما في بقية الوقت، كنت ألعن درجة الحرارة المرتفعة والقذارة اللزجة وازدحام الأجسام الطويلة ذات اللون الأسمر والرائحة الكريهة. أصبت بنوبة غضب عندما علمت أننا لن نغادر في الموعد المقرر لرحلتنا الأصلية، وعلينا أن ننتظر يومين آخرين قبل الرجوع. وأخذت أبكي لأهلي مثل الطفل الذي يبلغ خمسة أعوام "أنا أريد فقط الذهاب إلى بيتي".

وها أنا الآن أعود إلى الهند، ستة أعوام فصلت بين الرحلتين. كنت اشعر بـالخجل من تصرفاتي أثناء الرحلة السابقة، لكن كنت أشعر أكثر من أي شيء بـالغضب تجاه أمريكا. فعلى كل حال، إنها أمريكا التي أغرتني لإتباع أساليبها وطريقتها في الاستعلاء، وأرغمتني على التخلي عن ميراثي الحقيقي في صفقة شيطانية لكي أحظ بـالقبول، ثم ضحكت بضراوة عندما اتضح لي رويدًا أني لن أكون أي شيء سوى مواطن من الدرجة الثانية هناك. لكني كنت قد أصبحت أكثر وعيًا بأساليب الإمبراطورية. من ذا الذي يقول أن أدوات السيد غير قادرة على تفكيك بيته؟ ففي جامعات ومكتبات القوة العظمى ذاتها اكتشفت أساليبها الماكرة والمخادعة. كانت عودتي بـمثابة استعادة لتراثي الضائع، ولم الشمل بيني وبين أهلي وأرضي، وسكنًا لهويتي التي ظلت في عظامي حتى عندما كنت أحاول دعك جلدي الداكن ليصبح أبيض اللون. قرأت عن رفض غاندي للعقلية الأوروبية وانحيازه لكل ما هو هندي، وتخيلت نفسي وأنا ارتدي المنسوجات المحلية وأسير حافي القدمين في ريف الهند. فكرت في لقاء" مالكوم إكس" لإخوته من ذوي البشرة السمراء في أفريقيا وبدء حركته تجاه الوحدة الإفريقية، وتخيلت إن كنت أنا بعد هذه الإقامة المؤقتة في وطني الأم، لن أفعل نفس الشيء.

كان الخدم مستيقظين عندما وصلت أنا وكيفين في منتصف الليل إلى بيت جدتي في حي" كولابا"، وهو حي صاخب في جنوب بومباي. كانوا محتشدين حول التلفاز يشاهدون حلقات

معادة من مسلسل" ديفرنت ستروكس" ناطق بـالهندية. بكوا عندما رأوني، وتبادل الاثنان الكبار تقبيلي واحتضاني ولمس وجهي. شرحت لي جدتي "كانوا يرعونك وأنت طفل، والآن يرونك وقد كبرت، ولهذا يبكون. لقد ظلوا مع عائلتنا لمدة خمسين عاما. هذا الرَجل "ناصر بهاني" كان يصطحبك للسير في الليل إن لم تستطع النوم. وهذه "أمين باي"، كانت تجلس وتطعمك بنفسها وكانت صبورة معك عندما ترفض أن تأكل. لقد فعلوا ذلك مع والدك عندما كان طفلاً صغيرًا." بعد ذلك وضعت جدتي إكليلاً من الورود حول عنقي ورحبت بعودتي لبلدي: "هذه هي مدينتك وهذه هي شقتك فاجلس واسترح". أتى أولاد عمتي؛ وأتت عماتي وخالاتي والمزيد من الأحضان والمزيد من الدموع، المزيد من قرص الخدود والربت على الرأس أصبحت في بيتي.

بعد الإفطار، كنت أنا وكيفين جاهزين للهند. قلت لأسرتي "نريد أن نذهب لشراء ملابس هندية"

قال ابن عمتي سليم: "لكن أفضل بنطلونات 'بلوجينز' تجدها في أمريكا". لم أفهم بـالضبط ما يـقوله.

كرر "بلو جينز،" معتقدًا أني لم أسمعه. "هذا ما يرتديه الجميع هنا."

قلت له: "إني أريد ملابس هندية، مثل الملابس التي كان يرتديها أبي في الليل فقط لأنه كان يخجل من ارتدائها في أمريكا لأنها بلد عنصرى."

سألني سليم:"هل تقصد ملابس النوم البيجامات؟". فقدت الأمل فيه وطلبت نفس الشيء من جدتي.

شعرت هي الأخرى بالحيرة، لكنه صدرت تعليماتها لأمين باي أن تذهب معنا للتسوق. ركبت أنا وكيفين معها في المقعد الخلفي لسيارة مستأجرة وانطلقنا. كان هذا أول لقاء لي مع الدنيا الأخرى.

صرخت ونبرة الذعر تعلو في صوتي "احذر! احذر!"، عندما رأيت السائق يتفادى بالكاد شخصًا يركب دراجة من ناحية اليمين. ثم تبينت أنه انحرف لتفادى حافلة تسير مترنحة في الشارع على يسارنا. تعرضنا لثلاثة مواقف مماثلة قبل أن نصل إلى أول إشارة مرور، وفي هذه المرحلة حدثت نحو ثلاثة مواقف أخرى، ذلك لأنه لم تكن هناك سيارة أو عربة نقل أو دراجة أو مرتجل أو حيوان يتبع إشارة المرور، وفي كل مرة نكاد فيها أن نحتك بسيارة أخرى كنت

أخرج صرخة صغيرة. وكان السائق يمضغ حبات "التنبول" بمنتهى الهدوء،ويبصقها من خلال النافذة، ثم سأل "أمين باي"، "هل هوأميركي؟".

"قالت آمين باي: "ممم" وهي تهز رأسها من جانب إلى الآخر. تلك الإيماءة التي تعني "نعم" عند الهنود.

قررت أن أفضل إستراتيجية يمكنني تبنيها هي أن أتجاهل الطريق، وأوجه تركيزي ناحية "أمين باي". لقد راعتني وأنا طفل، أقل ما أستطيع فعله هو أن أسألها عن حياتها. سألتها "كيف حالك؟"

استغرقت العملية منها لحظة، أن تفهم سؤالي، فإنه كان تحدي للغتها الإنجليزية، غير أن الخادمين الهنود لم يعتادوا أن يسألهم الناس عن حياتهم. أمين باي، بدت عليها السعادة الغامرة أن تطلعني على آخر أخبارها، وانطلقت بحديث هندي نابض بالحيوية. لم أفهم كلمة، لكن لم أكن أريد أن يمنعني هذا من التواصل مع الماضي، ومع أهلي. كنت أومئ بقوة كلما أرى ذلك مناسبًا. أمين باي يجب أن تكون قد اعتبرت ذلك علامة جيدة، فقد استمرت في الحديث. عند نقطة ما، أشارت إلى فمها وابتسمت ابتسامة عريضة. ابتسمت لها وأومأت برأسي وأنا أشعر بسعادة غير عادية أن ارتباطنا قد تخطى حاجز اللغة. توقفت أمين باي، وتغير وجهها من السعادة الخالصة إلى ارتباك طفيف. لم أكن أريد أن أخسر هذه الطاقة الإيجابية فابتسمت أكثر وأومأت برأسي أسرع. تجاهلت "أمين باي" هذا، أدخلت أصابعها في فمها، أخرجت طقم أسنانها، ووضعته في يدي ثم قالت لي بالانجليزية وهي مبتسمة، "جديد تمامًا"، كان ذلك الكلام الإنجليزي الوحيد الذي نطقت به في الصباح كله.

كانت تلك الرحلة الهندية هي التي أقنعتني أن عودتي لأن أكون من سكان الهند العاديين مسألة أصعب مما تصورت. بدأت رحلة الحافلة التي استغرقت ثماني ساعات من "شانديجار" إلى "كانجرا" بشكل جيد. كان شيئًا مسليًا أن نشارك الحافلة مع دجاج في أقفاصه وبعض من الماعز الصغيرة. كان محصل الحافلة مستمرًا في التجول وهو يدخن سجائر رائحتها غريبة، ومن حين لآخر يسير في الممر متجهًا نحو السائق ليعطيه سيجارة. وجد "كيفين" واحدًا من "السادو"، أي هندوسي مقدس يتخلى عن كل ما يملك لكي يسير في الأرض ويتعبد، كان يجلس في مؤخرة الحافلة، وحاول "كيفين" أن يتحدث معه. بدا الرّجل سعيدًا بتلميذه الجديد، وبدأ يعلمه

بـالهندية التي تخللتها بعض الكلمات الإنجليزية. بينما قررت أن ألعب لعبة صغيرة بيني وبين نفسي: كم دقيقة تمضي قبل أن يقول أحدهم جملة يفهمها الآخر؟

شربنا الماء. الكثير والكثير من الماء. كانت تلك هي النصيحة الوحيدة التي يقدمها لنا الناس أينما ذهبنا. لكن للأسف، فشلوا في تذكيرنا بـشيء لا يقل أهمية: العثور على دورة مياه. بعد ساعة من الرحلة شعرت بـالحاجة إليها. عاينت الموقف، لم تكن الحافلة قد وصلت إلى توقف كامل حتى الآن، لكن الناس كانت تخرج وتصعد بينما الحافلة تتحرك. هل هناك أي طريقة لإيصال مشكلتي إلى السائق أو المحصل؟ لم يكن لدي فكرة عن الكلمات التي يجب علي استخدامها. ماذا عن لغة الإشارة؟ همم، فكرة خطيرة. ماذا كان علي أن أفعل؟ ألوح إلى المحصل ثم أشير إلى فخذي؟ قد تكون هذه أكبر إهانة يمكنك أن توجهها إلى شخص في الهند. قد يضطر المحصل لقتلي لكي يصون كرامته، لذلك قررت التخلي عن هذه الفكرة.

تحول الآن الضغط البسيط على المثانة إلى شعور بنهر يزمجر خلف سد. كنا قد تجاوزنا ساعة ونصف من الرحلة التي تستغرق ثماني ساعات. ما بدأ كرحلة ممتعة أصبح يتخذ الآن مسارًا مظلمًا. أصر سائقنا على تخطي أي سيارة تسير على ناحيتنا من الطريق، مما يجعله معظم الوقت معرضًا الاصطدام بشاحنة ضخمة قادمة من الإتجاه الآخر. وكان السائقان يستخدمان آلة التنبيه بشكل عنيف ثم يتفادان أحدهما الآخرفي اللحظة الأخيرة. ثم كان كل من السائقين يأخذ جرعة أخرى من الحشيش الذي يتعاطاه، ثم يستعد لتكرار ذلك. بدأ هذا يرهقني وبدأت أشعر بـالالم في مؤخرتي، فقد كان الكرسي قطعة من الحديد الرخيص، مغطاة بـشريحة من الجلد الصناعي. حاولت أن أبحث عن وضع يحد من الضغط على مثانتي ولكن هذا الوضع كان يؤلم ظهري جدًا فلم اتمكن من الاستمرار عليه، وجدت أني أحتاج إلى"كيفين"، قاطعت محادثته الإيمائية مع سادهو وقلت له، "إسمع، في المرة القادمة التي يقرر فيها هذا السائق المدمن أن يقلل من سرعة الحافلة، سوف أقفز منها لأبحث عن مكان أتبول فيه. هل تستطيع أن تؤمن ألا تغادر الحافلة المكان بدوني؟"

كان "كيفين" متشككـًا، لكنني أوضحت له أن الخطة الأخرى سوف تستاء منها كافة المخلوقات الموجودة في الحافلة، ربما بإستثناء الماعز. قلت له أننا نعيش في عالم من الإختيارات السيئة، وأني أحتاج إلى مساعدته لكي ينجح أفضل اختيار من هذه الاختيارات

السيئة. بعد ذلك بخمسة عشر دقيقة، رأيت بعض الناس يلتقتون أمتعتهم وينتزعون أطفالهم ويتدافعون نحو الباب إنتظارًا لأن تصل الحافلة لأقصى حد من الإبطاء لكي يقفزوا منها. تدافعت معهم وأنا سعيد جدًا بفكرة ما سألقاه من راحة وشيكة، قفزنا معا. سحبت سوستة السروال لأسفل وأنا أركض نحو حائط أسمنتي حيث رأيت بعض الرجال يتبولون. كانت هناك برك صغيرة من البول في كل مكان وقطع من البراز متناثرة حول المكان. وكأنها الجنة بالنسبة لي في هذا الوقت. بدأت في التبول ونظرت إلى يميني فرأيت الحافلة تفعل ما تستطيع حتى تتجنب قطيع من البقر لدى عودتها لحركة المرور. كان "كيفين" يركض في ممر الحافلة ذهابا وإيابا ليلفت نظر السائق والمحصل، كان يشير إلي ثم إلى أمتعتي ويبذل ما في وسعه ليشير إلى أني مازلت آمل في أن أكون أحد الركاب. رأيت صفًا من الوجوه الجالسة في الحافلة تعلوها نظرة مستمتعة بالمشهد.

كنت أحتاج إلى ما يشبه قوة إرادة خرافية حتى أتمكن من إيقاف التبول في منتصفه والركود نحو الأوتوبيس ومن غلق سوستة سروالي في نفس الوقت. حمدًا لله على وجود قطيع البقر، لولاه لما تمكنت من اللحاق بالحافلة. عندما صعدت مرة أخرى، لم يلق السائق نظرة نحوي للتعرف على، إنما إستمر في السير لتقاطع آخر.

كان "كيفين" غاضبًا للغاية قال لي: "إياك أن تفعل هذا مرة أخرى، الناس هنا يعتقدون أني مجنون. هذا الرَجل لن يتحدث معي مرة أخرى." وأشار إلى "السادهو". كان ذلك صحيحًا فقد بدى السادهو متأملا.

كنت بائسًا. كاد ظهري يقتلني، وكانت مؤخرتي وكأن جلدي قد سلخ، ومثانتي كانت لا تزال على وشك الإنفجار. جلست مرة أخرى، أحاول أن أتجاهل نظرات السخرية التي يلقيها علي من في الحافلة. كنت أريد أن أقول لهم: "لماذا لا تركزون اهتمامكم على ماعزتكم اللعينة"

فكرة حزينة جدًا طافت بخيالي. كنت قد قرأت كثيرًا عن طبيعة المنفى قبل قدومي إلى الهند. تخيلت نفسي واحدًا ممن حكم عليهم بالعيش في أرض ليست بأرضهم، مثل "إدوارد سعيد" الفلسطيني الذي عاش في نيويورك سيتي. قضيت ساعات أفكر في مفهوم "الوطن"، كنت معجبًا كثيرًا بمقولة "روبرت فروست" الشهيرة: "الوطن هو المكان الذي عندما تضطر للذهاب إليه، يجب عليهم أن يستقبلونك." لكنني الآن لدي ما أضيفه لهذه المقولة: إن لم تستطع أن تقول

لسائق الحافلة أن عليه أن يتوقف حتى تستطيع أن تتبول، فإن الأرض التي أنت عليها ليست أرضك.

كانت لدي جوانب أعمق تسبب عدم الارتياح في الهند. بداية، فكرة الخدم ذاتها، ثلاثة منهم كانوا في خدمة جدتي. كانوا ينامون على مراتب نحيلة في غرفة المعيشة وفي المطبخ؛ ويركضون إليها عندما ترن الجرس في غرفة نومها؛ يكنسون الأرضيات وينظفون الحمامات يغسلون الأطباق والملابس؛ يطبخون ويخدمون ويرفعون المائدة. قال لي سليم عندما أتي للغذاء في يوم من الأيام، "ماما(جدتنا) تعيش ببساطة شديدة."

سألته "ماذا تقول؟". "إن لديها ثلاثة يخدمونها. من يحتاج بحق الجحيم إلى ثلاثة لخدمته؟"

"ليست لديك أي فكرة كيف يعيش الأغنياء في هذا البلد. لديهم ثلاثة من الخدم لكل غرفة، لكل وظيفة في البيت. لديهم من الخدم ما يظهرون به مكانتهم، ويعاملونهم وكأنهم ليسوا بشرًا. هؤلاء الثلاثة ليسوا مجرد خدم." كان هذا رده وهو يشير إلى "أمين باي" و"ناصر بهاي" و"جلشان"، "هم تقريبًا جزء من العائلة. قد أنقذت ماما حياتهم."

أومأت برأسي فقط. كل ما استطعت أن أراه هو ثلاثة أشخاص يخدمون شخصًا واحدًا فقط، ولم أستطع التعود على ذلك.. في كل صباح بعد الصلاة يحضر الخادمون الطاولة ويجلبوا لنا أكواب من شاي المسالا وأطباق من البيض المقلي والعيش التوست المقرمش وبعد وجبة الإفطار، كنت أقوم أنا و"كيفين" برفع أطباقنا وأكوابنا فى محاولة لوضعها في المطبخ. "لا، لا، لا،" هذا ما كان يقوله لنا "جلشان"، أصغر الخادمين وأكثرهم تعلمًا، كان يستطيع قراءة الإنجليزية والتحدث بها. وكان يضيف: "التنظيف مهمتنا نحن. استريحوا أنتم."

لم يستعمل الخدم أبدًا الحمامات التي نستخدمها نحن. لم يشربوا الشاي من نفس الأكواب. بعد أن ننهي وجباتنا كنت أسير بجوار المطبخ وأرى ثلاثتهم جالسين على الأرض يتناولون وجبتهم. لم يسعني إلا أن أتذكر قصيدة "لانجستن هيوز" "أنا أيضًا أغني لأمريكا،" وكان في هذه القصيدة يتخيل يومًا لا يطرد فيه العبد في الدار إلى المطبخ ليأكل، ولكن يجلس على الطاولة مع الجميع، كان هذا المشهد يجعلني أشعر بالاشمئزاز من عدم المساواة الصارخ.

عندما ذهبنا أنا و"كيفين" إلى البيت الذي كانت تملكه ماما في"نارجول"، وهي قرية

صغيرة في "جوجارات"، ظهر فجأة شخصان إضافيان ليأخذانا إلى هناك. قالت لي "سيقومان بالطهي والتنظيف لكما في نارجول."

عندما وصلنا إلى محطة القطار أعطونا أنا و"كيفين" تذكرتين في الدرجة الأولى واشارا إلى أنهما سوف يلتقيان بنا في نهاية الرحلة. بعد ذلك أخذت الامرئتين العجوزتين أمتعتنا واتجهنا إلى مكان بالدرجة الثالثة. شعرت كأني مالك لعبيد وأنا أراهم ذاهبون، لكني لم أكن أتمكن من منعهم.

عندما وصلنا الى "نارجول"، أصبحت الخادمتان شعلة من النشاط، إحداهما بدأت بترتيب الأسرة وتنظيف الأرضيات، بينما الأخرى كانت تعد لنا وليمة في المطبخ. في هذه الليلة، استيقظت من النوم للذهاب إلى دورة المياه واكتشفت أن مكان نوم الخادمتين كان في طريقي، حاولت أن أسير على أطراف أصابعي لكي لا أسبب لهن إزعاجا ولكن قدمي اصطدمت بشيء وتعثرت. سمعت صراخ وشعرت بيد تمسك بقدمي، أضاء أحدهم الأنوار ثم بدأنا نضحك معًا. كانت الخادمتان نائمتين على الأرض وقد تعثرت بهما. أومأت برأسي إلى الخلف والأمام، وهي حركة هندية تعبر عن الود، ذهبت إلى دورة المياه ثم رجعت إلى غرفتي. لكن قبل أن أنام طاف بذهني شيئ: كان هناك سرير لا يستخدمه أحد في الغرفة المجاورة لهما. لم ينم أحد من الخدم فيه. لقد إختارا أن يناما على الأرض بجوار سرير خالي. لم يدركا أن لديهم إمكانية النوم علي سرير. مقولة جلشان التي كان يقولها عندما نأخذ أنا وكيفين أطباقنا إلى المطبخ أتت إلى بالي، "التنظيف مهمتنا نحن."

كل تعامل في الهند بمثابة درس في تكوينها الطبقي. فبينما كنت آكل برجر ماسالا النباتي في مقهى "رويال" بالقرب من دار "سينما ريجال" في بومباي، سألت "سليم" من أين يأتي طالب جامعي مثله بمصروفاته. كانت إجابته: "والداي يعطياني إياها."

"ألا تفعل ذلك أبدا؟" كنت أوجه سؤالي هذا له وأنا أشير إلى الشباب الذين يرتدون قمصانًا بيضاء ويقدمون الأغذية ويرفعونها من على الموائد.

كاد سليم أن يختنق وهو يتناول ساندويتش قال لي، "ما هذا الجنون يا سيدي، لا أحد ممن أعرفهم يعمل كنادل. عدد قليل جدًا ممن أعرفهم من الجامعة لديهم وظيفة. كلهم يأخذون مصروفهم من والديهم. هؤلاء الناس ينتمون لطبقة أخرى." قال هذا وهو يشير ناحية النادلين ثم أخذ قطمة أخرى من طعامه.

لم يسعني إلا أن أفكر في أن كل من عرفتهم في أمريكا كانوا يخدمون على الموائد أو كانت لديهم وظيفة أخرى أثناء دراستهم الثانوية أو الجامعية، ولكن الطبقات الاجتماعية كانت تعمل بشكل مختلف في الهند. كان العمال تنقصهم الكرامة. تذكرت ابن عمي الذي يكبرني "أفتاب" الذي ترك الهند ورحل إلى أمريكا منذ بضعة سنين. في الهند كان من النوع الذي يحضر الحفلات ويلعب دائمًا البلياردو ويتجول في أنحاء بومباي بدراجته النارية. لم يكن يهتم قط بالتعليم. عندما وصل إلى أمريكا عمل كعامل لإبادة للحشرات وعمل لساعات إضافية لمدة سنتين. ثم افتتح متجرًا مع شريك. وبعد سنة اشترى نصيب شريكه وبدأ النظر في فرصة أخرى لفتح مشروع محطات بنزين. وأصبح الآن يملك أربع محطات في "ويست بالم بيتش" في ولاية فلوريدا. في الهند لم يكن ليحدث له شئ من هذه الأشياء، لأنه لم يكن ليقوم أبدًا بعمل يدوي كعامل من الأصل. أصبح "أفتاب" يوظف المهاجرين الجدد ويعطي الموظفين المتميزين نصيبًا من ربح المشروع، مما يعطيهم الفرصة ليصعدوا سلم النجاح كما فعل هو.

إن حيرتي أمام الفروق بين طبقة الخدم والطبقة المتوسطة العليا أوضحت جوهريًا وجهة النظر الأمريكية. الوضع الاجتماعي أكثر مرونة في أمريكا، على الأقل على النطاق الواسع للسكان ممن يمكن تصنيفهم على أنهم الطبقة المتوسطة. أنا أعمل كنادل ثم بعد أن أنتهي من عملي أذهب وأجلس في مكان آخر حيث يخدمني شخص يعمل كنادل في هذا المكان. حتى وإن حصلت على شهادة جامعية وحصلت على راتب مكون من ستة أرقام، لن أعامل النادل على أنه شخص لابد وأن يبقي ضمن طبقة أدنى. أنا كنت مثله وأعلم جيدًا المشاعر. ومن يعلم عندما يحصل شخص يخدمني في هذا المطعم على شهادته قد يصبح رئيسي في العمل. والأفضل أن أبدي له الود.

في الهند بات طابعي الأمريكي واضحًا أمامي. ليس طابع أمريكي صاحب الشاشات الكبيرة للتلفاز والسيارات ماركة "هامر"، لكن أمريكا التي بالرغم من فشلها المتكرر نجحت في غرس المبادئ الإنسانية في مواطنيها مثل، كرامة العمالة والمساواة الأساسية بين البشر، القدرة على الحراك بناء على الحماس والموهبة، والفرصة للإبداع والمشاركة.

ذكر لي شخص في يوم ما أن أكثر التحليلات تعمقـًا للعلاقة بين الهوية والوطن نجدها في كتابات "جيمس بالدوين". كنت قد اصطحبت معي بضعة كتب له إلى الهند، حرصًا مني

على البحث عن خطة لنفسي من خلال كتاباته. وفي الجامعة كنت أبحث عن كتب السود من أجل إشعال الحماس. كنت أتفهم غضبهم وشعورهم بالإقصاء وكنت قد رسمت بعناية هوية المعارضة بناء على نموذجهم. كان" بالدوين" قد سار على نفس النهج، وقد أثر فيه غضبه بشكل كبير حتى أنه ترك أمريكا وذهب إلى أوروبا هاربًا من مهانة مقاهي الفصل العنصري ووحشية ضباط الشرطة في حي "هارلم".لكنه إكتشف أن أوروبا غريبة عنه. عندما تم القبض عليه في باريس بسبب الظن الخاطئ أنه سارق ووضع في سجن فرنسي، كانت لديه رغبة مريضة في إختبار عذاب سجون "هارلم"، على الأقل كان يستطيع فهم التعبيرات التي يراها على وجوه الضباط. عندما قابل أشخاص من شمال أفريقيا في شوارع باريس، أيقن أنهم ليسوا إخوته ولكن مثلهم مثل الباريسيين البيض. لم يشاركوه إحساسه بالإقصاء، أو غضبه، أو رغبته الشديدة في أن يشعر بالقبول. أمهاتهم غنت لهم أغاني مختلفة. فهم "بالدوين" كل الأطياف الأمريكية، المثقفين السود والريفيين البيض. سار خلف منطق هذا التحليل وتيقن من أنه على الرغم من جرائم أمريكا تجاه أسلافه إلا أنه لم يجد له وطنا غيرها. "بالدوين" مثله مثل "مارتين لوثر كينج" الابن و"لانجستون هيوز" جعلوا من هذه الحقيقة المفاجئة فرصة: بدأ برؤية نفسه كمواطن أمريكي له دور في نجاح أمريكا. كتب "بالدوين": "أنا لست جزءًا من أمريكا؛ أنا من أوائل الأمريكيين الذين وصلوا إلى هذه الأراضي،" وبدأ في إستيعاب أن خبرة السود في أمريكا قد أعطتهم "وضعًا خاصًا" – وضعًا أعطى لأمريكا ما لها من سمات خاصة فريدة، أي موسيقى البلوز والجاز، وبعضًا من أهم أبطالها، أمثال "فريدريك دوجلاس" و"هارييت تابمان"، رغم أنه قد تم منع السود من أن يصبحوا جزءًا من نسيج المجتمع الأمريكي إلا أنهم إستطاعوا أن يكون لهم تأثير قوي على المعتقدات الأمريكية التقليدية.

فكرة أمريكا كانت تستحق النضال من أجلها، اقتنع "بالدوين" برأيه بعد تجربة التعامل مع شخصية معارضة ذات طابع متطرف. تمت دعوته إلى منزل "إليجا محمد" زعيم حركة "أمة الإسلام". و"الأمة" كما وصفها "بالدوين" لم تكن مثل المنظمات السوداء الغاضبة الأخرى في "هارلم". لم يكن الضباط البيض يواجهون مسيرات "الأمة" بغلظة، وقفوا في تشكيلات على مسافة آمنة، وبوجوه رزينة، بينما دعاة "الأمة" يتكلمون عن الشيطان ذى العين الزرقاء وخوفهم من القوة والإنضباط الواضحين أمامهم مما يمنعهم من ممارسة العنف الذي إعتادوا

عليه. أيديولوجية "إليجا محمد" كانت بالتأكيد مشوهة، ولكن ما أبهر "بالدوين" هو مقدار الولاء الذي اجتذبته. إضافة إلى ذلك كان يقززه أن البيض رفضوا رؤية السبب لهذا، وبعد قرون من العبودية والقهر، ظل الأمريكيون البيض لا يستطيعون تخيل مقدار الغضب الذي اشتعل في نفوس السود. وهذا الغضب كان بداخل "بالدوين" كذلك. وافق على دعوة "إليجا محمد" للعشاء لكي يحدد إذا كان غضبهم كماهو.

كان العشاء ملكيًا، ملأ أعضاء الأمة من السود الأشداء الغرفة، والنساء منفصلات عن الرجال، كان في وجود "إليجا محمد" قوة طاغية. وجه كلامه إلى "بالدوين" قائلا أنه قد حان الوقت لكي يتخلص من غسيل المخ الذي يعيش به ويعود لذاته الحقيقية. تلي ذلك مجموعة من الوصايا البطيئة النافذة، وبعد كل منها تتبعه جوقة من أعضاء الأمة الذين يحيطون به قائلين "نعم، هذا صحيح"، ثم أتت بعدها الإدانات للبيض وللمسيحيين وللتزاوج المختلط، وللمطاعم التي تقدم الكحول ويختلط فيها السود بالبيض، وتأتي بعد كل منها بطانة "نعم، هذا صحيح". أي تواصل مع العدو هو بمثابة نكران للذات السوداء الحقيقية. ثم شرح "إليجا محمد" رؤية مبنية على أساس هذه الأيديولوجية: العثور على الأرض لبناء مجتمع للسود باقتصاد حجمه عشرين مليار دولار. أو بعبارة آخرى، الإنفصال التام.

كانت "الأمة" تتحول سريعًا إلى حركة جماهيرية لها مجموعة اتباع من أصحاب الإيمان العميق بها، إذا كان"إليجا محمد" قد شرع في اتخاذ خطوة جادة نحو هذا الهدف، لقفزت عشرات الآلاف معه من فوق الصخرة.

فهم "بالدوين" أن هذا كان رد فعل "إليجا محمد" للعنصرية التي عانى منها، إلا أن خطته كانت كارثة على وشك الوقوع، ليس فقط لأنه من المستحيل فصل أشخاص مرتبطين إرتباطًا اقتصاديًا وثيقًا ولكن أيضًا لأن الخطة قد خالفت مبدأ دينيًا: "إنا خلقناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا"، إن ذنب أمريكا لم يكن فقط التفاوت الصارخ الذي عومل به العنصر الأسود ولكن أيضًا ما صنعته من حواجز بين الناس. إلا أنه بالرغم من ذلك، كان بالدوين يشعر أنه ما زال يتيح الأمل لإنقاذ أمريكا لكي تصبح وطنًا يضم جميع الأطياف. في نهاية كتاب 'النار المرة القادمة' كتب بالدوين، "إن لم نصر نحن، البيض والسود الواعين، ونعمل على توعية الآخرين، إن لم نتكاسل عن مهمتنا، قد نستطيع، رغم عددنا القليل، أن ننهي الكابوس العنصري ونحقق وطنًا لنا، ونغير تاريخ العالم."

في الجامعة، كنت قد فهمت الهوية على أنها صندوق أحبس نفسي داخله، ومضرب أضرب به أمريكا. كانت تغريني فكرة أننا ننتمي إلى عشيرة بناء على الهوية التي ولدنا بها، وأن ولاءنا يبقى مقصورًا على هذه العشيرة، وأنه في يوم ما سوف تتفوق عشيرتي من أصحاب البشرة الداكنة ومن العالم الثالث على من يقهروننا من البيض. كان من الممكن أن أكون مرشحًا للإنضمام إلى مجتمع "إليجا محمد" الانفصالي. لكن هاهو "جيمس بالدوين" - الذي عانى أجداده من العبودية، والذي يعرف عن عنصرية البيض الوحشية أكثر مما كنت أستطيع أن أتخيل - يقول أن الحب بين الأشخاص أصحاب الهويات المختلفة ليس فقط ممكنًا بل هو ضروري، وأنه من واجبنا الإصرار عليه. هاهو شخص أسود يطارد خارج المطاعم بسبب أنه كانت لديه الجرأة لكي يطلب فنجان قهوة من منفذ المقهى، رافضًا الفصل العنصري على أمل الوصول إلى التعددية، مجتمع يعمل فيه أشخاص من خلفيات مختلفة سويًا، يحمون بعضهم بعضًا، ويأملون في تحقيق شيء ذي قيمة لصالح الجميع. هاهو شخص يرى الهوية على أنها جسر يتيح التعددية.

كتب "ريتشارد رودريجز" يومًا أن" توماس جيفرسون" المنتمي إلى التيار الديمقراطي كان يحتفظ بالعبيد، وكان "توماس جيفرسون" الذي يحتفظ بالعبيد ديمقراطيًا. وقد جسدت أمريكا هذه المتناقضات الصادمة. في الجامعة كنت أرى أن كشف الجانب المظلم من أمريكا هو مسئوليتي. لكن التركيز الشديد في هذا الاتجاه كان يشكل خطر ألا أرى سوى ظلال القصة الأمريكية، والأسوأ هو الاقتناع بأنه لا يوجد في مستقبلها سوى الظلام. كان بالدوين يقول أن هذا تخلٍ عن المسئولية. وتيقنت أنه بسبب عيوب أمريكا الواضحة كان يجب عليَّ أن أشارك في تقدمها وأحفر مكانًا في مستقبلها ووعودها، وأؤدي دورًا في إمكانياتها ففي قلبها وفي أفضل حالاتها كانت أمريكا ممثل التعددية.

بشكل غريب، ساعدتني كتابات بالدوين عن أمريكا على فهم علاقتي بالهند، أعفيت الهند من عبئ أن تكون ملاذي، وأعفيت نفسي من مسئولية أن أكون غاندي المستنسخ. أعطاني تراثي كهندي في أمريكا علاقة خاصة بالبلد الذي حملت جنسيته. لماذا لم تستطع جنسيتي الأمريكية أن تمدني بطريقة فريدة للتعلق بأرض ميراثي؟

بدأت عيناي تتأقلم. بدأت مشاهد الشوارع التي كانت لا تبدو لي سوى دربًا من الجنون منذ إسبوعين تظهر بشكل أوضح. لم تكن مجرد فوضى عشوائية تحدث في"كولابا كوزواي"

وهو الشارع الذي يصل بين شقة جدتي وبين "تاج هوتيل" الشهير. كأن آلاف الاستعراضات تدور في نفس الوقت وأحيانًا يصطدم الواحد بالآخر. كان هناك كرنفال الباعة: منظفات الأذن، "بان والاس"، باعة السجائر الفرط، حلاقوا الشارع، باعة الكتب على الأرصفة. كان هناك أيضًا كرنفال المأكولات: صبية صغار يرتدون ثيابًا بالية يحملون الشاي الهندي (تشا) وإفطار بسيط (تيفينس) من مبنى إداري إلى الآخر، بالإضافة إلى الحلويات المكدسة في نوافذ العرض، وطلاب الجامعات يصطفون أمام المحال المؤقتة لبيع "الدوسة "(كريب هندي مخمر)، ونساء "الكحلي" يحملن سلال السمك فوق رؤسهن، ويرفعن أصواتهن بالنداء "ماتشي! ماتشي!"، وهي كلمة لمخاطبة الأصدقاء في الهند. هناك أيضًا كرنفال الموضة: شباب على الدراجات النارية، يلبسون جينز يتسع عند القدم وقمصان قطنية فضفاضة، نساء يرتدين ألوانًا زاهية تجمع بين الهند وأمريكا، محال تعلن عن ملابس الزفاف وأخرى تعرض الحلي المناسبة لها. هناك كرنفالات لمحبي الخلسة ولعائلات الأرصفة، وللأطفال المتسولين. وعلى الرغم من اليأس المنتشر في معظم أوجه الحياة في بومباي، كانت السعادة تبدو على معظم الناس. قد تراهم يشربون الشاي في المقاهي ويلعبون الورق على الأرصفة، أو يمارسون مقايضات هزلية في الأسواق، يرتفع مزاجهم في أيام الإجازات، ويرقصون على الموسيقى الهندية، ويحلمون بأن يصبحوا نجومًا سينمائيين.

كنت قد تعلمت ما يكفيني من اللغة لكي أتمكن من لهجة عامية تجمع ما بين الهندية والإنجليزية والإشارة باليد، أي ما يكفي لوصولي إلى حيث أريد الذهاب في معظم الأوقات. كنا كيفين وأنا قد أقنعنا الخدم بتعليمنا كيفية صنع "تشاباتيس" (عيش مسطح)، وهذا كان يعني أنهم أصبحوا لا يرونا كمجرد أسيادهم. كانت دعوة بعيدة كل البعد عن أن نكون متساوين، لكنها كانت مريحة لعقليتنا الأمريكية. كنا نستمتع بوقتنا مع سليم وزُهرة، أولاد عمي وهما أصغر منا سنًا بفارق بسيط. كان أساتذة كليتهم في الجامعة قد بدأوا إضرابًا امتد في فترة وجودنا أنا وكيفين في بومباي، فأصبحا هم وأصدقائهم يشكلون مجموعتنا الاجتماعية.

كنا نقرأ كل يوم لساعات. قرأنا مجموعة من الأدب الهندي: كتب غير روائية للكاتب "نايبول" وكتب روائية من تأليف رشدي، وخطب "فيفكانادا" وقصائد "لاغور"، تاريخ الهند الذي كتبه نهرو، وعدة سير ذاتية عن غاندي. وبسبب مقابلتنا مع صاحب القداسة، قرأنا كل ما

وصلت إليه أيدينا عن التبت والدالاي لاما والبوذية. قسمنا أوقاتنا بين الكرنفالات الهندية في الخارج، وبين فكرة الهند في الداخل. وكلما انغمست في الحضارة الهندية، كلما تعرفت على الخطوط العريضة الخافتة لشخصيتي في مرآة الهند الواسعة.

وجدت نفسي أرفض التشاؤم البارد المتشدد الذي كان يشعر به "نايبول" تجاه الهند، إحساسه أنها ليست إلا ملايين من حركات التمرد ومساحة من الظلام. بطريقة أو بأخرى، في وسط فقرها وقذارتها، كانت الهند ترقص. بدى لي"نيباول" وكأنه غير قادر على رؤية المرح على أنه أي شيء سوي نوع من المخدر. ربما لم يكن لديه إيقاع.

كنت أنجذب إلى الأمل الذي يعبر عنه كتاب هنود أخرون، أنجذب لرؤاهم لما يمكن أن يكون عليه حال الهند وما تستحق أن يكون عليه حالها. كنت أعشق قدرتهم على نسج عالم من النصوص الدينية القديمة والحياة القروية والإمبراطورية المغولية لتصبح ثوبًا من الإمكانيات. هنا كان بطل رواية "أطفال منتصف الليل" لرشدي، "سليم سيناء" الذي يستضيف مؤتمرًا للأطفال الذين ولدوا في فترة تحرير الهند – الهندوس والمسلمون والسيخ؛ أولاد المتسولين وبنات رجال الأعمال الناجحين – كل منهن متمسكة بما تراه الهوية الحقيقية لوطنها. وكانت مهمة "شيفا" الذي يمثل الشر في هذه القصة هي تدمير الحوار بينهم.

في الواقع أن الفكرة العامة التي سرت خلال هذه الرؤى المتفائلة كانت أن الهند كحضارة، فيها مجتمعات متنوعة يدور فيما بينها حوار عميق. واستطاع الإمبراطور "أشوكا" منذ أكثر من ألفي عام، أن ينشر البوذية وأن يشجع أيضًا الحوار بين الأديان، قال "الطوائف الأخرى لديها الحق أن تكرم على النحو الواجب بشتى الطرق في جميع المناسبات." وفي القرن السادس عشر دعا الإمبراطور المسلم،" أكبر" القادة والعلماء من مختلف الديانات الموجودة في الهند للمناقشة سويًا في جلسته. هذه المشاهد تم تصويرها في لوحات، وهي التي أصبحت من سمات الفن الهندي. لمدة قرون، وجدت المجتمعات الدينية المضطهدة – البارسيين، البوذيين التبتيين، اليهود، والبهائيين – أبواب الهند مفتوحة أمامهم. كتب الشاعر العظيم "روبندرونات طاغور" المعاصر لغاندي أن "فكرة الهند" في ذاتها تناضل "ضد الوعي الشديد بانفصال شعبه عن الآخرين."

حلم الهند هو حلم التعددية، فكرة المجتمعات المختلفة التي تحافظ على انفرادها وفي نفس الوقت

ترتبط بطريق يعترف بمشاركتها للقيم العامة. إنه حلم عرفته من قراءتي لكتابات "جيمس بالدوين". إنه أيضًا الحلم الأمريكي، ومثلما أخطأت أمريكا تجاه حلمها بالاستعباد والعنصرية، حنثت الهند بوعدها بالقومية الدينية.

كان إثمًا عرفته عائلتي جيدًا. ففي يناير عام 1993، نظم القومي الهندي "شيف سينا" مجموعات من بلطجية "saffron clad " لإرهاب السكان المسلمين في بومباي. شاهد ابن عمي سليم إحدى هذه المجموعات المسلحة بالمناجل وهي تخلع سروال طفل صغير عنه. التفت سليم وركض بأقصى سرعته لكنه سمع الصرخة. قد عرف عن جرائم القتل هذه من قصص أهله. اللصوص الذين يتبعون "شيف سينا" كانوا يمشون في الشوارع ويهتفون بشعارات القومية الهندية، يحاصرون الأطفال ويخلعون سراويلهم، إن كانوا مختونون كان ذلك يعني أنهم مسلمون، وهذا يعني قتلهم.

بالنسبة لأبوي سليم، عمتي وعمي، كانت هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير. حبسوا أنفسهم في شققهم ونزعوا اللوحات التي تحمل أسمائهم وتشير إلى أنهم مسلمون من على صناديق البريد حتى لا تعرف الغوغاء المتجولة من الذي يسكن في هذا المكان. عاشوا هكذا لأسابيع عدة، لا يذهبون لعمل أو مدرسة، يخافون على حياتهم، خائفون من مدينتهم.

في عام 1998، وهي السنة التي عدت فيها إلى الهند، فاز في الانتخابات الوطنية حزب "بهاراتيا جاناتا"، وهو حزب هندوسي قومي في الهند. كان قد حصل على موجة من الدعم من مجموعة هندية معينة بقولهم أنه منذ بضعة قرون، قام إمبراطور مسلم بتدمير معبد هندوسي وزعموا أنه كان مكان مولد إله هندوسي، وأن الإمبراطور بنى مسجدًا فوق أنقاضه. وقام القائد الثاني في حزب "بهاراتيا جاناتا" بحملة لتدمير المسجد. وهي حركة رأها الكثير من الهندوس في الهند على أنها خطوة وطنية ومخلصة وأدق تجسيدًا للقومية الدينية.

أتذكر أن إحدى عماتي كانت مستاءة وقلقة من الانتخابات قالت: "هذا شيء سيء للمسلمين؛ سيء للهندوس؛ سيء للهند." لا اعتقد أنها كانت حتى تدرك كم هو سيء. في ظل حكم حزب "بهاراتيا جاناتا"، فجرت الهند قنبلة نووية سميت "القنبلة الهندوسية." أتبعتها باكستان بتجربتها النووية، اشتعلت حدة التوترات بين البلدين الذين خاضا ثلاثة حروب في النصف قرن الماضي. هذا جعل الحياة أصعب بالنسبة للمسلمين في الهند. على الرغم من أن

الهند فيها حوالي نفس عدد المسلمين في باكستان - ١٣٠ مليون- إلا أن الخطاب السياسي القومي الهندي الصادر عن الحكومة لطالما شكك في ولائهم للوطن.

بدأ حلفاء حزب "بهاراتيا جاناتا" يدخلون القومية الهندوسية في نسيج حياة الهند. غيروا الكتب المدرسية لتعليم خط القومية الهندوسية. وأصبح المسلمون يجدون صعوبة أكبر في الحصول على بعض الوظائف. وأصبحت بعض قوات الشرطة التي يسيطر على بعضها عناصر من حزب "بهاراتيا جاناتا" أكثر وقاحة في عنفهم تجاه المسلمين وبعد بضعة سنوات، في عام ٢٠٠٢، بدأت مجموعة هندوسية قومية في "غوجارات"، وهي ولاية يحكمها حليف قوي لحزب "بهاراتيا جاناتا"، سلسلة من جرائم قتل أودت بحياة حوالي ألفيين من المسلمين. في بعض الأماكن كانت الشرطة تقف جانبًا وهى تشاهد المذابح. وفي أخرى كانت تساعد وتحرض على القتل. لم يحاكم أحد تقريبًا.. محافظ هذه المنطقة،" ناريندرا مودي"، فاز في حملته الانتخابيه مرة أخرى في وقت لاحق من نفس العام.

لطالما أصر غاندي، الهندوسي العقيدة، على أن الوحدة بين الهندوس والمسلمين لا تقل أهمية بالنسبة له عن حرية الهند. كان قاتله عضوًا في منظمة قومية هندوسية "راشتريا سوايامسيفاك سانج". وفي غمار الغضب والحزن الشديدين عقب اغتيال أبو الأمة وقائد حلمها بالحرية والتعددية، أصبح الهندوسيون القوميون يعملون في الخفاء. لكنهم عادوا للانتقام في التسعينات من القرن الماضي، إلا أنهم أصبحوا لا يستهدفون المسلمين وحدهم، بل يستهدفون فكرة الهند ذاتها.

واحد من أعظم الأوقات في تاريخ الهند الحديث كان منح اللجوء للدالاي لاما عندما أجبر على الهروب بسبب الاحتلال الصيني لمسقط رأسه التبت. كانت البوذية قد تأسست في الهند، إلا أنها تلاشت تقريبًا على مر القرون. وقد أعادها الدالاي لاما. فقد أسس حكومته في المنفى في "دارامسالا" وهي مدينة صغيرة على تلال جبال "الهيمالايا" جذبت مجموعة منتقلة من رهبان التبت والباحثين الغربيين الصغار. كان هذا هو المكان الذي سافرت إليه أنا وكيفين لكي نلتقي بصاحب القداسة.

ماذا تقول للدالاي لاما عندما تكون في حضرته؟ هذا سؤال يجدر بكتابات "الزن". تقابلنا مع صاحب القداسة أنا وكيفين في غرفة الزيارة في قصره الصغير. قدم لنا الأوشحة

البيضاء التبتية التقليدية، وقال أنه قد سمع عنا من القس "واين". مضينا لحظة نحدق في حضوره بـأعيننا.

كان صاحب القداسة في مزاج جيد. مد يده ولمس بسبابته سلسلة كان يضعها "كيفين" حول عنقه، كانت عقدا من الخرز وفي آخره وعاء صغير، حصل عليها كهدية من زوجين من الأمريكيين الأصليين في مؤتمر مبادرة اتحاد الاديان. "الفراغ.. إنها تعجبني."، كان هذا تعليق "دلاي لاما" مع ضحكة خفيفة.

قال كيفين، "أمضيت سنين عدة في دراسة فكرة الفراغ في البوذية وفي النهاية، وصل بي المطاف إلى فكرة مماثلة في اليهودية - فكرة "آيين"، وهي تعني أن الرب كان مجمل الخلق، وأن العالم الذي نعرفه بدأ عندما قلص الرب نفسه وهذا التقلص أحدث انكسارات للضوء في كل أنحاء العالم، ونحن البشر حملة هذا الضوء."

أصغى "دلاي لاما" باهتمام إلى كلام "كيفين" ثم أومأ وقال، "نعم، هذا مفهوم روحاني للغاية. أنت يهودي؟

أجاب "كيفين" "نعم."، أخيرًا شعر بـالارتياح لتبنيه هذه الهوية. لم يتوقف عن ممارسة التأمل البوذي والقراءة في الأديان الأخرى، لكن الأمر كان واضحًا أن جذوره يهودية. بـشكل ما، ومقولة القس "واين "- لابد أن يكون الهدف الأساسي من القراءة في الأديان الأخرى هو تقوية فهمنا لديننا – قد أثرت بـشكل كبير في "كيفين"، كنت أرى "كيفين" يستغرق أكثر فأكثر في قراءة كتاب عن اليهودية. كان دائمًا يكلمني عن الروحانية اليهودية ولاهوت العدالة الاجتماعية، ويقارن بين الأفكار اليهودية وأفكار الأديان الأخرى. كانت هذه المناقشات دائمًا ما تنتهي بـتهجم لاذع من قبله تجاه المدرسة اليهودية الذي تعلم فيها عندما كان صغيرًا: "لماذا لم يعلمنا الحاخام هذه الأشياء؟ كل ما تكلم عنه كان الطقوس وأن اليهود هم الشعب المختار، ولم يحدثنا أبدًا عن العدالة الاجتماعية في اليهودية."

بدت السعادة على الدالاي لاما في رده، "إن اليهودية دين جيد جدًا، كثير من أصدقائي يهود، يوجد بيننا تحاور جيد بين الأديان وأتعلم منهم الكثير. إن اليهودية والبوذية متشابهان جدًا. يجب عليك أن تتعلم أكثر عن العقيدتين وتصبح يهوديًا أفضل." لم أر "كيفين" في حياتي أسعد مما كان في هذه اللحظة. مد "الدالاي لاما" يده مرة أخرى ولمس الخرز الملتف حول عنق "كيفين" ثم

فرك رأسه وضحك.

حينئذ ألتفت إلي. وبدأت أشعر بشيء من التوتر، كنت أعلم ما هو آت. كان "الدالاي لاما"على وشك أن يسألني عن ديني. إنه على التو قد أوصى "كيفين" بالتعمق في هويته اليهودية. لكن لسبب ما لم أتصور أنه سوف يعجب بقصتي الخاصة بمحاولة اتخاذ البوذية دينًا. وبالرغم من محاولاتي، إلا أنني لم استطع أن ألم بأطرافها. كان عندي سر صغير لم أشارك حتى "كيفين" فيه كنت فاشلاً تمامًا في "التأمل البوذي". كانت النسخة التي نتبعها منه أن نجلس القرفصاء وأن نركز بهدوء على الفراغ. كلما كنت أضع رجلي في الوضع الصحيح وظهري في وضع مستقيم وآخذ النفس الأول، كانت فكرة ما تأتي في ذهني. كنت أحاول إخراجها، لكن في منتصف النفس الثاني كانت تأتي فكرة أخرى. كنت أقضي كل وقت التأمل في محاولات لطرد الأفكار من رأسي، والشعور بالغضب تجاه نفسي لكوني بوذي رديء.كانت هذه الأفكار هي أكبر أعدائي. كانت نشأتي المادية الغربية تحول دون دخولي إلى فكرى الأصلى.

مع ذلك ففي الأونة الأخيرة، شعرت بالملل من كثرة طرد الأفكار من رأسي، وسمحت لواحدة منها بالبقاء لمدة كافية كي أشعر بحقيقتها. وصدمت صدمة عمري عندما اكتشفت حقيقتها: "يا علي، يا محمد" – كان هذا الابتهال الذي علمتني أمي إياه عندما كنت طفلاً، الابتهال الذي كان الهدف منه هو أن أنام بهدوء والحفاظ على سلامتي طوال الليل. هذا الاكتشاف أذهلني. إنه قد مر وقت طويل جدًا على ترديدي لهذا الابتهال عن قصد، لكنه الآن يمر بذهني، ما زال منسوجًا في كياني. قررت أن أتركه مكانه، حتى وإن لم يتماشى الأمر مع القوانين الذي وضعناها وسميناها التأمل البوذي. كنت أعلم أن نيتي كانت سليمة، حتى وإن لم أكن ماهرًا في تهيئة الفراغ والتركيز فيه.

لكن بعد أن سمعت "الدالاي لاما" و"كيفين" يتحدثان عن اليهودية والبوذية، بدأت بتشكيل نظرية مختلفة بشأن تأملي البوذي. ربما مثلما كانت دراسة "كيفين" للمفاهيم للبوذية تساعده على فهم اليهودية، أرجعتني غزوتي الأولية لعالم التأمل البوذي إلى الابتهال الإسلامي. الإسماعيليون طائفة مسلمة تؤمن بالروحانية وتؤكد على التأمل، وأحد أساليبنا هو تركيز الذهن على كلمة أو جملة من ابتهالات المسلمين. ربما كان التأمل البوذي قد نجح في إستعادة الروحانية الإسلامية من أعماق نفسي إلى السطح. ربما كانت هذه طريقة الله اللطيفة ليقول لي شيئا.

عندما بدأ "الدالاي لاما" الحديث، لم يكن ذلك لطرح سؤال، وإنما لإقرار حقيقة "أنت مسلم." بالتأكيد أن القس "واين" أخبره. أو ربما أن "الدالاي لاما" عرف من أخيه الذي كنا نقيم معه في "دارامسالا". أو ربما، من أين عرف "الدالاي لاما"؟ أعتقد أنهم يعرفون بعض الأشياء التي لا يعرفها الباقون منا.

كرر "الدالاي لاما" :"أنت مسلم"

كان ردي عليه "نعم" ، ثم ابتلعت ريقي. ضحك "الدالاي لاما" ثم قال، "الإسلام دين جيد للغاية. عاش البوذيون والمسلمون في سلام في التبت لقرون عديدة. في البداية كان هناك البوذيون التبت فقط، والآن هناك مسلمون تبت أيضًا. يجب عليك أن تزوروهم."

أمضيت أنا و" كيفين" بعض الوقت في التحدث عن فريق الشباب للأديان، وأمله في تجميع الشباب من مختلف الأديان لخدمة الغير.

قال "الدالاي لاما" "هذا شيء مهم للغاية،" وأضاف وقد بدت عليه الجدية فجأة: "يجب على الأديان أن تتحاور، لكن الأهم من ذلك هو تجمعهم لخدمة الغير. الخدمة هي الأهم والقيم المشتركة، أن يجدوا القيم المشتركة بين الأديان المختلفة. وبينما تدرس الأديان الأخرى، عليك أن تعرف المزيد عن دينك وتؤمن به أكثر، فريق الشباب لحوار الأديان هذا مشروع جيد للغاية."

ثم استدار قليلا ليواجهني أنا وكيفين معًا. ثم قال "يهودي،" وهو يشير إلى "كيفين"، و"مسلم،" وهو يشير إلي، "بوذيان،" وهو يشير إلى نفسه وإلى سكرتيره. "هذا هو الحوار بين الأديان. الآن يجب علينا أن نخدم الغير. ثم أضاف وهو يشير إلى نفسه وإلى سكرتيره، " ولكنا لسنا صغارًا. هل مازال لدينا الحق في المشاركة؟"

تركنا نغادر ونحن نتضاحك سعداء ومؤمنون .

في كتابه 'اليهودي في اللوتس'، كتب "رودجر كايمنتز" أن الكثير من الشباب يرون الدين على أنه رجل كبير يقول لا. وبالنسبة لي كان الرجل الكبير هذا، امرأة، هي جدتي التي كنت أقيم معها في ذلك الوقت في مدينة بومباي. كانت تأتي إلى أمريكا كل بضعة سنوات وتقيم مع عائلتي، كانت تجلس في غرفة المعيشة منذ منتصف النهار وحتى وقت مبكر من المساء وهي تشاهد أفلام هندية. كنت أتجنبها قدر المستطاع. لكنها كانت تسألني إن لحقت بي قبل أن أصل إلى

السلم الخلفي، "هل تؤدي الصلاة؟". إن استيقظت في وقت مبكر عن الطبيعي ورأتني على طاولة الطعام وقت الإفطار قبل أن أغادر إلى المدرسة، كانت تسألني، "هل تخرج الداسند؟" وهو الصدقة التي يخرجها الاسماعيلي من ماله. كانت تشعر بخيبة الأمل لعدم اتخاذي أي أصدقاء مقربين من الإسماعيليين وأنا في سن المراهقة. وكانت تسألني عندما أتجه للخروج وهي ممسكة بذراعي، "سوف تتزوج إسماعيلية، تمام؟" إني اشعر بالخجل وأنا اعترف بذلك الآن لكني كنت أكره زياراتها وأبذل أقصى جهدي لتجنبها.

نظرتي لها تغيرت جذريًا بعد هذه الزيارة للهند. كانت تمضي معظم أوقاتها في غرفة المعيشة، جالسة على أريكة بسيطة، مرتدية ملابس بيضاء، ممسكة بسبحة في يدها، تجري حباتها بين أصابعها، وهي ترتل باسم الله، – "الله، الله، الله" – مرة تلو الأخرى. كانت تبكي في الصلوات، وكان اسم الرسول يحدث تدفقًا من الحب من أعماق قلبها. حكيت لها عن "الدالاي لاما" وصوتي ممتلئ بالإعجاب. أنا متأكد أنها كانت تتمنى لو أتكلم عن "الآغا خان" بمثل هذا الحماس، لم تقل لي ذلك أبدًا. لكنها طلبت مني أن أقرأ قصصًا عن صاحب القداسة، وكانت تعلق وتقول، "كل القيادات الدينية العظيمة يشابهون بعضهم البعض."

كانت تحب "كيفين" وفي كل صباح عندما كنا نقرأ أنا و" كيفين " في غرفتنا كانت تناديه عبر الشقة: "كيفيين!" وكان يقوم من على مقعده، ويسير بخطوات هادئة في غرفة المعيشة، ويضع رأسه على حجر جدتي، وكانت تداعب رأسه وتهمس بابتهالات عربية، تطلب من الله أن يحافظ عليه من كل سوء ويوفقه إلى الصراط المستقيم. في بداية وصولنا رأت كتب "كيفين" عن اليهودية، وسألته إن كان يهوديًا، فأشار برأسه على أنه يهودي. ردت، "ما شاء الله." ثم التفتت إلي وقالت، "إنه من أهل الكتاب." إشارة إلى الأديان السماوية لأبناء إبراهيم، اليهود والمسيحيين.

في بداية حياتها، بدى الأمر وكأن جدتي لا تستطيع أن تتكلم معي في أي موضوع سوى الإسلام، لكنها الآن بالكاد تتكلم في الموضوع لكن، من خلال اهتمامها باليهودية واستمرار ترتيلها للأذكار، وحبها لكيفين، كنت أشعر بمعني أن أكون مسلما.

جاء أهم درس بطريقة غير متوقعة على الإطلاق. استيقظت في يوم من الأيام لأجد امرأة غريبة في الشقة. كان يبدو عليها الخوف ومشعثة، وكانت تلبس ثوب نوم أبيض ممزق،

يبدو وأن مقاسه أكبر من حجمها، على الأرجح أحد ثياب جدتي. لم يبدو أنها خادمة جديدة أو صديقة للعائلة.

سألت جدتي" من هي"؟

"لا أعرف اسمها الحقيقي. أتى بها مسئول بيت الصلاة إلى هنا. إنه يتم الاعتداء عليها في بيتها من قبل والدها وعمها. سوف نعتني بها حتى نجد مكان آمن لكي نسلمها إليه. سوف نسميها أنيسة."

التفت لكي أنظر إلى أنيسة، كانت تجلس على الأرض وأمامها طبق من الخضروات والأرز. ردت إلي النظرة وكان يبدو عليها ثقة أكبر هذه المرة. كان يبدو أنها تتأقلم على ما حولها.

رجعت إلى جدتي وقلت لها، "ماما، ماذا لو جاء هذان الرجلان المجنونان، والدها وعمها، بحثـًا عنها؟ هل تعتقدي أن الاحتفاظ بهذه المرأة هنا شيء آمن؟ أعني أن أنا و"كيفين" موجودان الآن، لكن عندما نرحل، من سيحميكي إنت والخدم إن هما جاءا؟"

نظرت إلي جدتي بشيء من الشك، وكأنها تريد أن تقول أن أملها ضعيف في حمايتنا لها. ثم قالت، "سوف نتحقق من وراء الباب قبل فتحه والله معنا."

لم أستطع منع نفسي. قلت لها، "ماما، هذا جنون! لا يمكنك أن تأوي امرأة غريبة في بيتك لمدة أسابيع أو شهور. هذه ليست سكة حديد تحت الأرض – (هي شبكة من الطرق السرية كانت يستخدمها العبيد السود في القرن التاسع عشر) . أنت مسنة الآن. هذا خطر عليكي."

أجابت "جنون ..؟ هه" "كم عمرك؟"

"أثنين وعشرين سنة."

"أنا أفعل ذلك منذ خمسة وأربعين سنة. هذا يمثل أكثر من ضعف عدد السنين التي قضيتها أنت على وجه الأرض. هذه قد تكون المرة الخمسون أو الستون أو المائة، التي يلجأ فيها إنسان إلى هنا ليحظى بالأمان." قامت من مكانها وسارت ببطء تجاه خزانة وأخرجت صندوق. ثم قالت لي، "تعالى هنا." رفعت الغطاء، نظرت بداخله ورأيت مجموعة غير مرتبة من الصور تمت بكاميرا "بولارويد". قالت لي، "التقطت صورًا لهن." ثم أخرجت إحدى الصور وقالت لي، "هذه كانت جميلة جدًا. والدها كان مدمن خمور. ماتت والدتها في حادثة

سيارة. كانت تخاف أنه سوف يستغلها في الدعارة لكي يحصل على بعض المال للتعاطي. بعض الأصدقاء قالوا لها عني – أشرف ماجي، كما كانوا يسمونني- وادخرت بعض المال، روبية من هنا وأخرى من هناك من أعمال الحياكة البسيطة، حتى أصبح لديها ما يكفي لثمن تذكرة القطار لمغادرة مدينة أحمد آباد. كان ذلك في منتصف موسم هبوب الرياح. كانت المياه تتساقط منها عندما وصلت إلى الباب. تبلغ بالكاد السابعة عشر من عمرها. خائفة للغاية، وجميلة للغاية. لم تتكلم لمدة أسبوعين. لكنها ببطء عادت إلى حالتها الطبيعية. بعثنا بها إلى مدرسة لكي تحسن من حياكتها، ووجدنا لها زوج جيد. إنها تعيش الآن في مدينة حيدر أباد. أنجبت طفلين وبدأت مشروع خياطة ناجح جدًا."

بدأت جدتي في البحث في باقي الصور البولارويد. كان من بينها امرأة فقيرة لديها ثلاثة أطفال صغار، كانت تسكن في جنوب الهند، وقد سمعت عن جدتي وأتت إليها للمساعدة. امرأة من مدينة كالكتا لا تستطيع السمع أو الحديث وكان والداها قد هجراها. عدة فتيات كان آباءهن يعتدون عليهن بدنيًا وجنسيًا. ساعدتهن جدتي في العثور على وظيفة أو زوج، أعادتهن إلى المدرسة، أو ساعدتهن في العثور على أحد أفراد عائلاتهن في أجزاء أخرى من الهند. كانت قد كتبت ملاحظات صغيرة وراء كل صورة: الاسم، تاريخ الميلاد، العنوان الحالي. كلما روت لي قصة أخرى عن الناس الذين ساعدتهم، كلما أدركت أني لا أعلم سوى القليل جدًا عن جدتي.

أخيرًا قلت لها، "لماذا تفعلين كل هذا؟"

نظرت إلي وهي مصدومة من سؤالي هذا، وكأنها تقول أن الإجابة واضحة. لكن في حالة أنها لم تكن واضحة بالنسبة إلي قالت ببساطة، "أنا مسلمة وهذا ما يفعله المسلمون.

الفصل السادس

قصة الإسلام

قصة التعددية

لن أستطيع أن أجاوب على سؤال "ما ذا أفعل ؟ " قبل أن أجيب على السؤال الذي يسبقه "في أي قصة أو قصص أجد نفسي جزءًا منها؟"

" ألاسدير ماسينتاير"

أعلم جيدًا أن الحظ الأعمى وحده هو الذي جعلني أعبر المحيط بأموال "سيسل رودس" في سبتمبر عام ١٩٩٨، كان أهم ما يشغلني هو أنه سيتم اكتشافي، فإن جاذبيتي المميزة هي التي جعلتني أقطع كل هذه المسافة، لكني كنت أعرف أنه لا أمل في العمل في انجلترا، إنها أرض الشفاة الصارمة والدعابة الجافة والأمطار التي لا تتوقف. بالتأكيد لن تنجح في أن تبهر زملائي في منحة "رودس"، حيث كنت مقتنعًا بأنهم براعم جائزة نوبل والتعليم بجامعة هارفارد.

خلال الشهور القليلة الأولى بجامعة أوكسفورد تأكدت مخاوفي، فبقية الزملاء في منحة رودس بدوا جميعًا باستطاعتهم أن يتكلموا عدة لغات وهم مقربون من أعضاء مجلس الشيوخ بولايتهم، كانوا يتحدثون بثقة عن وظائفهم – كلية الحقوق بجامعة "ييل" أو موظف في القضاء العالي بالولايات المتحدة، ومنهم من أمضى بضع سنوات ليجني المال في عالم الشركات ثم اتجه إلى السياسة حيث سينتهي به الأمر في الغالب بأن يصبح حاكمًا للولاية. إذا قرروا الاستمرار في سلك القانون، فسوف تتجه أنظارهم لمقاعد الحكومة الفدرالية. لقد كنت مشدوهًا لإيمانهم المطلق بأنهم المعنيون بقيادة العالم. عندما كان طالب يصل الى جامعة إلينوي يتحدث الناس عن مدى إمكانية المشاركة في دوري الجمعية الوطنية للرياضيين الجامعيين (NCAA) في هذا الموسم. على ما يبدو كانت الرسالة مختلفة في المدارس الخاصة الفاخرة حيث تلقى أغلبية زملاء منحةرودس تعليمهم، فهناك على ما يبدو كان الناس يزحفون ليهمسوا في أذان الطلاب بأن العالم ينتظرهم حتى يقودونه.

تجمعت كل مخاوفي بصورة ما حول " ذا نيويوركر – The New Yorker "وهي المجلة الأكثر انتشارًا بين باقي طلاب منحة رودس. لم أسمع عن تلك المجلة قط قبل قدومي إلى أكسفورد. ففي جامعة إلينوي عندما تقرأ Chicago Tribune تلم بأخبار العالم أكثر من أي شخص أخر. خلال الشهور الأولى التي قضيتها في أكسفورد كنت اذهب كل أسبوع إلى كشك الصحف بشارع "ليتل كلارندون" واشتري مجلة "ذا نيويوركر" ثم أسير تحت المطر إلى غرفتي - وهي في مساحة القبر- وأحملق في المجلة. كان هذا فقط يزيد من قلقي فلم أكن حتى أستطيع فك رموز الغلاف اللعين فكيف لي أن أفهم المقالات؟

كنت مغرمًا بأن أروي لنفسي قصة فحواها أن أطفال الطبقة الوسطى من منطقة الغرب الأوسط مثلي هم من يتسمون بالواقعية، وأن هؤلاء المتكبرون المنتمون لرابطة "أيفي ليج" الذين أرسلوني معهم إلى هنا يمتلئون بحس مقزز بالاستحقاق لألقاب لا يستحقون حتى توجيه الحديث إليها. لكني كنت أعرف أنها أكذوبة وليدة الخوف والتحامل، بالإضافة إلى أنها أجهضت السبب الرئيسي الذي تقدمت من أجله للمنحة أصلا، فإذا ما تجاهلت زملائي من طلبة بعثة رودس بهذه البساطة فربما كنت قد بقيت بالمنزل حتى الآن.

إن الاستقامة والإحساس بالنقص أولاد عم يتسمان بالتقارب الشديد. فعندما تقبلت فكرة أن الفوز بمنحة رودس كان ضربة حظ وأن كل من هم حولي ربما كانوا أكثر ذكاء واستحقاقًا مني للمنحة، توصلت إلى أن الشئ الوحيد الذي يمكنني أن أفعله هو تقبل حظي ككرم من عند الله وأن أحاول أن أبذل ما بوسعي للاستفادة من تلك التجربة. انضممت لمجموعة قراءة تتلاقى في "هوليويل مانور" وهو مبنى سكني لطلاب الدراسات العليا بالقرب من مركز أكسفورد. كنا نقرأ عادة الأعمال الصادرة في القرن الحادي والعشرين لكل من"جومبا لاهيري -Lahiri Jhumpa" و"فيليب روث – Philip" و"فيكرام سيث- Vikram Seth" و"زورا نيالي هيرستون – Zora Neale Hertson " وكنا نتحدث عن الكتب المتعلقة بما يدور حولنا من الأمور. لقد كنت عازمًا على استيعاب ما يعرفه باقي الدراسين من بعثة رودس، فكلما ذكر أحدهم فيلسوفًا لم أسمع عنه، بحثت عن أبحاثه أو أبحاثها، وكلما دار حديث عن موضوع لم أكن على دراية به، كنت أذهب لأشتري مجموعة من الكتب تدور حوله، وفي النهاية توقفت عن محاولة فهم غلاف مجلة "ذا نيويوركر" وبدأت أقرأ المقالات.

لم يكن البروفيسور "جيفري والفورد - Geoffrey Walford" يطابق الصورة التي رسمتها في ذهني لعميد جامعة أكسفورد، فهو لا يضع الغليون في فمه ولا يسير بالرداء أسود. لقد كان نحيفًا ويرتدي يوميًا السروال الجينز الأزرق، ويصر أن يناديه طلابه باسمه الأول "جيفري" وعلى عكس الكثيرين من الأساتذة فقد كان ملتزمًا تمامًا بمساعدتي لاستكمال رسالتي العلمية بجودة عالية بجانب اكتساب خبرة جيدة في كلية الدراسات العليا. أتذكر أول لقاء لنا، كان يضع نظارته بينما ملفي مفتوح أمامه قال وهو ينظر إلي "أنت أمريكي "، فأومات مصدقًا.

و استطرد "حصلت على منحة رودس" ، كنت أتمنى أن يبهره ذلك، ولكن شيئًا ما بحواجبه المحدبة أعطاني انطباعًا بأن الانبهار ليس من طبائعه.

قال لي "لقد أشرفت على طلاب أمركيين أخرين من بعثة رودس"، ثم استطرد " المشكلة أن من هم مثلك يسأمون سريعًا من المكتبات والحواسيب، أنتم دائمًا مشغولون بانجاز أمر ما "معركة العالم" كما تسمونها على ما أعتقد ، كل ما تريد أن تفعله هو بحق جيد بالنسبة لي، ولكن دعنا نتأكد من أنك لا تضيع وقتك هنا، يجب عليك نيل الدكتوراة في موضوع يشد انتباهك والأفضل أن يكون له علاقة بعملك، وهذا يعني أن الأمر يختلف إذا كنت تريد الاستمرار في الحياة الأكاديمية أو إذا كنت تريد السير في اتجاه أخر."

لم أصدق أذناي، فإن أكثر القصص رعبًا من تلك التي سمعتها من أصدقاني الملتحقين ببرامج الدكتوراه أن المشرفين عليهم يعتقدون أن الحياة الأكاديمية هي الحياة الوحيدة التي تستحق أن تحياها، وعادة ما تكون الدراسات العليا هي تجربة طويلة مليئة بالتشويش هدفها تحويلك إلى نسخة مستنسخة من مشرفك الأكاديمي. والآن ها هو الأستاذ عميد أكسفورد بجلالة قدره يقوم بكل بساطة بتشجيعي على أتخاذ مسار وظيفي يسعى للتغيير الاجتماعي ويعرض علي المساعدة إلى جانب ذلك للحصول على الدكتوراه في موضوع يهمني.

قلت "حسنًا، إن أكثر ما يشغل بالي هو العلاقة بين الهوية الدينية والتعاون بين الأديان"، استمع "جيفري" لي باهتمام، فقد كان بحثه الحالي يدور حول انتشار المدارس الدينية بأوروبا سواء المسيحية أو الإسلامية. كباحث اجتماعي متخصص فقد أمضى جزءًا كبيرًا من حياته كمشارك لمتابعة تلك المدارس، كما قام بعقد مقابلات مع بعض الرموز الأساسية،

واقترح بناء منشأة تعليمية ترعى كل من الهوية الدينية وتشجع على العلاقات بين الأديان. كان "جيفري" يعلم بالتطورات التي جرت بالتعليم الإسلامي نتيجة لأن قسم الدراسات التعليمية بأكسفورد كان يعمل بمشاركة عدة منظمات إسلامية، لذلك فقد اقترح علي أن أستكشف تلك المدارس.

المرة الأولى التي قابلت فيها "عظيم نانجي"، راودني شعور بأنه رجل سيلعب دورًا محوريًا في حياتي. هو أستاذ مرموق في الدراسات الإسلامية وقد رأس قسم الدين بجامعة فلوريدا وقد عينه إمام الطائفة الاسماعيلية مؤخرًا كرئيس لمعهد الدراسات الإسماعيلية بلندن. ذهبت لرؤيته خلال خريف السنة الدراسية الأولى في أكسفورد وأخبرته أني مهتم بأن يدور موضوع الدكتوراه حول برامج التعليم الديني للطائفة الإسماعيلية. فأومأ برأسه بالموافقة. لقد مر التعليم الديني للطائفة الإسماعيلية بتغيرات عميقة خلال العقدين الماضيين، متحولاً من نظام عفوي كان ينقل بالأساس طقوس واحتفالات مجموعة طائفية وهي الإسماعيلية لبرنامج أكثر شمولاً وتحديًا ذهنيًا مكتشفًا التاريخ والجماليات وأخلاقيات الإسلام. لقد كان "عظيم" ومعهد الدراسات الإسماعيلية في مركز هذا التحول.

لكن "عظيم" كان يدرك أني مهتم بشيء أكبر من درجة الدكتوراه، فقد كنت أشرع في رحلة شخصية مكثفة. إن المنظور الذي أتيت به للإسلام قد تشكل بإعجابي بكل من المهاتما غاندي و"دوروثي داي" والدلاي لاما إلى جانب صداقتي لكل من "كيفن" والقس "وين". لقد أحببت الروحانية والعدالة الاجتماعية في المسيحية والهندوسية واليهودية والبوذية، لم تكن لي اهتمامات بالإسلام لحين آخر رحلة لي إلى الهند، عندما وجدت دعاء إسلامي يظهر خلال جلسة التأمل البوذية وعندما طلب مني الدلاي لاما أن أكون مسلمًا جيدًا وعندما رأيت نموذج جدتي وما يعنيه، حينئذ أردت أن أتعلم العقيدة الكامنة وراء توازنها الروحاني واخلاقيات الخدمة. هل كان هناك أبطال في عقيدتي مثل "أبرهام جوشوا هيسكل- Abraham Josh Heschel " و"مارتن لوثر كينج الإبن- .Martin Luther King Jr"؟ هل كانت تضم شعراء مثل "طاغور - Tagore" و"بليك – Blake"؟ وفلاسفة مثل "مايومونيدس-Maimonides " و" الأكويني - Aquinas "؟ هل ساعدت عقيدتي على تحرير بلاد مثلما فعلت هندوسية غاندي؟ هل لها صروح بالجمال الذي يجعلنا نفغر أفواهنا مثل "كنيسة سيستين - Sistine Chapel"؟

لم أكن أعلم شيئًا عن الإسلام غير أنه يعيش داخل عظامي، ولقد كنت أتوق بشدة لأن يكون عظيمًا.

على الرغم من عدم شرحي لأي شيء من هذا القبيل بشكل مباشر، أدرك "عظيم" بشكل ما أن هذا هو الدافع المحرك لاختيار موضوع رسالتي. نظر لي باهتمام بينما أشرح له ما أريد أن أبحث عنه ، ثم قال "كثير منا يبدأ حياته المهنية بدراسة تاريخنا وتحديد موقعنا بداخله، لقد دارت رسالتي حول موضوع مشابه. أنت تعيش في مرحلة يمكن فيها للإسلام أن يتخذ عدة اتجاهات مختلفة، وسيكون للشباب من أمثالك دور في تشكيل الخطوات القادمة. إن معرفة الابعاد الإنسانية للتاريخ الإسلامي وكيفية تدريسها بكفاءة هو أهم نوع من التعليم تستطيع أن تحصل عليه، اريدك أن تعلم أن بابي مفتوح لك دائمًا."

إن التأثيرات المبكرة على مسارنا الديني هي التي تصنع كل الفارق، هذه الحقيقة البديهية اتضحت بشكل صادم في نموذج يوسف إسلام.

عندما كنت طفلاً، كنا أنا وأبي نمضي جزءًا كبيرًا من وقتنا معًا في الاستماع للموسيقى، وفي عيد ميلادي العاشر أحضر لي ألبوم " Led Zeppelin II وألبوم " Stop Making Sense " لفرقة "Talking Heads". خلال هذه المرحلة بدأ يأخذني للحفلات الموسيقية، أذكر أني غنيت " Gypsy" لفريق " Moody Blues" كما كنت أهتف مع الجماهير لفريق "Kings" لجعلهم يكررون المقطع. لقد تعلمت أن أحب الحفلات الموسيقية. كلما وضع أبي تسجيلاً جديدًا ، كنت أطلب منه أن نشاهد العازف على الطبيعة وهو يعزف، كثيرًا ما كان يقول لي أن الفريق قد انقسم بسبب موت أحد أعضائه كما في حالة "جون بونام- John Bonham" و"ليد زبلين- Led zeppelin" و"جيم موريسون –Jim Morrison" وفريق "ذا دورز - The Doors". لكني لم أتوصل أبدًا لفهم تفسيره جيدًا عن سبب عدم استطاعتنا الذهاب لرؤية "كات ستيفنس - Cat Stevens"، مؤلف الأغاني والمغني الذي أفضله.

سألت أبي "لم يمت، أليس كذلك؟"

"لا، إنه مازال على قيد الحياة،" هكذا يجيب أبي وعلى وجهه بدأت تزحف علامات الإحباط على صوته.

"إذن لماذا توقف عن الجولات؟"

أجاب أبي وهو يكاد لا يستطيع أن يخفي غضبه.

"لقد أصبح مسلمًا – مسلمًا متشددًا، ممن يعتقدون أن الموسيقى تتعارض مع الدين."

لقد شعرت بالحيرة، فنحن أيضًا مسلمون، ونحب الموسيقى، وعلاوة على ذلك أن أكثر الموسيقى الروحانية التي سمعتها على الإطلاق مثل "قطار السلام –Peace Train" وظل القمر- Moon shadow" و"عالم بري - Wild World" و"الأب والإبن - Father and Son" – كلها كانت لهذا الرجل صاحب الاسم الطريف. لكني لم أعرف الحقيقة الكاملة إلا في وقت لاحق.

عندما اعتنق "كات ستيفنس" الإسلام وأصبح اسمه "يوسف إسلام"- في أواخر السبعينيات من القرن الماضي، حدث أنه وقع في إيدي مجموعة من المسلمين الذين قالوا له أن الموسيقى تتعارض مع عقيدته الجديدة، كان هذا تفسيرًا شرعيًا تمامًا للإسلام ولكنه على الجانب شديد التطرف وهو أيضًا عار لعين بالنسبة للموهبة التي اعطاه الله اياها. ظل يوسف هكذا حتى أوائل التسعينات حيث وقع تحت تأثير مختلف جعله يعيد النظر في موقفه من الموسيقى.

كان ذلك في زمن حرب البلقان، وكان يوسف كمثله مثل معظم المسلمين وأيضًا أصحاب الإيمان الصادق حول العالم يشاهد القتل الجماعي لأهالي البوسنة على يد الصرب، بينما لم تكاد أمريكا وبريطانيا وفرنسا والآخرون يحركون ساكنا. لقد وجد غضبه يشتد ويشتد بينما يشعر بالعجز، ذاتِ يوم تلقى مكالمة هاتفية من وكالة إغاثة بوسنية، قال له المتحدث على الطرف الآخر "افعل شيئًا من أجل الأطفال التي تقتل هنا،" واستطرد " نظم حفلاً دوليًا- استخدم موهبتك."

شعر يوسف أنه يتمزق، لقد قيل له ممن أثروا عليه في البداية أن الموسيقى تتعارض مع الإسلام، ولكن ها هي مجموعة من المسلمين تطلب منه المساعدة في شكل موهبته: الموسيقى. بعد ذلك ببضعة أسابيع، تلقى يوسف زيارة من وزير خارجية البوسنة، "عرفان ليوبيانكيتش - Irfan Ljubijankic" وهو طبيب مسلم له بطولات في إنقاذ حياة العديد من أهالي البوسنة في الطابق السفلي من منزله مستخدمًا أبسط الأدوات الطبية.

إن "ليوبيانكيتش" كرجل شاب كانت موسيقى "كات ستيفينس" تلهمه كثيرًا، للدرجة التي جعلته هو

ذاته يبدأ عزف الموسيقى وعندما التقى الإثنان، قام الطبيب بتشغيل شريط كاسيت يحتوي على أغنية قام بكتابتها بعنوان "ليس لدي مدافع تدوي- I have no cannons that roar"، تأثر يوسف عميقًا بالأغنية. وضع الطبيب الشريط في يده وقال:"أرجوك أن تستخدم هذا إن استطعت لخدمة القضية."

في وقت لاحق تم قذف الطائرة المروحية الخاصة بالطبيب فوق منطقة "بيهاك- Bihac"، مما أدى إلى مصرعه. قام يوسف بتشغيل الشريط الذي أعطاه إياه الطبيب مرات عديدة وبدأ يستمع لموسيقى أخرى آتية من البوسنة مثل التسابيح والأناشيد وقد كانت مبعث الهام كبير لأهالي البوسنة وقت الحرب، وبسماع تلك الأغاني توصل يوسف لاستنتاج مفاجئ: " أنها أداة قوية رائعة؛ وماعلينا إلا أن نستخدمها."

بدأ يوسف وهو يتمنى أن يظل على إيمانه الحقيقي أن يقدم موهبته كهدية لشعب البوسنة، فقام بالدراسة على يد علماء للإسلام أخرين للتعرف على مدى سماح الإسلام بالموسيقى، وقد وجد أن الرسول صلي الله عليه وسلم قد سمح بل وشجع على استخدام الموسيقى إذا كانت تخدم هدفًا ايجابيًا، وقد اندهش من أن المسلمين الذين قالوا له أن الاسلام يتعارض مع الموسيقى لم يشيروا لهذا الفارق الحاسم. وفي سطر من سطور بحثه "الإسلام يغني" تناول حقيقة أساسية عن تكوين الهوية الدينية لكل شخص:" إنه من المهم أن أذكر أن أيام تدريبي الأولي كمسلم قد صاغها من كنت على صلة بهم."

بدأ يوسف إسلام في تأليف الموسيقى مرة أخرى.

إن مفهوم الإسلام عند "عظيم نانجي- Azim Nanji" يمكن تلخيصه في جملة واحدة من حديث شهير للرسول عليه الصلاة والسلام "إن الله جميل يحب الجمال"، كنت أتوقف لرؤية "عظيم" مرة كل شهر فعادة ما يكون عائدًا من السفر أو على وشك السفر ليحاضر بجامعة أغا خان في باكستان أو لزيارة برامج التعليم المبكر بشرق أفريقيا حضور حفل جائزة أغاخان للعمارة في سوريا أو مقابلة الإمام في باريس. بالرغم من ذلك كنا نشعر بأن وقتنا معًا كان ممتدًا. سألته يومًا "كيف للاسلام وهو عقيدة تركز على التوحيد أن تجد مكانًا لها في الهند الهندوسية والتي بها ملايين الالهة؟" أجاب "عظيم" بقصة، ذات يوم كان هناك شيخ صوفي أتى مع أتباعة إلى ولاية "جوجارات – Gujarat" الهندية ثم أرسل رسالة إلى

امير الهندوس المحلي بأنه قد وصل وأنه يريد الإقامة. فما كان من الأمير الهندوسي إلا أنه أرسل خادم بكوب ممتلئ من الحليب كأنه يريد أن يقول "العدد كامل هنا." فقام الشيخ بإذابة ملعقة من السكر في الحليب وأرسل كوب الحليب المسكر للأمير وكأنه يقول له " أنا وأهلي سنضيف شيئًا إيجابيًا للمجتمع."

ذات مرة قلت لعظيم "أحب الشعر الروحاني، مثل أشعار "بليك- Blake " و"طاغور- Tagore" و"ويتمان- Whitman ". واشعر وكأنه في كل أمة أو ديانة قلة قليلة ذات روح وثابة تعبر عن القيم الخاصة بعقيدتها باسلوب يجعلها تبدو متميزة وعالمية."

أجاب عظيم "آه نعم ، أنا أحب هؤلاء الشعراء أيضًا ولكن شاعري الروحاني المفضل هو الرومي، وهو مسلم ولد في أفغانستان في القرن الثالث عشر." كدت أسقط من على مقعدي، فبالتأكيد سمعت عن الرومي وقد رأيت له عشرات المؤلفات على أرفف المكتبات ولكن هل كان مسلما؟ لم يكن لدي أدنى فكرة. استطرد عظيم "هناك بعض الناس يلقبون أعمال الرومي "المثنوي"، أي القرآن باللغة الفارسية." روى لي قصة الرومي وكيف كان عالمًا في القانون الإسلامي يصدر أحكامًا شرعية ويلقي محاضرات جامدة، إلى أن اقترب منه رجل يرتدي أثمالا بالية في يوم من الأيام وقال له "ما هذه؟" موجهًا سؤاله للرومي وهو يشير نحو كتبه.

أجابه رومي بتكبر"لن تفهم".

حدج الرجل الرومي بنظرة حادة ثم لوح بيده فأشعلت النار في الكتب، ثم لوح بيده مرة أخرى فعادت الكتب سليمة.

سأله الرومي وقد صدم: "ما هذا؟".

أجابه الرجل "لن تفهم" ثم اختفى. كان هذا الرجل هو شمس الدين التبريزي و كانت تلك هي اللحظة التي قرر فيها الرومي ترك كتبه القانونية وأن يتبع مسار الغموض في الحب والروحانية الذي جسده له شمس الدين - مسار الصوفية.

لم أستطع كبح جماح نفسي وشعرت أني أريد قراءة أشعار الرومي هناك وفي التو واللحظة، ابتسم عظيم وبدأ يتلو بعض أبيات رومي المفضلة لديه:

أنا لست من الشرق ولا من الغرب

ولست من الأرض ولا من البحر.

أنا لست عطر النعناع ولست من الكون الدوار.

أنا لست من الأرض ولا من الماء

لست من الهواء ولا من النار.

مكاني هو اللا مكان وأثري لا أثر له

ليس لي جسد ولا روح

لأنني ملك المحبوب.

أخبرت عظيم عن جدتي في بومباي وكيف كانت تأوي النساء والأطفال بمنزلها. قال نظيم" نعم، نعم ، "أشرف ماجي" .

سألته وأنا مرتاب "هل سمعت عنها؟" .

قال عظيم وهو ينحني مقتربًا قليلاً "بالطبع. هي واحدة من القديسين الأحياء في الطائفة الإسماعيلية، لقد عاشت عائلتك أخلاقيات الخدمة في الإسلام أكثر من أي أحد آخر عرفته، فوالد جدتك بدأ فيلق المتطوعين الإسماعيليين، وجدك "الرائد إبراهيم باتيل" هو واحد من أهم ركائز الجماعة الإسماعيلية بالهند وكان شديد القرب من الإمام، وعمتك في بومباي كانت أول سيدة تراس مجلس وطني إسماعيلي كبير، وعمك كان في نيروبي سفيرًا للإمام لدى الحكومة الكينية لعدة سنوات. نعم، يبدو أن أخلاقيات خدمة الإسلام قد انتقلت عبر الأجيال في عائلتك، وأتسائل ماذا ستفعل بها؟"

سألته " من أين أتت أخلاقيات تقديم الخدمات هذه؟"

اجاب عظيم" من عند الله، في لحظة الخلق،" نظرت إليه نظرة خالية من التعبير.

قال مستطردًا " لقد جاء شرح ذلك تفصيليًا في السورة الثانية في القرآن الكريم".

ذهبت إلى البيت، وفتحت النسخة الإنجليزية المترجمة من المصحف وقرأت الآيات التالية "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ "

انتهيت من قراءة القصة المذكورة في الآيات وأغلقت المصحف ثم وضعته على جبيني

وقبلته. بالخارج كان البساط السندسي في أكسفورد أكثر اخضرارًا من أي شيء رأيته من قبل، كان يبدو لامعًا وكأنه يشير إلى السماء. لمحت زوجًا من العصافير ذات الأجنحة الزرقاء تطير من فوق إحدى أشجار أكسفورد العالية وتحط علي السياج بالأسفل وهي تصدر أصواتًا عالية. كما رأيت صبيًا يسير إلى جانب أمه في نهاية فترة اللعب المسائية وهما في طريقهما للمنزل للعشاء، وقد خطفت منه الكرة وهي تلهو وتركض بها بعيدًا والصبي يضحك وهو يلحق بها. كان هذا هو الخلق وقد جعله الله مقدسًا وقد عهد للإنسان أن يكون خليفته على الأرض. فمنذ خلق جدنا الأول آدم، وكل إنسان منحه الله نفحة من روحه وهي منزلة عالية لم تحصل عليها حتى الملائكة، ولكن الله يعلمها وتحدث عنها. فما هو الشيء الذي نستطيع أن نفعله ولا تستطيعه الملائكة حتى نحظى بالخلافة على الأرض؟ نحن نستطيع أن نسمي الأشياء ولدينا الإبداع ولدينا القدرة على التعلم وتطبيق ما تعلمناه من أجل تحسين الحياة. وإذا بي فجأة أفهم جدتي التي في الهند فهما أفضل، كما أصبحت أفهم كل من "دورثي داي" و"هيسكل"، و"غاندي" و"الدلاي لاما" و"كينج" وشعرت كما لو كنت ألمح صلاحهم وكأني عرفت المزيد عن مصدره.

كانت الشمس قد أوشكت على المغيب، أذكر أن والدتي كانت تسمي هذا الوقت بأنه "المغرب" حيث اللحظة المقدسة التي يجتمع فيها الليل والنهار على الأرض. لقد حان وقت الصلاة، جلست على ركبتي ولمست جبهتي وأنفي الأرض أثناء السجود، ثم نهضت – في نفس الحركة التي أدتها الملائكة عندما رأوا النبي محمد (صلعم) يصعد إلى السماء لمقابلة الله. جعلت يداي في وضع الدعاء وأغمضت عيني وبدأت في تلاوة سورة الفاتحة وهي أول سور القرآن: "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ" فقد مرت سنوات منذ أن قرأتها آخر مرة ولكن بشكل ما عادت لذاكرتي، جاءت تتدفق من قلبي إلى لساني ومن ثم إلى العالم وكما لو كانت تحملها نسمة من عند الله.

بإرشادات "عظيم نانجي"، تعلمت أن أفضل طريقة لفهم الإسلام ليس من خلال قواعد جامدة أو قائمة من الطقوس المطلوبة ولكن من خلال قصة بدأت بآدم وتتناقل من خلالنا، كتقاليد للأنبياء والشعراء الذين أنشأوا حضارات عظيمة مَن خلال السعي إلى التعبير عن الأخلاقيات الأساسية للعقيدة.

وجدت أوضح تعبير عن هذه الأخلاقيات الأساسية في كتابات "فضل الرحمن- Fazlur Rahman"، الذي ظل مدرسًا بجامعة شيكاغو حتى توفي عام ١٩٨٨. وهو أحد العقول المسلمة المؤثرة في القرن العشرين، أوضح "رحمن" أن الرسالة الجوهرية للإسلام هي بناء نظام أخلاقي يتسم بالمساواة على الأرض، وأكد على ضرورة قراءة كافة أجزاء القرآن في ضوء هذا الاطار العام، إن الجانب الرئيسي لهذا النظام الأخلاقي هو العدل الرحيم الذ ي يمثله الله أولاً وليس أحد سواه - ثم عبر أنبيائه الذين أرسلهم للهداية على الأرض. لقد منح الله كل إنسان نورًا داخليًا ، يشير إليه القرآن بكلمة "التقوى"، وهي ما كتب الله على أرواحنا. لقد اعتبر "رحمن" التقوى أهم مفهوم في القرآن فهي جزء بداخلنا يدرك بالفطرة رحمة الله، ولم يرسل الله محمدًا (صلعم) كما جاء بالقرآن ومن اتبعه إلا رحمة للعالمين.

قرأت سيرة محمد (صلعم)، فقد جاء في عصر يسميه المسلمون بالجاهلية (عصر الظلام)، حيث تم استبدال مبادئ الرحمة والتوحيد التي بدأت منذ آدم وانتقلت عبر من تبعه – نوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله عليهم جميعًا - بالمادية المفرطة وعبادة الأصنام الزائفة. كان محمد معروفًا كتاجر ذي مكانة طيبة بمكة وكثيرًا ما كان يستعين به أفراد قبيلته من العرب للتوسط في النزاعات. كان يعتكف كل عام في جبل حراء حيث يصلي ويصوم ويتصدق على الفقراء، وخلال خلوته عام ٦١٠ م شعر محمد بقوة عظيمة تحيط به وسمع هذا الأمر: " إقرأ". وبرغم من كونه أمي إلا أن محمد (صلعم) وجد أول ما نزل به الوحي من قرآن يتدفق من فمه:"اقرأ باسم ربك الذي خلق." بعض الروايات تقول أن محمدًا انتابه الخوف وارتبك بسبب هذا الحدث حتى ظن أنه ربما قد مسه شيطان. عاد مسرعًا إلى زوجته خديجة - وهي سيدة أعمال مرموقة – فطمأنته بأن الله لن يسمح لشيطان أن يمس شخصًا بصلاحه وتقواه ثم أخذت محمدًا لزيارة ابن عمها وكان يدعى ورقة وهو مسيحي، أخذ ورقة يستمع إلى قصته بتمعن وهو يسدد نظره بدقة لجبين محمد وعينيه (حيث كان كما قيل نور الله ساطعًا) ثم أكد لخديجة أن النبوة قد تحققت: فرسول الله للعرب قد جاء. كان كل من "ورقة" وخديجة -أي مسيحي وامرأة - أول من اعترف بدعوة محمد النبوية، وأثناء الثلاث وعشرين سنة التالية قاد محمد مجموعة متزايدة من الذين اعتنقوا الدين الجديد والذي أصبح يدعى الإسلام (والاسم يعني "الخضوع لإرادة الله"، وعرف أتباعه بالمسلمين)، وهي عقيدة ليست بجديدة كما ردد محمد

مرارًا ولكنها تدعو ببساطة للعودة إلى رسالة الله الأصلية للتوحيد والرحمة.

لقد درست الخلفاء الراشدين في العصر الوسيط والعصر العباسي في بغداد الذين اكتشفوا ارسطو وتمت ترجمة أعماله من اليونانية إلى العربية، والعصر الأموي في قرطبة حينما كانت في قمتها تعد أكثر البلدان الأوربية علمًا حتى أن المسيحيين في أوروبا كانوا يلقبونها "درة العالم". والفاطميين بالقاهرة، كانوا إمبراطورية إسماعيلية قامت ببناء أكبر صرح إسلامي للمعرفة- وهو الأزهر- إلى جانب مئات المكتبات ومراكز أخرى للبحوث. تعجبت من التعددية التي قامت الإمبراطوريات الإسلامية وبرعايتها وحمايتها، فلقد كان الإمبراطور المغولي "أكبر" يستضيف جلسات حوار الأديان في القرن السادس عشر بالهند بينما كانت الحروب الدينية محتدمة في أوروبا.

درست الدور الذي لعبه المسلمون في حركات التحرر الحديثة ،حيث لعب عبد الغفار خان (عرف ايضًا بسم بدشاه خان) - وهو من مسلمي البشتون (و قد جاء من نفس قبائل طالبان الأفغانية)- دورًا محوريًا بجانب غاندي في تحرير الهند من الحكم البريطاني مسترشدًا بتفسيره للإسلام كعقيدة تحرر تنبذ العنف. قرأت كتاب فريد إسحق "القرآن والتحرر والتعددية- Qur'an, Liberation and Pluralism "- والذي تكلم فيه عن الدور المحوري للمسلمين في النضال ضد الفصل العنصري في جنوب أفريقيا.

رأيت أخلاقيات الإسلام بوضوح في أعمال "شبكة أغا خان للتنمية - "AKDN"، وهي مجموعة المؤسسات التنموية التي أنشأها أغاخان، الإمام الإسماعيلي. تقدم شبكة أغاخان في أجزاء منسية من العالم مثل آسيا الوسطى وغرب أفريقيا قروضًا صغيرة للقرويين لكي يبدأوا مشروعات صغيرة كما تبني نظمًا متكاملة للتعليم والرعاية الصحية. تبنت شبكة أغا خان أول جامعة بوسط آسيا وتتوسع في جامعة أغا خان في كراتشي، وهي واحدة من أفضل مؤسسات التعليم العالي في العالم الإسلامي ، وتبني فرعًا لها في شرق أفريقيا. إنها تستثمر في المشاريع التي تحمي التراث الثقافي الإسلامي المتألق من عمارة وموسيقى وفن الخط. وتتضمن ايضًا شبكة أغا خان واحد من أشهر منظمات الإغاثة في العالم وتسمى "فوكاس – Focus". وعندما ضرب زلزال مروع إقليم كشمير عام ٢٠٠٥، اعتمدت الحكومة الباكستانية على مروحيات شبكة أغا خان لإيصال العون للمنطقة. وقد بين الإمام عدة مرات أن شبكة أغا

خان هي تعبير عصري عن الأخلاقيات الأساسية للإسلام مثل الكرامة والخدمة والجمال بعبارة أخرى كان أغا خان أكثر من فاعل خير؛ إن أغا خان رجل مسلم.

تابعت نفسي أقفز بدون جهد نحو الإيمان – بأن الله واحد وقد اختار البشر ليكونوا خلفائه على الأرض بهدف إيجاد نظام اجتماعي أخلاقي؛ وبأنه أرسل رسالة لهداية هذا العالم وأن الرسول الأخير كان تاجرًا يدعى محمد، تلقى الرسالة التي نسميها القرآن الكريم من خلال الملاك جبريل ؛ وأن الاسلام عقيدة غنية أنشأت طرقًا روحانية متنوعة ومذاهب فكرية واحدة منها تسمى الطريقة الإسماعيلية، والتي تنص على أن الله سيرسل للبشرية قائدًا يهديها لفهم رسالة القرآن والتصدي لتحديات كل عصر جديد. تعلمت الدعاء الإسماعيلي كاملاً مرة أخرى، وذهبت إلى "مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية" حيث وجدت شخصًا هناك يعلمني الصلاة التي يؤديها معظم المسلمين خمس مرات يوميًا، ثم بدأت الصيام في شهر رمضان.

عندما توصلت إلى اتفاق مع لون بشرتي البني وميراثي الهندي وجنسيتي الأمريكية أدركت أني الآن أواجه وأفهم جزءًا أساسيًا بداخلي وهو بدايتي ونهايتي: أني مسلم.

الإيمان - كما كتب العالم الكبير "ويلفريد كانتويل سميث - Wilfred Cantwell Smith"، هو الطريقة التي يتواصل بها المؤمن مع عقيدته. فالعقيدة - كما كتب الشاعر"تي.إس. إليوت- T.S.Eliot" - لا يتم فقط توارثها ببساطة ولكنها تكتسب فقط بالعمل العظيم، إن أخلاقيات الخدمة والتعددية في الإسلام هي أكثر ما أنعشني وأكثر ما شعرت تجاهه بالمسؤلية، ومع بدء فريق الشباب للتعاون بين الأديان سنحت لي الفرصة أن أضع تلك الأخلاقيات موضع التنفيذ وأن أشعر بأني جدير بلقب "مسلم.

استطعت بمساعدة عدة مؤسسات للتعاون بين الأديان أن أجمع ستة عشر شخصًا من الشباب من أربع قارات مختلفة ومن ستة ديانات مختلفة لمناقشة المبادئ الأساسية لفرق الشباب للتعاون بين الأديان في خليج "أريا" في يونيو عام ١٩٩٩. كانت "أنستاسيا وايت" هي التي تقوم بتيسير أعمال المؤتمر وهي طالبة دكتوراة في مجال التصميم التنظيمي وإحدى المخضرمين في عملية ما بعد المصالحة في الفصل العنصري بجنوب أفريقيا. لقد دفعتنا للنظر لفريق شباب للتعاون بين الأديان على أنه حركة أكثر منه مشروع. فكرت في الحركات التي أعجبتني أثناء فترة الجامعة – "العمال الكاثوليك" و"التعليم الخدمي" و"تعدد الثقافات"، كل

واحدة من تلك الحركات كانت لها فكرة محورية أشعلت الحماس بين مجموعة كبيرة من الناس.لم تقم "دورثي داي" ببناء كل دار من دور الضيافة للعمال الكاثوليك ولكنها طورت الفكرة وانشأت نموذج أو إثنين ثم تابعت الآلاف وهم يضيفون معنى جديدًا للمبدأ الأساسي. فكرت في عشرات المؤسسات الخدمية التي أعجبت بها ومئات المبادرات الخاصة بحوار الثقافات التي ساعدت الشباب على التعرف على هوياتهم – والمزيد من الأمثلة للأفكار التي انتشرت كالنار في الهشيم تجذب خيال الناس معتمدين على إبداع أفراد من الرواد ليتخذوا شكلاً جديدًا. بدأت أفكر في أساس أنها حركة، وكانت أفضل طريقة تعكس هذا الاتجاه هي تغيير بسيط في الاسم من فريق الشباب للتعاون بين الأديان إلى مركز الشباب للحوار بين الأديان.

أقرت "انستاسيا" هذا التغيير وأضافت نقطة أخرى:" إذا أصبح مركز الشباب للتعاون بين الأديان حركة، فعلى الهيكل التنظيمي أن يكون مرنًا، فالحركة هي مجموعة متزايدة من الأشخاص تشترك في فكرة تسعى لتنفيذها بطريقتها الخاصة، أما الصعوبة التي تواجه مؤسسي الحركة فهي صياغة الفكرة الأساسية بوضوح ووضع خطة للانتشار ثم تحديد عدد من أفضل الذين يقومون بالعمل وربطهم بشبكة لتنفيذ الفكرة."

خرجنا من هذا المؤتمر بالركائز الثلاثة التي ما تزال تشكل قلب مركز الشباب للتعاون بين الأديان: اللقاء بين الثقافات والتفاعل المجتمعي والتفكير المشترك في الأديان. بعبارة أخرى فإن الهدف من مركز الشباب للتعاون بين الأديان هو تجميع شباب من خلفيات متنوعة للقيام بعمل مجتمعي والتفكير فيما أضافته عقائدهم المختلفة على العمل. قالت لي "أنستاسيا" في ختام المؤتمر "الأن علينا اختبار المفهوم الأساسي، سوف تتعلم الكثير عن فكرة جوهر الأديان للشباب من خلال تنفيذ مشاريع على أرض الواقع وهذا أفضل من الجدل حول الألفاظ في المؤتمر، وأنا أعرف أفضل مكان للبداية:"جنوب أفريقيا."

انعقد البرلمان العالمي للأديان في مدينة "كيب تاون" في ديسمبرعام ١٩٩٩، وكان أكبر مؤتمر للأديان ضم الآلاف من علماء اللاهوت والنشطاء والمؤمنين بالعقائد المختلفة. ضم البرلمان السابق الذي عقد في شيكاغو عام ١٩٩٣ عددًا قليلاً من الشباب، لذلك كان المسؤلون يتطلعون إلى تنظيم المؤتمر ببرنامج يجد صدى أكبر هذه المرة. فقد كانوا يخططون

لحضور أكثر من خمسمائة شاب من حول العالم، وقد ساعدهم مركز الشباب للتعاون بين الأديان في تصميم وإدارة برنامج الشباب.

وصلت لمدينة كيب تاون أواخر أكتوبر ١٩٩٩، وأنا متوتر ومتحمس فتلك أول مرة أقوم بها بتنظيم شيء ما خارج الولايات المتحدة. لقد وجدت بلدًا يشتعل بالنشاط، كان قد مر أقل من عشر سنوات على سقوط الفصل العنصري وحوالي خمس سنوات على المؤتمر القومي الأفريقي، وأول حكومة أغلبية من السود تتولى السلطة، فلقد بدأت الدولة تولد من جديد.

يعد الفصل العنصري بجنوب أفريقيا مخالفًا للمبدأ الروحاني الخاص بالتلاحم الإنساني، ويستخدم سكان جنوب أفريقيا للتعبير عن هذا المبدأ لفظ "أوبونتو – ubuntu"،الذي يمكن ترجمته حرفيًا إلى "أن الناس هم ناس من خلال أناس أخرين." من أجل ذلك المبدأ قرر سكان جنوب أفريقيا إعطاء أصواتهم للسياسات التعددية لحزب المؤتمر القومر الأفريقي لصاحبه "نيلسون منديلا" بدلاً من أصحاب السياسات الانفصالية " إلق بالبيض في البحر" التي تبنتها الأحزاب الأكثر ردا كلية. من أجل ذلك المبدأ "أوبونتو" وافق المطران "ديسموند توتو- Desmond Tutu"- على رئاسة لجنة الحقيقة والمصالحة والتي بحثت عن العلاج وليس العقاب لخطايا الفصل العنصري. من أجل ذلك المبدأ أيضًا دعى مانديلا من سجنوه من أبناء جزيرة "روبن" للوقوف إلى جانبه عندما أعلنت مراسم تنصيبه رئيسًا.

لم يطبق مبدأ "أوبونتو" على الانسجام العرقي والقبلي فحسب ولكنه طبق أيضًا على التعددية الدينية. فلدى جنوب أفريقيا سكان من الهندوس والمسلمين والمسيحين والسكان الأفارقة الأصليين وأقلية من اليهود. فالدين كان له تاريخ مختلط في جنوب أفريقيا. والفصل العنصري بعد ذلك لم يكن مجرد برنامج سياسي ولكنه كان أيضًا مذهبًا، أخذ صانعوه الدكتوراة من محاضرات في أوربا وكونوا الفصل العنصري من قراءة مشوهة للإنجيل، ولكن بدل من أن يتم رفض الدين لارتباطه بالفصل العنصري وجد سكان جنوب أفريقيا طريقة لإعادة صياغته كطريق مقدس للحرية والمساواة. وكما قال "ديسموند توتو" عندما جاء السكان البيض لجنوب أفريقيا كانوا يملكون الإنجيل بينما السكان السود يملكون الأرض، ثم أخبرنا السكان البيض أن نغمض أعيننا ونصلي، وعندما فتحنا أعيننا كان معنا الإنجيل وهم معهم الأرض، أما الآن فسنأخذ هذا الكتاب بجدية.

رأى قادة جنوب أفريقيا البرلمان كإشارة بدء لزيادة مشاركة الطوائف الدينية المتعددة داخل الدولة أثناء مرحلة تجديد الأمة. أطلق عليها الإمام رشيد عمر "الفرصة الأفريقية."

كنت أنام ثلاث ساعات ليلاً أثناء شهر الإعداد للبرلمان ولم أنم طوال أسبوع الإعداد للحدث. كانت طلبات التسجيل تصل من شباب من اليابان والبرازيل والهند وكينيا وإيران – حتى أننا كنا نلاحق عليها بالكاد. كان لهؤلاء الشباب كافة أنواع الاقتراحات بالنسبة لبرنامج الشباب، اقترح البعض القيام بمشاريع للمناطق الفقيرة في كيب تاون والتي تسمى "البلدات". سمع آخرون أن البرلمان عقد بالمقاطعة السادسة حيث قامت الحكومة العنصرية منذ عدة سنوات بإزالة حي للسكان الملونين بأكمله بالقوة، وادعت أن الأرض للبيض. لذلك طلبوا مشروع خدمي ومراسم احتفال لتخليد ذكراهم.

إن المحور الأساسي للرسائل التي تلقيناها هو أن الشباب يريد أن يفعل شيئًا ما ولا يريد فقط الجلوس والاستقبال. فهم يريدون دمج جنوب أفريقيا مباشرة وإنشاء علاقات حقيقية وترك البلد بحالة أفضل مما كانت عليه. قمنا بتنظيم رحلة لمركز مجتمعي في بلدة"ماننبيرج" وتقع في منطقة "كيب فلاتس" الفقيرة، بحيث يستطيع الشباب من النشطاء في العمل المدني والمشتركون في البرلمان التواصل مع أقرانهم بجنوب أفريقيا. قمنا معًا بعملية تنظيف في قطع الأراضي الشاغرة في الحي السادس، ثم طلبنا من الشباب من ديانات مختلفة التحدث عن أهمية خدمة الخلق وفقًا لتعاليم دين كل منهم. قابل "كيفن"، الذي جاء من شيكاغو كعضو من فريق مركز الشباب للتعاون بين الأديان، مجموعة من فنانين "الهيب هوب" من جنوب أفريقيا وطلب منهم وضع مقطوعة "هيب هوب" من أجل العرض العام للشباب. قال لي، "يتحتم على جيلنا أن يقص قصة الاحتياج المتبادل." تم دعوة خمسة وعشرين شابًا لتقديم عرض أمام مجموعة من الزعماء الروحيين والدينيين الذين اجتمعوا في البرلمان وكان من بينهم الدلاي لاما. بدلاً من الوقوف وراء مكبر الصوت وإلقاء الكلمات المستهلكة عن السلام، جلسنا في شكل دائري وقمنا بقطع العهود للوصول إلى أعمال ملموسة: العمل من أجل الفقراء في بريطانيا وبناء شبكة من القادة الشباب المتدينين بالهند والتقدم ببرنامج من أجل إنهاء الحرب في البرازيل.

اجتذب أسلوب مركز الشباب للتعاون بين الأديان انتباه العديد من الحضور في البرلمان. قام عضو

كبير في حركة "سارفودايا شرامادانا- Sarvodaya Shramadana" - وهي حركة منشأها سريلانكا وتعني "صحوة الجميع من خلال تقاسم العمل،" بدعوتي لتقديم عرض خلال إحدى معسكرات الشباب للتعاون بين الأديان الذي يقومون بتنظيمه. لقد أعجبت بحركة "سارفودايا شرامادانا" وقائدها البوذي "أريراتن - A.T. Ariyaratne "، لعدة سنوات. كان مركز الشباب للتعاون بين الأديان يعتمد جزئيًا في منهجيته على تجميع أناس من خلفيات متنوعة معًا في مشروع مجتمعي تنموي، ثم تشجيعهم على استخدام هذا الحيز المبدئي من التجمع لتكوين شبكات مستدامة من الممكن أن تشترك في حل المشاكل الجذرية التي يواجهها الجميع. وهكذا قد تقود هذه الطريقة مجموعة من الفلاحين إلى مشروع مثل تنظيف مياه نهر لإنشاء مؤسسة إقليمية تساوم موردي البذور للحصول على البذور بأسعار مخفضة. لقد أراد عضو حركة "سارفودايا شرامادانا" أن يعلم رواد معسكر الشباب لديه أن هناك شباب من حول العالم يتجمعون معًا من أجل تنفيذ مشاريع خدمية ويتحاورون حول الأديان المختلفة ويقومون معًا ببناء المؤسسات.

دعى ممثل مجموعة " هابيتات فور هيومانيتي -Habitat for Humanity" بالهند مركز الشباب للتعاون بين الأديان للمشاركة في مشروع تقوم المجموعة بتنفيذه في مدينة "حيدر آباد". بدأ تاريخ "هابيتات" كمؤسسة مسيحية أنشئت في الجنوب الأمريكي، وقد صارت الآن هيئة عالمية حقيقية تعنى جديًا في كيفية التعامل مع المجتمعات التي تخالطها في مناطق مثل جنوب آسيا والشرق الأوسط. أرادت "ريما" ممثلة "هابيتات" أن يقوم مركز الشباب للتعاون بين الأديان بتنظيم مجموعة من المحاضرات الخاصة بالفكر الديني مع مجموعة من الشباب ذوي الخلفيات الدينية المتنوعة الذين سيقومون ببناء مجموعة من المنازل بالأحياء الفقيرة في مدينة "حيدراباد" في يناير ٢٠٠١.

لقد كانت "انستاسيا "محقة، فعندما قدم مركز الشباب للتعاون بين الأديان نفسه كحركة متنقلة يمكن تطبيقها في أماكن متعددة بدأ أناس أخرون يقفزون على فرصة لإشراكنا في أعمالهم. لقد تناسيت رسالتي للدكتوراه للحظة، وقمت بوضع الرحلتين على جدولي الخاص ثم شكرت الحظ الذي أتاح لي فرصة السفر حول العالم للقيام بمشاريع خدمية للأديان.

دعتني "أنستاسيا" لقضاء أجازة رأس السنة مع عائلتها بمركز "ويلجيسبروت – Wilgespruit

" للمنح الدراسية - وهو تجمع مسيحي ومنتجع واقع خارج جوهانسبرج ومثله مثل منظمة "العمال الكاثوليك" حاول " ويلجيسبروت" تقديم نموذج "مملكة الله على الأرض"، أي مكان يمكن للناس فيه أن يصبحوا أفضل. كان والد "أنستاسيا" واسمه "ديل وايت" راهب إنجيلي يؤمن بروح المسيحية وجنوب أفريقيا وبأنه من المقصود أن تكون البشرية متنوعة وأن تكون بينها صلات. خلال ذروة مرحلة الفصل العنصري قام "ديل" (وهو من البيض) بمقابلة "ستيفن بيكو Steven Biko- " - لتغذية حركة وعي السود لأنه شعر بأهمية إعادة بناء ذاكرة التاريخ وكبرياء السود في جنوب أفريقيا. ومع انتهاء التمييز العنصري وبداية انقشاع العنف الدائر بين القبائل الأفريقية المختلفة، بدأ "ويلجيسبروت" بتدريب وسطاء للسلام. والآن بينما تخطو جنوب أفريقيا نحو القرن الحادي والعشرين عقد "ديل" العزم على جعل "ويلجيسبروت" مكانًا للتعاون بين الأديان، فبالنسبة له لم يكن التغيير بجنوب أفريقيا يعني مجرد مساكن حكومية أو سن قوانين للمساواة في العمل ولكنه هدفًا روحانيًا يتطلب الحكمة الفريدة في جعل المجتمعات الدينية المتنوعة تعمل معا.

كان ذلك في رمضان، وبدأت أعتاد الصيام، لقد صامت أنستاسيا معي فلقد جعلناها فسحة روحية حيث ننام بالكنيسة الصغيرة في "ويلجيسبروت"، ثم نستيقظ فجرًا ليتلو كل واحد منا صلاته، ثم ننضم إلى "ديل " ونردد الدعاء معًا. "بارك الله في أفريقيا وأبنائها وقادتها"، كان "ديل" يقول وصوته مازال ضعيفًا إثر سكتة دماغية تعرض لها حديثًا. بارك الله في البشرية وأجناسها ودياناتها المختلفة." لم استطع أن أتمالك نفسي من التفكير أنه منذ عشر سنوات بهذه الدولة لم يكن ليسمح لي بالوقوف مع هؤلاء الناس بنفس الغرفة نتيجة للون بشرتي، ولم يكن الأمر متعلقًا بمن في الغرفة بل بأناس كثيرون بغرف متشابهة لم يكن ليسمح لهم بالوقوف معًا.

لقد شهدت ليلة القدر، هذه الليلة من رمضان التي أنزل فيها القرآن، ليلة رأس السنة ، وبداية ألفية جديدة. هذه الليلة وبينما أنا أصلي شعرت بلحظة وضوح صارخ: أنا جزء من قصة الإسلام وأنا جزء من قصة التعددية وأنا جزء من قصة "أوبونتو"..

في كل مرة أصرح فيها للمشرف على رسالتي "جيفري"، أني سأسافر لشهر أو إثنين من أجل تنفيذ مشروع للشباب خاص بالأديان في مكان ما حول العالم، كان يتمتم قائلا أن

وظيفة طالب دكتوراة هي وظيفة بدوام كامل، ثم يتمنى لي رحلة آمنة، وأن أعود مستعدًا للكتابة. لقد تفهم أن معظم طاقتي الذهنية تتجه نحو بناء مركز الشباب للتعاون بين الأديان، كما أنه تفهم أني أشعر بالغربة في أكسفورد.

في يوم ما قال لي أحدهم أن أكسفورد هي مدينة العشرة آلاف طالب يذاكر كل منهم وحيدًا بغرفته. وفي يوم سوف تصحو لتجد نفسك واحدًا منهم. تصطف الجامعة حول المدن الجامعية السكنية وهي عوالم داخلية قليلة تسيطر عليها مغامرات وخصوصيات وهيرمونات الطلاب البريطانيين. في المدة مابين نوفمبر وحتى مارس تغلق المتنزهات في ساعة متأخرة من بعد الظهيرة، بينما تحتجب الشمس بشكل دائم خلف لوح من السحب الكثيفة التي لا تتحرك. أغلب من أعرفهم كانوا يفضلون اللجوء إلى غرفهم على التعرض للمطر الدائم في أكسفورد. ولكني قد يصيبني الجنون إذا ما تعرضت للحبس في الغرفة لأكثر من ساعتين في يوم واحد. كان هذا معناه أن أهرب وحدي. وبعد صباح أقرأ فيه وأكتب في البيت أذهب إلى "ريكاردو" وهو محل يقدم الساندويتش في السوق المغطى، ثم أشق طريقي لشرب القهوة الفرنسية في "جراند كافيه" في "هاي ستريت" وأتابع السياسة الأمريكية في صحيفة "إنترناشيونال هيرالد تريبيون". وفي الأمسيات كنت إما أن أحضر مسرحية في مسرح "أكسفورد بلايهاوس" أو في أحدى المسارح الأصغر حجمًا في المدينة أو أشاهد فيلمًا عن الفنون في سينما "فونيكس"و من حين لآخر كنت أتقابل مع المبعوثين من طلاب "رودس" للعشاء في حانة "ويج أند بين" أو لتناول المثلجات في وقت متأخر من الليل في محل "G&D's"، لكن لم يكن بالأمر الغريب أن أقضي أيامًا بدون التحدث إلى صديق، لقد كان تغيرًا حادًا عندما انتقلت من العيش في "ستون سوب"، حيث كنت محاطًا بثمانية عشر ناشط وفنان من الهيبيز حيث يصر أحدهم أن أقرأ قصيدته الجديدة أو أن أستمع لأغنيته الشعبية الجديدة.

قابلت "نيفيتا"، وهي هندية نشأت في "بوتسوانا" ودرست بجامعة " أمهيرست ــ Amherst" وحصلت علي منحة رودس من منطقة الجنوب الأفريقي، وفي أكسفورد كانت تدرس التنمية مع التركيز على الحد من الأثار المدمرة لمرض الإيدز في أفريقيا. لقد كانت هادئة وسمراء وجميلة، وقد جعلتني أشعر على الفور بأن شيئًا ينقصني.

كنت بعد يوم من العمل في البحث في لندن أعود من موقف أتوبيس "جلوستر جرين" عبر الطريق الطويل الذي يمر بمسكن الطالبات حيث غرفة نوم "نيفيتا" في كلية "سانت أنتوني"، فإذا وجدت غرفتها مضيئة أناديها حتى تظهر بالنافذة ثم نتحدث لبضعة دقائق قبل أن أواصل السير إلى بيتي وأنا أشعر أن الليل فجأة قد أصبح أكثر دفئًا. وذات مرة وصلت متأخرًا وكانت الغرفة مظلمة ألقيت أحجارًا صغيرة على نافذتها حتى فتحت النافذة وحدقت وهي هامدة، قلت لها: أردت فقط أن أراك قبل أن أنام". فابتسمت وفجأة رحلت حدة البرد عن أكسفورد.

في أول موعد لنا أخذت "نيفيتا" إلى محل "شي جاستون" وهو مقهى فرنسي مضيء حوانطه صفراء فاقعة وطعامه طازج ويقع في الحي الشمالي من مدينة أكسفورد. طلبت هي كريب بالسبانخ بينما طلبت أنا كريب بالدجاج. لاحظت أن "نيفيتا" تتململ في مقعدها قليلاً، لكني استمريت بالقصة التي كنت أحكيها والدجاج الذي أتناوله. في منتصف الحديث تذكرت أصول اللياقة فسألتها إن كانت تحب أن تتذوق قليلاً من الدجاج، لم تستطع أن تحجب أشمئزازها وأجابت بحدة "أنا لا أتناول اللحوم."

قلت "عفوا" ، وأنا أشعر بغباني فجأة، إن "نيفيتا" من الهندوس ومن البراهمة ولم تأكل اللحم أبدًا ولم تدخل اللحوم في البيت الذي نشأت فيه، حتى الذهاب إلى مطعم يقدم اللحم من الممكن أن يعد تنازلاً، لأن هناك أحتمال أن يلامس اللحم الطعام الذي ستتناوله "نيفيتا"، كانت "سارة" و"كيفن" و آخرون ممن أعرفهم نباتيون لكن لم يكن لدى أي منهم هواجس معنوية مما أتناوله بينما "نيفيتا" كانت أكثر حساسية تجاه هذا الأمر. أحيانًا عندما نجلس سويًا للعشاء كانت ترمقني بنظرة نصفها اتهام ونصفها بؤس وتقول "أنت تناولت الدجاج في وجبة الغذاء، أليس كذلك؟"

كنت أقول محتجًا "كيف عرفتِ؟" ، لقد كانت مجرد قطعة صغيرة غسلت أسناني بعدها، كانت تهز رأسها وتناولني قطعة ليمون لأعصرها على طبق الخضار بالكاري الذي أتناوله.

كانت "نيفيتا" تعتبر ما يتناوله الشخص مسألة عقائدية، والعقيدة هي مسألة تعميق الروحانيات، فهي وعائلتها من الأتباع الأوائل للقسيس الهندوسي "سري سري شانكار- Sri Sri Shankar " الذي حفظ عن ظهر قلب البهاغافاد غيتا - Bhagavad Gita " عندما كان عمره

أربع سنوات، كما اخترع أسلوبًا للتنفس يحلف أتباعه بأنها تمد حياتهم بطاقة روحانية شديدة، وكانت "نيفيتا" تمارس هذا الطقس الذي يستغرق عشرين دقيقة صباح كل يوم.

وجدت نفسي معجبًا بنظام "نيفيتا" الروحاني، لقد كانت تتجه بكل قلبها في الصلاة. بدأت أحاول ألا أتعجل في صلاتي وأحاول نطق كل كلمة في الدعاء بالعربية بطريقة سليمة قبل الانتقال للكلمة التالية. عندما كانت تردد أغاني هندوسية تعبدية كانت تتمايل إلى الأمام وإلى الخلف وعيناها مغمضتان وقد استوعبها تمامًا جمال الأغنية. لم أعد أعتبر "غزاليات" المغني الباكستاني الصوفي "نصرت فاتح على خان" خلفية موسيقية فقط، ولكني أصبحت استمع إليها الآن بينما أركز تماما ومسبحتي في يدي وأنا استمع للموسيقى للسبب الذي جعلت من أجله: التعبد.

كنت أتناوب أنا و"نيفيتا" لأداء الصلاة قبل العشاء .فاقول لها "هذا دورك"، وكنا نحني رأسنا ونغمض أعيننا بينما نستمع للتواشيح "السانسكريتية" المهدئة وهي تعلو في الجو. ثم نفتح أعيننا ونشد على أيدينا ونبدأ في تناول الطعام.

وعندما يأتي دوري للصلاة، كنت أقرأ سورة الفاتحة. وفي مرة قلت "آمين" وفتحت عيني ولاحظت أن "نيفيتا" مازالت تغمض عينيها وأنها ما تزال تهمس بشيء ما، وتيقنت أنه "سانسكريتي".

في أول الأمر أردت أن أقول،" ما هذا؟ ألا تهمك صلاتي؟" لكني أمسكت لساني فإن "نيفيتا" لم تقصد الإساءة فهي لم تكن تشير إلى أن صلاة المسلم لم ترق لمستوى بلوغ الجنة ولم تبدي إدعاء موضوعي يغلب قيمة ديانة على أخرى ولكنها أرادت أن تبين حبها للتواصل مع الله بلغتها الخاصة.

تذكرت عندما كنت في "العمال الكاثوليك" وكيف شعرت بالسمو في حياة المصلي، ولكني شعرت أيضًا أني بعيد عنها قليلاً، فكرت في "يا علي، يا محمد" التي ظهرت أثناء جلسة تأملي البوذي وكيف أن الصلاة بالعربية أشعرتني أني عدت إلى بيتي بعد رحلة طويلة.

تيقنت أني أحببت الصلاة السانسكريتية، واعتبرتها جميلة ومقدسة ولكنها لم تكن لغتي المقدسة وليست أسلوبي في التواصل مع الله وشعرت بداخلي في النهاية أني بحاجة لأن أكون مع شخص يتقاسم معي نفس لغة الصلاة.

تحول نقاشنا في فريق القراءة نحو الحياة بعد أكسفورد. نصف المجموعة سيتوجه لكلية الحقوق، أغلبهم في جامعة "ييل"، وبعضهم في جامعة "جورج تاون" أو جامعة "فيرجينيا". آخرون شغلوا وظائف كمستشارين ومستثمرين بالبنوك. كانت عبارة "المستقبل الوظيفي" كثيرًا ما تتردد، وبدا كل شخص له خطته. كنت قد أوشكت على الانتهاء من رسالة الدكتوراه وكونت خبرة من العمل في مشاريع الشباب للتعاون بين الأديان في الهند وسيريلانكا وجنوب أفريقيا. قلت لنفسي "حسنا، كانت فترة ممتعة طوال بقائها".

ذهبت لرؤية "عظيم نانجي" في معهد الدراسات الإسماعيلية، وكنت اتساءل إن كان لديه اقتراحات لوظائف أكاديمية لاتقدم لها وإن كان مستعدًا لكتابة خطاب توصية من أجلي. لقد كانت وظيفة "عظيم" هي تدريب الطلبة الإسماعيليين. المرة الوحيدة التي شعرت فيها بنبرة الفخر في صوته كانت عندما حدثني عن الإسماعيليين الحاصلين على وظائف بجامعات أمريكا الشمالية وأوروبا وكان يتساءل عن رد الفعل الذي سيتحقق عندما يبدأ نشر أعمالهم. فكرت إنه ربما يتحمس لتوجهي الوظيفي الجديد، لكنه كان يعرفني جيدًا جدًا.

سألني "ماذا عن مركز الأديان للشباب؟" قلت له "لا أعرف إن كان البدء بحركة شبابية للأديان يعد وظيفة، لقد وضعت كل عملي في رسالة الدكتوراة وأظن أن ما علي القيام به هو ما يقوم به الحاصلون على الدكتوراة – شغل وظيفة في إحدى الجامعات."

قال عظيم "اسمع، هناك العديد من الناس في العالم يشغلون وظائف جيدة، لكنك تملك فكرة كبيرة من أهم قضايا عصرنا، وقد أمضيت ثلاث سنوات في بناء تلك الفكرة، هذا أكبر من مجرد وظيفة ، هذه دعوة وعندما تأتيك دعوة، فعليك أن تلبيها."

الفصل السابع

برامج المتدينين الشموليين الموجهة للشباب

(العقيدة القبلية ، العقيدة المتجاوزة)

رسم دائرة أدت لاستبعادي – زنديق ، متمرد ، مستهتر إلا أني أناوالحب كان لدينا من الذكاء ما يجعلنا نفوز: رسمنا دائرة أخذته داخلها!

إدوين مارخام – Edwin Markham

أول شخص اتصلت به في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ كان صديقي "روي"، قال "كل من نعرفهم بخير وكل من يعرفونهم بخير"، كان بصوته مزيج من الغضب والخوف، وشئ من الراحة والحسم، كان "روي" عضوًا في مجموعة رودس من المبعوثين في جامعة أوكسفورد، كان باستمرار يشكل بصورة أو بأخرى حيوية المجموعة وفي نفس الوقت كان أكثر الموجودين في الفصل ذكاءً، كان من هذا النوع من الأشخاص الذي يمكن أن أراه يعقد صفقة أثناء وجبة الإفطار في "نوافذ على العالم" هذا المطعم الذي يقع أعلى مركز التجارة العالمي، كان "روي" يهودي مخلص وأفضل أصدقائه في "أوكسفورد" أحدهم مسلم والثاني مسيحي. كان يؤمن أن التعددية هي جوهر عظمة أمريكا وأنه لا يوجد مكان آخر به هذا العرض الرائع لخليط الثقافات الموجود في مدينة نيويورك. وأثناء دراسته في جامعة هارفرد كان "روي" يرأس جمعية "فيليبس بروك آرثر" وهي منظمة يديرها الطلبة للخدمة الاجتماعية، كان من المؤمنين تمامًا بقوة الخدمة لتجميع الناس سويًا وكان قد أمضى ساعات طويلة يتكلم عن إستراتيجية النواة الشبابية للأديان، قال لي على الهاتف "هل تدرك أن ما تفعله أصبح أكثر أهمية من أي وقت مضى"، وسمعت صفارة سيارات الإسعاف من خلفه عندما نشرت صور المختطفين التسعة عشر رأيت في تعليق "روي" طبقة أعمق، أذكر أني أخذت أحملق لمدة طويلة في صورة الإرهابيين باحثًا في وجوههم عن علامات تدل على الخلل العقلي أو علامات الشر، ولكن كان الجزء الأكبر يبدو اضطرابه طبيعيًا بل ربما يتسم بشيء من

السذاجة وأقرب لشكل الوجوه في الدليل السنوي لمدرسة ثانوية منها لتلك التي تظهر على ملصقات المطلوبين للعدالة. اندهشت أن هناك اثنان فقط بذقون، ألم تكن لديهم الرغبة في الظهور بالذقون وفقًا للقواعد المنظمة لمقاسها حتى يتخذوا مظهر الجهاديين؟ على كل حال كان لكل من موجهينهم محمد حيدر زمار وخالد شيخ محمد شجيرة من شعر الوجه ينذر شكله بالتهديد، ثم طرأ علي خاطر: إن السبب في أن الصور تشبه تلك التي ترد في الدليل السنوي للمدارس الثانوية هو أن بعض هؤلاء القتلة بالكاد قد تجاوزوا سن المراهقة، ربما كان بعضهم بلا ذقون كاملة لأنهم لا يستطيعون تنميتها.

تذكرت "يجال أمير" المتطرف اليهودي الذي اغتال رئيس وزراء إسرائيل رابين عام ١٩٩٥، وعدت بفكري إلى عام ١٩٩٧ عندما ذهب عضو من حركة "الهوية المسيحية" اسمه "بنيامين سميث" ليطلق النار في منطقة الوسط الغربي مستهدفًا الأمريكيين اليهود والآسيويين والأفريقيين حيثما كانوا، كان واحد منهما في السادسة والعشرين والآخر في الحادية والعشرين من عمره على التوالي، فكرت في التقارير الإخبارية التي أسمعها باستمرار عن العنف الديني في الهند وسري لانكا والشرق الأوسط وأيرلندا الشمالية وغرب أفريقيا وفي كل مكان، كان سن من يقومون بمعظم أعمال العنف والقتل والموت في سن يتراوح ما بين الخامسة عشر والثلاثين، وقد تنبه العالم حديثًا إلى الصلة المتزايدة بين الدين والعنف، إلا أنه كان هناك شيء آخر يبدو أن معظم الناس أغفلته: أن قوى التطرف الديني الهجومية مكونة من الشباب.

كنت في بداية تكوين النواة الشبابية للأديان لأني اعتقدت أن الشباب يمكنهم أن يكونوا قوة كبرى في بناء التعاون الديني ومررت بأوقات عصيبة حتى أجد من يتنبه لذلك، حتى من هم داخل الحركة الصغيرة للأديان كانوا بصفة عامة يعاملون مشاركة الشباب كشئ جانبي. ولكن المتطرفون الدينيون لم ينظروا للشباب على أنهم شيء ثانوي، لقد رأى المتطرفون الدينيون فيهم شعلة متقدة يفتقدها غيرهم، كانوا يخزنون هذه الشعلة ويحولونها إلى اغتيالات مستهدفة وقتل جماعي، وفي خاطري كنت أتصور حركة للشباب تعمل على التفاهم الديني من خلال خدمات تعاونية. وفي صحيفتي أخذت أقرأ عن المراهقين ومن هم في العشرينات الذين يقتلون غيرهم باسم الله، كانت حركتهم قوية ومتنامية، وبدأت أبحث عن الأسباب.

بدأ أسامة بن لادن مهنته الإرهابية عندما كان في مرحلة المراهقة في مدرسة الثغر النموذجية

في المملكة العربية السعودية حيث كان السعوديون الأثرياء يرسلون أبناءهم لتلقي تعليم على النمط الغربي، كان الأمراء السعوديون وأبناء النخبة من أصحاب الأعمال يرتدون سروالاً رماديًا وقميصًا بلون الفحم ويتجمعون لطابور الصباح على النظام العسكري ويتجمعون مرة أخرى للقيام بالوضوء قبل صلاة الظهر، كانت هيئة التدريس في مدرسة الثغر تضم غربيين وعرب بعضًا منهم منفي من الأردن ومصر وسوريا بسبب انخراطهم في أنشطة سياسية وبصفة خاصة مع الأخوان المسلمين.

تأسست جماعة الإخوان المسلمين في مصر عام ١٩٢٨ بمعرفة من هو في الثانية والعشرين من عمره واسمه حسن البنا تحت شعار "الإسلام هو الحل"، وقد سمي الأخوان المسلمون أسلاف الإسلام الراديكالي المعاصر، وقد جادل البعض بأن مقصدها الأصلي كان حركة صحوة دينية توفر الخدمات الاجتماعية للمجتمع المتغير بصورة سريعة في مصر في فترة ما بعد الاستعمار، ولكن الحاكم الوطني والعلماني جمال عبد الناصر الذي تولى السلطة عام ١٩٥٢ جعل قياداتها تتجه للراديكالية بسبب حملاته القاسية. كان أكثر هؤلاء القادة نفوذًا هو سيد قطب الذي سجنه عبد الناصر وأعدم في النهاية. وقد نمى قطب فكرة أن للمسلمين الحق فى أن يشنوا الحرب على النظم غير التقية وأن يستبدلونها بقيادات إسلامية "حقيقية"، وأصبح هذا المفهوم هو هتاف الحشد للمسلمين الراديكاليين ومازال واحدًا من الإشارات التى تنير الطريق للمسلمين الشموليين اليوم.

علم الملك فيصل عاهل السعودية أن كثيرين من العرب المنفيين في بلده متأثرين بالأخوان المسلمين، فسمح لهم بالدخول لشعوره بأنهم تعرضوا لاضطهاد ظالم لكنه لم يكن أكثر تساهلاً من القادة العرب الآخرين إزاء الأنشطة السياسية العلنية. فقد كان من المؤيدين بأن تلتزم جماعة الأخوان المسلمين بالرؤية الشمولية و أن يكون تنظيمهم سريًا، كان عليهم أن يعثروا على أهداف ناضجة لرسالة الإسلام الراديكالي، كانوا يبحثون عمن لديهم وقتًا كافيًا رغبة فى أن يكون لهم تأثير وقدرة على تنمية الحركة، كان المستهدفون المثاليون هم الشباب، وأفضل مكان هو المدرسة.

وصف زملاء أسامة بن لادن من الطلبة أسامة وهو صغير بأنه مخلص ومحترم، لم يغش ولم يسرق من التلاميذ الآخرين وكان في حاله. كان في حوالي الرابعة عشرة من عمره

عندما بدأ مدرس التربية البدنية في مدرسة الثغر- وهو سوري طويل القامة في أواخر العشرين من عمره- تكوين مجموعة للدراسات الإسلامية بعد ساعات الدراسة. تحصل على مفاتيح المعدات الرياضية ووعد التلاميذ بإتاحة الفرصة لهم للعب كرة القدم إذا انضموا لمجموعته، كان المدرس رياضي وجذاب وهو عربي ومسلم مثل معظم الطلبة، كانوا معجبين به ويريدون أن يكونوا إلى جواره، فانضموا لمجموعته بأعداد كبيرة.

في البداية جعل التلاميذ يحفظون مقاطع من القرآن ثم بعض القصص من حياة الرسول، وتدريجيًا بدأ المدرس يروي قصصًا أخرى، اعترف أحد التلاميذ في المجموعة للصحفي "ستيف كول" من مجلة "ذا نيو يوركر – The New Yorker": "كانت كالتنويم المغناطيسي"، وصف قصة رواها المدرس بالتفصيل، كانت عن فتى مسلم صغير يريد إرضاء الله ولكنه وجد أن أباه يقف في سبيل ذلك، عثر الفتى على مكان سلاح والده – وهنا دخل المدرس في تفاصيل مفرطة عن الاستعدادات التي قام بها الفتى بدءًا من وضع الخطة وحتى تعمير السلاح- وقتل الرجل الكبير.

روى الزميل السابق لأسامة "نظرت للأولاد الأخرين، فتيان في الرابعة عشر من عمرهم فاغرين فاهم،" وقد وجد طريقة لمغادرة المكان، ولكن الآخرين بما فيهم أسامة أصبحوا أكثر تعلقًا بالجلسات. أطلقوا لحى طويلة مثل الموالي وبدأوا يقولون لزملائهم أن المطلوب من المسلمين الحقيقيين إحياء الشريعة الإسلامية في أنحاء الشرق الأوسط بأي وسيلة كانت.

في الجامعة وقع أسامة تحت سطوة راديكالي آخر وهو مدرس جذاب اسمه عبد الله عزام، وهو فلسطيني انضم للإخوان المسلمين وهو ما يزال شابًا صغيرًا وبعد ذلك ساعد في تأسيس حماس، كان عزام يريد أن يجعل من حلم سيد قطب في الإطاحة بالنظم الفاسدة حقيقة، كتب "الجهاد والبندقية، لا مفاوضات لا مؤتمرات لا حوارات"، رأى في الغزو السوفييتي لأفغانستان فرصته لأن يعيد للإسلام أخلاقيات المحارب.

سافر عزام حول العالم لنشر رسالته وجمع المال وتجنيد الشباب للانضمام للمجهود المسلح، فتح عشرات من مراكز التجنيد عرفت على أنها مراكز خدمات، وإذا كان ما استحدثه سيد قطب هو أنه على المسلمين الحقيقيين الإطاحة بالنظم الظالمة، فإن نقطة الانطلاق التي أضافها عزام هي بناء شبكة دولية تركز على قضية ملموسة: أفغانستان. لقد كان هو من أسس الجهاد العالمي.

كان أسامة بن لادن واحدًا من أول من لبوا نداء عزام، وفي سن الثالثة والعشرين كان يمول مكتب عزام للخدمات في بيشاور، وبيشاور التي تقع في باكستان قريبًا من الحدود الأفغانية كانت المحطة المركزية الكبرى للشباب المسلمين الباحثين عن التحرك في أفغانستان. وكان هنا حيث قابل بن لادن طبيبا شابا محب للاطلاع ينتمي لأسرة بارزة في القاهرة هو أيمن الظواهري، وكانا الإثنان منبهرين من معدل وعدد والتزام الشباب المسلم الذي يتدفق على بيشاور، الحريصون على شن حرب الجهاد، ومثلهما مثل المقاولين أدركا قدرة هذا السوق الهائل من الشباب المسلم بالنسبة لانتاج الإسلام الشمولي، وكتب الظواهري:

> شن الشباب المسلم في أفغانستان الحرب لتحرير أرض المسلمين في ظل شعارات إسلامية بحتة... وقد أتاح هذا أيضًا للمجاهدين المسلمين الشبان – عرب وباكستانيين وأتراك ومسلمين من وسط وشرق آسيا – فرصة عظيمة للتعرف على بعضهم البعض على أرض. الجهاد الأفغاني من خلال زمالة السلاح ضد أعداء الإسلام.

لم يشاهد معظم هؤلاء الشباب تحركا أبدا، كان القادة الأفغان يخشون عن حق اختلاط الشباب الأجانب وبعضهم من الأبناء المدللين للأثرياء المتبرعين للجهاد بالمحاربين الأفغان المخضرمين، كانت النتيجة شبكة دولية من الشباب المسلم درسوا أيديولوجية الإسلام الشمولي وتعلموا كراهية الكفرة الإمبرياليين ودربوا على القتل دون أن تعطى لهم الفرصة للقيام بذلك، وهؤلاء هم من أصبحوا أفراد القاعدة.

أسامة بن لادن كما ذكر "بروس لورانس" في مقدمة كتابة "رسالة للعالم: بيانات أسامة بن لادن" يعني أشياء كثيرة لأناس كثيرين: العدو العام رقم واحد في الغرب وبطل مكافحة الإمبريالية بالنسبة للبعض في العالم الإسلامي ومجادل فوق العادة، ولكن هناك جانب مغفل بالنسبة لشخصية بن لادن وهو موهبة أساسية تمامًا لنجاحه الرهيب: هو منظم بارع للشباب، إنه يتذكر بلا شك السخونة التي شعر بها عندما سمع أول مرة القصة التي رواها منظم النادي الإسلامي في مدرسة الثغر عن الشخص الصغير النقي، إلى درجة أنه كان على استعداد لعمل أي شئ لإرضاء الله حتى قتل أبيه. وعندما أتيحت الفرصة لبن لادن انتهزها، ذهب إلى بيشاور ووضع ماله وحياته فيما بعد على الحدود حتى يمكن طرد السوفييت الكفرة من الأرض

التي أراد الله لها أن تكون أرض المسلمين، ولم يكن هو الوحيد، توافد شبان كثيرون صغار السن بحيث يستطيعون بالكاد إطلاق لحيتهم بالطول المقرر ومستعدون للموت ليحيا الإسلام، ولنتخيل ماذا يمكنهم أن يفعلوا إذا كانوا منظمين.

يوفر لنا البيان الذي أصدره بن لادن لشبكة الأخبار العربية "الجزيرة" في ديسمبر ٢٠٠١ نموذجا للكيفية التى يقوم بها شمولي ماهر بإشراك الشباب في العنف الديني، حيث يروي فيه قصة فتى اكتشف أن حيوانـًا يعترض طريق ناسك، (ولا يحتاج الأمر لأكثر من خيال أدبي بسيط لمعرفة أن الحيوان يمثل أمريكا والناسك هو العالم الإسلامي) قتل الفتى الحيوان بحجر. قال الناسك له "اليوم أنت أفضل مني"، وتابع بن لادن قصته بالتعليق التالي:

> إن الله سبحانه قد ملأ قلب هذا الفتى بنور الإيمان وبدأ يبذل التضحية من أجل "لا إله إلا الله"، هذه قصة فريدة وذات قيمة ينتظر شباب الإسلام من علمائهم أن يرووها لهم حتى تبين للشباب أن هؤلاء [مهاجمي ٩/١١] هم ممن تخلوا عن كل شيء من أجل "لا إله إلا الله".

ثم قام بن لادن برواية قصة عن حمزة بن عبد المطلب عم الرسول الذي خدم أيضا كأول قائد حربي للمجتمع الإسلامي وقام بقتل إمام غير عادل. بهذه الطريقة روي سيرة شخصية تاريخية يعتبره المسلمون بطلاً ويدعي أن بطولة هذا الرجل جاءت من عنفه، وقال بن لادن عن عبد المطلب "لقد فاز بنصر عظيم... ورفعه الله سبحانه إلى مكانة سيد الشهداء".

ثم بعد ذلك يمجد بن لادن فضائل الخاطفين في ٩/١١:

> لقد فتح الله الطريق لهؤلاء الشباب... هؤلاء الأبطال... هؤلاء الرجال الحقيقيون، هؤلاء العمالقة العظام الذين محوا العار من على جبين أمتنا... ليقولوا لأمريكا رأس الكفر العالمي وحلفائها أنهم يعيشون في الباطل. لقد ضحوا بأنفسهم من أجل "لا إله إلا الله".

و أخيرًا يوجه نداء: "على الشباب أن يسعى للعثور على نقاط الضعف في الاقتصاد الأمريكي وضرب العدو فيها".

وكما أقنع منظم الشباب الشمولي الماهر أسامة وهو صغير بالاستجابة لنداء الجهاد من خلال القصص عن قوة الشباب لعودة الأمة لمجدها، فعل بن لادن نفس الشيء بالنسبة لهذا

الجيل. إلا أن المسلمين ليسوا وحدهم من تم ترغيبهم في التطرف الديني على أيدي منظمي الشباب ممن يتسمون بالشخصية الجذابة.

"لا شيء أقدس من أن تكون إرهابيًا سريًا." هكذا يكتب "يوسي كلاين هاليفي" في "مذكرات يهودي متطرف" وهو مثال نموذجي للكيفية التي يصبح بها الشاب منخرطًا في التطرف الديني.

تربى في نيويورك خلال الستينات من القرن الماضي على قصص والده الذى نجا من المحرقة لأنه عاش فى حفرة، وأصبح هاليفي مقتنعًا بأن العالم محتشد بشكل جنوني ضد اليهود. كان شعار "عيسُو الغويم يكره يعقوب اليهودي" هو المبدأ الرئيسي المنظم لحياته. وأينما ذهب كان هناك منظمة يهودية مخصصة لمساعدته على تحويل هذه الفكرة إلى عمل متطرف.

كان هناك "بيطار"، وهي حركة شباب الصهيونية التصحيحية. ولفت نظر "يوسي" لأول وهلة الزي الذي يرتديه الشباب المبتدءون، أزرق اللون مع رقعة صفراء على الجزء العلوي من الأكمام تصور خارطة إسرائيل التي شملت الأردن بأكمله. بدأ حضور اجتماعات يوم الأحد في مقر المنظمة بالطابق السفلي، وجمع مع عشرات من اليهود الأخرين من هم أقل من سن المراهقة للاستماع إلى محاضرات حول حتمية تعلم القتال. كما استوعب صيغة بديلة للمحرقة وفقًا للتصحيحيين الصهاينة، وتلقي باللوم على زعماء التيار اليهودي الرئيسي لتمهيد الطريق أساسًا إلى أوشفيتز بسبب رفضهم النضال المسلح، وأصبح مقتنعًا أن بقاء اليهود يتوقف على أن يصبح أبناء جيله جنودًا.

في مخيم "بيطار" الصيفي تلقن المزيد. غنى الشباب أغنيات عن الذهاب إلى الحرب وقتل العرب. سمعوا قصص الشهداء اليهود الشباب مثل "إلياهو بيت زوري" و"إلياهو حكيم"، الذين كانا قد ذهبا بهدوء إلى المشنقة لقيامها باغتيال "لورد موين"، وزير الاستعمار البريطاني للشرق الأوسط، عام ١٩٤٤.

وطوى مستشار مبتدئ وصارم يدعى "داني" الشاب "يوسي" تحت جناحه، وناوله سلاحًا وصاح "مازل توف" أي مبروك عندما أصابت الرصاصة التي أطلقها الهدف. جاء الدرس في معركة اليد بيد بعدما اعترف "يوسي" أنه لم يسدد أبدًا لكمة لأي شخص في وجهه.

خلع "داني" نظارته وقال ليوسي: "أضربني". كان ذلك بالنسبة ليوسي مثالاً آخر للتضحية التي يقدمها أبناء معسكر "بيطار" عند تدريب واحد منهم لكي يصبح محاربًا.

كانت أسعد لحظات طفولته عندما بدأ في "بيطار"، ارتدى الزي الأزرق ذي الرقعة الصفراء ووقف انتباه في إحدى الطقوس حيث تخفض أعلام أمريكا وإسرائيل وبيطار، وغنى نشيد البيطار: "من هوة الاضمحلال والتراب / بالدم والعرق / سينهض عنصر / فخور كريم وعنيف".

علاوة على حركة "بيطار" كان "يوسي" يتجرع مقادير ثابتة من الأدب اليهودي المتطرف، ففي المدرسة كان مكلفًا بمجلة الأطفال "عالمنا" حيث قرأ قصة يهودي صغير اختطفته ممرضة مسيحية وأجبرته على أن يصبح قسيسًا، وذات ليلة سمع الفتى أغاني يهودية آتية من معبد يهودي فدخله حيث وجد أبويه جالسين بالداخل وعاد لذاته الحقيقية.

كانت أسرة "يوسي" تتلقى في منزلها صحيفة "جويش بريس" التي تحول كل نظرة جانبية إلى أي يهودي إلى صرخة عن احتمال إبادة جماعية ونداء لليهود للنضال. وفقًا لصحيفة "جويش بريس" أن الألمان كانوا يقومون بانتظام بتحطيم ذكرى اليهود بتخريب مقابر الجالية وأن هتلر قد تجسد ثانية في شكل "جورج لينكولين روكويل" زعيم الحزب النازي الأمريكي وأن هناك بالفعل محرقة في طريقها في المدن الأمريكية لا تتمثل في غرف الغاز ولكن في الصداقات بين اليهود وغير اليهود، أصبحت الروايات هي العدسة التي ينظر "يوسي" من خلالها للعالم، كان يتخيل صلبان معقوفة محفورة في كل مكان وأصبح هاجسه هو جدول رحلة "روكويل". كان يحلم باختراق الحزب النازي الأمريكي وتحطيمه من الداخل ويحذر قومه بضرورة اليقظة والتسلح، وابتلع الأسبرين بدون ماء للتدرب على موقف قد يحتاج فيه لعمل الشيء نفسه مع السيانايد.

في أواخر الستينات من القرن الماضي وفي كل مكان كان "يوسي" يتحول للشباب الذين ضاقوا ذرعًا بالعالم وكانوا يأخذون الأمور بأيديهم. وفي منطقة خليج سان فرانسيسكو، بدأ "بوبي سيل" و"هيو نيوتن" حزب "بلاك بانتر" أو الفهد الأسود الذي توعد ضباط الشرطة الذين يتحرشون بالأمركيين من أصل أفريقي بالجنازات. أما الشباب الراديكالي من البيض فقد كان لهم تنظيم "ويذر أندرجراوند" الذي كان يفجر القنابل أحتجاجًا على التورط في فييتنام،

كان يوسي يتعجب من كان يحمي اليهود الذين يضربون في "بروكلين" وفي برونكس؟ لماذا يتم ترحيل الأخبارالخاصة باضطهاد اليهود في الاتحاد السوفيتي إلى الصفحات الخلفية للصحف؟

عندما تم القبض على نحو عشرة من اليهود في روسيا في يونيو عام ١٩٧٠ كانت المنظمات المنتمية للتيار اليهودي الرئيسي هزيلة في ردها ومزدرية لتدخل حركة الشباب. قال خبير الشئون الخارجية في رابطة مكافحة التشهير ليوسي ومجموعة من أصدقائه النشطاء "لقد أعطينا العام الماضي ألفي دولار لمؤتمر الأمريكيين اليهود حول اليهود السوفييت".

رد أحدهم قائلاً "هذا من ميزانيتكم التي تبلغ كام مليون؟"

كان الرد الرافض "أنتم أيها الأطفال لا تعرفون ما تريدون".

قال رئيس "حداثة" وهي منظمة أخرى يهودية من التيار الرئيسي "نحن لا نتلقى التعليمات منكم وليس من حق الشباب الحضور هنا."

بدت المنظمة الوحيدة المهتمة بمصير اليهود السوفييت والشباب المشارك فى "النضال الطلابي من أجل اليهود السوفييت –(SSSJ)" تائهًا وعاجزًا بصورة متزايدة ولم تجتذب الوقفة الاحتجاجية التي نظمتها المجموعة حول الاعتقالات الأخيرة سوى أقل من خمسين فردًا ولم تتواجد وسائل الإعلام تقريبًا.

كان "مايير كاهان" صاحب رابطة الدفاع اليهودية الوحيد الذي فهم المشاعر المحبطة للشباب الأمريكي اليهودي ممن تشبعوا بأهوال المحرقة وأبطال تأسيس إسرائيل ويتطلعون لحفر مكان لهم في التاريخ اليهودي. كان "كاهان" الذي نشأ في بروكلين وتدرب في "بيطار" خيالي وتبشيري ومنظمًا بارعًا للشباب. كان يدرك أن الطاقة المتركمة داخل اليهود الأمريكان على وشك الانفجار، وقد وفرت الاعتقالات التي تمت في الاتحاد السوفيتي وسيلة مناسبة لكاهان لنقل وجهة نظره للعالم من أن بقاء اليهودية يتوقف على الهيمنة على الغير بالقوة. فقد عانى اليهود معاناة كبيرة بسبب أن الأجيال السابقة تجاهلت الرسالة. وفي المسيرات كان كاهان يسخر من قادة التيار اليهودي الرئيسي لأنهم كانوا جميعًا في لطف الشاعر الغنائي "إيرفين" مما سمح بوقوع المحرقة لأنهم اهتموا بالاحترام أكثر مما اهتموا بالتمرد. وقد قطع جيل "يوسي هاليفي" على نفسه عهدًا بألا يقع أبدًا في هذا الخطأ، وأصبح كاهانا قائد صفوفهم،

لقد أحبوا الصورة التي رسمت له بعناية كمناضل يضحي بنفسه من أجل قضية بقاء اليهودية، كما أحبوا ندائه " ألف شاب يهودي على استعداد لاعتلاء الحواجز" وترحيبه في أن يتقدم الصفوف على الجبهة.

بينما لم تفعل المنظمات اليهودية الأخرى سوى القليل ردًا على اعتقال اليهود السوفيت، نظمت رابطة الدفاع اليهودية أعمالاً مثيرة. دخل كاهان وعشرون آخرون المكتب التجاري السوفياتي في مانهاتن وهددوا الموظفين بالمواسير المصنوعة من الرصاص. كما عطلوا العروض فى الحفلات التي يؤديها الممثلون الروس في نيويورك وقيدوا أنفسهم بالسلاسل في عجلات طائرة ركاب سوفييتية في مطار كينيدي، ودمروا ممتلكات البعثة السوفيتية لدى الأمم المتحدة. وقد جذبت مسيرات رابطة الدفاع اليهودية مئات من الشبان اليهود، رافعين قبضات أيديهم وهم يكررون وراء كاهان، "اثنين من الروس مقابل كل يهودي."

عندما انفجرت قنبلة أنبوبية أمام مكتب نيويورك التابع لشركة طيران "ايروفلوت" السوفياتية، ويفترض أن أتباع الرابطة هم الذين قاموا بزرعها، شعر يوسي بموجة من الفخر. كتب "شعرت بسعادة غامرة، لا أحد يستطيع أن يطردنا الآن كنا مثل الحركة المناهضة لحرب فيتنام: جادين." كان معظم أصدقائه من الشباب المشارك في رابطة الدفاع اليهودية، العديد منهم يستخدم اسمه الأول مع كاهانا ويشاركون على نحو متزايد في أعمال العنف للمنظمة. وعندما سمعوا بهجوم على اليهود، اتجهوا الى منزل الضحايا ووقفوا هناك على الطريقة العسكرية. ولعب "مويش"، وهو أحد أصدقاء المدرسة ليوسي دور القناص، وعسكر عبر الشارع أمام المنزل ومعه بندقية.

كان "يوسي" يطوق لما تقدمه له الرابطة: " كان كاهان يقول لنا نحن الشباب الأمريكي اليهودي أن حياتنا المترفة هي انحراف وفاصل بلا معني بين أزمان الاضطهاد وأنه بمواجهة شرطة نيويورك والتعرض لخطر الضرب والاعتقال يمكننا أن ندخل ثانية التاريخ اليهودي وتجربة وطأة تهديده."

ومثله مثل حسيب حسين الذي قام بالتفجير يوم ٧ يوليو عام ٢٠٠٥ في لندن والذي كان لديه هاجس ملح بأن المسلمون مضطهدون في بريطانيا وخارجها كانت مخاوف "يوسي" حقيقية جزئيًا، كانت المحرقة حقيقة رهيبة ومعاداة السامية من الضغوط المستمرة عبر التاريخ

الإنساني، كان الأطفال اليهود يطاردون ويضربون في أحياء نيويورك في الستينات والسبعينات من القرن الماضي، وكان كل من الأهالي المهاجرين الذين يعيشون في تجمعات عرقية دينية يعبرون عن مزيج غريب من الاشمئزاز والعرفان تجاه الوطن الذي تبناهم وغير قادرين على توفير هوية دينية لأبنائهم تكون ذات صلة بزمانهم ومكانهم. كان حسيب حسين يشعر بالذنب لأنه لم يعان مثل الفلسطينيين والبوسنيين ولم يكن من المجاهدين الذين شاركوا في المعركة ضد السوفييت في الثمانينات من القرن الماضي، شعر "يوسي" بالذنب لأنه لم يعان أثناء المحرقة أو يحارب الجيوش العربية للمساعدة على قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨.
لقد كان كلاهما يتوق لدور في الدراما التاريخية لقومه، كان كلاهما يشعر أن المؤسسات الدينية الرئيسية تتجاهل مشاعرهما. كان كلاهما لا يثير الانتباه، مجرد طفلان ينتميان للطبقة المتوسطة ولا يتميزان بأي من أمراض المراهقة سوى المشاعر الملحة، وفي كلتا الحالتين نجح المتطرفون بمهارة في تحويل حماسهم كمراهقين إلى شخصية شمولية وإلى أعمال العنف.

إذا كانت التفجيرات الانتحارية هي الخطة النمطية للتطرف الديني في أوائل السبعينات لكان "يوسي" وأصدقائه اصطفوا لتقبل بركات "كاهان" واستلام حزام محمل بالمتفجرات.

من ذا الذي لا يفهم العنف؟ ومن ذا الذي لم يعان العذاب وأراد أن يرد ذلك الصاع صاعين؟ من ذا الذي لم يشعر بسخونة الغضب ورعود تندلع فيه؟ من ذا الذي لم يعرف الانطلاق الكامل للغضب؟

ما زلت أتذكر عندما لدغتني ذبابة أثناء مباراة صغيرة لكرة القدم في المدرسة الإعدادية، أمسك "دافيد" بالكرة على طريقة "جيري رايس" فوق كتفه الأيسر ورقص في المنطقة الحمراء ووجه لي بضعة كلمات منتقاة وركد في الملعب، مرت خمس دقائق ثم عشر دقائق واللدغة باقية، كان "دافيد" على بعد عشرة أقدام مني كان يعطيني ظهره يتكلم ويضحك مع صديقه في الفريق؟ هل كانا يستهزئان بي؟ شعرت بالغضب الشديد يعتريني حتى أني كدت لا استطع تمالك نفسي، بدأت بالجري وتوجهت بكتفي نحو منتصف ظهره واصطدمت به بكل ما لدي من قوة، سقط جسده تحت ثقل جسدي وشعرت بالارتياح.

بعد ذلك ببضعة سنوات شاهدت فيلم "لورانس العرب" فهمت بعمق المشهد الذي يصف

فيه "لورانس" أول مرة يقتل فيها رجلا، لم تكن المشكلة كما يقول العملية ذاتها ولكنها كانت حبه لها.

نحن معشر البشر نعرف العنف جيدًا، إنه جزء من طبيعة كل منا، وهو على نحو أدق كان السبب الذي جعلني أنجذب للدين في المقام الأول، بصورة ما كان الأشخاص المتدينين الذين أعجبوني قد تغلبوا على الرغبة في إيذاء الآخرين. لقد كان سادة البوذية من التبت يتحدثون عن كفاحهم لكي يحبوا معذبيهم الصينيين، وقد أمضى المهاتما غاندي وقته في سجن بجنوب أفريقيا يصنع المداسات لسجانه، وقابل البابا "جون بول الثاني" الرجل الذي حاول اغتياله وسامحه.

قالت "دوروثي داي" يوما؟ أنها أسست "العمال الكاثوليك" لأنها كانت تريد مكانًا يستطيع فيه الناس أن يكونوا أفضل. كان هذا سببًا أساسيًا في أن أمضى وقتًا طويلا هناك وأنا طالب في الكلية. كنت أريد أن أتغلب على تلك الأجزاء بداخلي التي قد تتعامل مع أي شخص من الخلف، أردت أن أكون طيبًا.

لقد وجدت في الإسلام أوضح تعبير عن هذا الصراع الداخلي، فالرواية تدور كالآتي: بينما كان جيش إسلامي يحتفل بنصره في معركة، قال لهم النبي محمد عليه الصلاة والسلام أنهم انتصروا في "الجهاد الأصغر"، قال والآن عليهم الانتقال "للجهاد الأكبر" وهو "جهاد النفس" الجهاد ضد مشاعرهم الدنيوية. وفي أول مرة قرأت فيها ذلك شعرت وكأن النبي يتوجهة بحديثه لي وكأنه يرى آلاف المرات في حياتي التي انتصرت فيها ذاتي الدنيوية وكأنما كان يعيدني شخصيًا للوعى بالاسلام.

هناك حدث آخر في تاريخ الإسلام حدد بالنسبة لي الروح الدينية في العالم ومعنى الانتصار الدائم وهو توقيع صلح الحديبية والعودة الأمنة للنبي إلى مكة، فبعد سنين من الدفاع عن نفسه وصحابته المسلمين ضد الهجمات العسكرية الشرسة التي تشنها قريش وهي قبيلة قوية من مكة قرر محمد (صلعم) إطلاق حملة سلام دينية، وفي عام ٦٢٨ ميلادية أعلن للمجموعة المسلمة في المدينة أنه سوف يقوم بالجح للكعبة المشرفة التي بناها إبراهيم ﷺ. وعلى خلاف نصح صحابته المقربين ممن كانوا مقتنعين بأن قريش سوف تنتهز الفرصة لاغتياله رفض محمد أن يحمل السلاح، وشد رحاله مرتديًا الملابس البيضاء البسيطة المكونة

من قطعتين التي يرتديها اليوم المسلمون أثناء الحج مهللاً "لبيك اللهم لبيك" وصاحبه ألف مسلم الكثيرون منهم يتساءلون عن الحكمة في الحج الديني في اتجاه عدو يريد الحرب.

أرسلت قريش مجموعة محاربين قوامها مائتين من الفرسان لمنع محمد من دخول مكة فوجه النبي صحابته نحو الحديبية على حافة منطقة يحرم فيها أى قتال وبعث برسالة لقريش أنه جاء مسالمًا، وذكر صحابته بأنهم في مهمة دينية وبذلك عليهم الاستعداد للتوبة وطلب المغفرة من الله من ذنوبهم. ومما لا شك فيه كان بعضهم متحير من أن محمدًا يقوم باستعدادات روحانية بدلاً من استعدادات الحرب. ولكن محمد وبوحي من عند الله كان يعلم أن النصر النهائي للإسلام لم يكن يعني هزيمة الأعداء بشكل عنيف ولكن المصالحة السلمية معهم، وكان تحقيق ذلك يتطلب التواضع الشخصي وإنكار الذات مما صدم حتى أقرب الصحابة إليه.

بعد أن تأكد لقريش أن محمدًا لن يجرهم لحرب أرسلت له "سهيل" وهو واحد من قادتهم الأشد عداء للإسلام للتباحث في تسوية. جلس الإثنان معًا لمدة طويلة وأخيرًا اتفقا على شروط اعتبرها المسلمون مجحفة إلا أن محمدًا أصر على أن يقبلوها، ومؤداها أن يسمح للمسلمين بتأدية الحج في سلام ولكن ليس الآن، بل عليهم العودة للمدينة والانتظار لمدة عام كامل قبل أن يرجعوا، كما أنه على المسلمين أن يعيدوا كل مكي اعتنق الإسلام وهاجر للمدينة بدون إذن من القيم عليه، وقد كتب أحد المصادر أن صحابة الرسول "شعروا بضيق يكاد يكون قاتلاً" عندما رأوا الاتفاقية، وقال عمر وهو من أقرب الصحابة للرسول "لماذا نوافق على ما يحط من قدر ديننا؟" ولكن الصدمة الكبرى كانت لم تأتي بعد.

عندما حان الوقت لتوقيع المعاهدة اعترض سهيل على عبارة "هذا ما اتفق عليه محمد رسول الله مع سهيل أبن عمرو" وقال أنه إذا اعترف بأن محمدًا رسول الله فلن يكونوا في حالة حرب أصلاً. أعطى سهيل تعليماته للرسول "اكتب اسمك واسم أبيك. ومع اليأس التام لصحابته وافق محمد وطلب من علي – صهره الذي سيصبح بعد ذلك أول إمام للشيعة شطب عبارة رسول الله من المعاهدة، ولما كان علي لا يستطيع تقبل القيام بذلك طلب النبي الأمي من علي أن يشير إلى الكلمات على الورق وأخذ القلم وشطبها بنفسه.

وفي رحلة العودة للمدينة وبينما ما يزال الطعم المر للإهانة عالقًا في أفواه الصحابة جاء

للرسول وحي عرف بعد ذلك بصورة الفتح وهي الصورة رقم ٤٨ من القرآن الكريم قال الله للرسول "وينصرك الله نصرًا مبينا" وتبين الصورة أن الله ذاته جل جلاله مشارك في الموقف "هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانـا مع إيمانهم" وكلمة "السكينة" بالعربية تشمل معنى "السلام والهدوء ووجود الله" ومن المعتقد أنها ترتبط بالكلمة العبرية "شكيناه – shekinah" وتنتهي الصورة بالسطور التالية "وعد الله الذين أمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا".

في السنة التالية وكما وعد عاد محمد ومعه ما يقرب من ثلاثة آلاف حاج لأداء الحج، وأخلى أعدائه مكة وفقـًا للاتفاق وتابعوا المسلمين وهم يؤدون الطواف حول الكعبة ويسعون سبع مرات بين الصفا والمروة، وصدموا لرؤية بلال الحبشي الأسود الذي كان عبدًا في مكة قبل أن يعتقه المسلمون يتخذ مكانـًا فوق الكعبة عدة مرات يوميًا لكي يطلق الأذان وهي مهمة لها قدسيتها في الإسلام. سمع محمد أن امرأة قد ترملت حديثـًا فعرض عليها الزواج وأصبحت في حمايته، ودعى أعدائه من أهل قريش للعرس، ولكنهم رفضوا وقالوا له أن أيامه الثلاث قد انتهت، فانصرف المسلمون بنفس الانضباط والخفة التي دخلوا بها وكانت الصورة قوية حتى أن عددًا كبيرًا من أهل قريش لم يكونوا لينسونها سريعا.

عندما عاد محمد إلى مكة كان الذين حملوا السلاح ضده قد اعتنقوا الإسلام أفواجًا، منح محمد العفو لقريش بالكامل تقريبًا بالرغم من أن الكثير منهم قد خاضوا المعارك ضده في الماضي وبغض النظر عما إذا كانوا قد اعتنقوا الإسلام أم لا. ومما أثار دهشة أصحابه أنه أعطى مناصب رفيعة لبعض من كانوا من وقت قريب ألد أعدائه، إلا أن محمدًا لم يكن مهتمًا بالعقاب وإنما كان مهتمًا بمستقبل إيجابي وكان يعرف أنه يمكن إنجازه فقط بتوسعة الساحة بحيث يستطيع الناس دخولها. في هذا الوقت أنزل الله الوحي على محمد عن العلاقات بين القبائل المتنوعة ومجتمع متنوع:

إنا خلقناكم من ذكر وأنثى

وجعلناكم شعوبًا وقبائل

لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم.

بالنسبة لي فإن صلح الحديبية والعودة السلمية للرسول إلى مكة هما اللحظة الفارقة في

الإسلام، فإنها يمثلان عبقرية الرسول وكرم الله والإمكانية المشرقة للحياة المشتركة معًا. إنه مثال مبكر على أن الحركة الإسلامية السلمية يمكنها أن تكسب نصرًا ليس بهزيمة الأعداء ولكن بتحويلهم إلى أصدقاء.

عندما أفكر الآن فى المسيرات من أجل الحقوق المدنية في "برمنجهام" و"سيلما" فى ولاية ألباما لا يسعني إلا أن أسمع رسالة "لبيك أللهم لبيك" في هتافاتهم ولا يسعني إلا أن أرى الرسول في الحديبية كلما تذكرت "مارتن لوثر كينج الابن" وهو يحملق في بيته الذي تم تفجيره في حي "مونتجومري" بولاية "ألاباما" ويحاول تهدئة الحشد قائلا: "علينا أن نواجه الكراهية بالحب"، لا يسعني إلا أن ألمح روح رسالة القرآن الكريم عن التعددية في السطور التي نطق بها "كنج" في نهاية حركة مقاطعة حافلة "مونتجومري": أمامنا فرصة عظيمة لنضخ بعْدا جديدًا من الحب في شرايين حضارتنا... النهاية هي المصالحة والنهاية هي الوفاء والنهاية هي صنع مجتمع متحاب". لا يسعني إلا أن أومن بأن السكينة التي ينزلها الله هي قوة عاد ظهورها برسالة سمو رفيعة عبر الزمان والمكان حيثما يقاوم الأتقياء الدعوة القبلية الدنيوية للذات الإنسانية.

ما هي العلاقة إذن بين الدين والعنف؟ أليس هناك أناس يهتفون بسم الله وهم يقتلون غيرهم؟ أليس هناك نصوص دينية هي ذاتها تدعو للعنف أحيانًا؟ مما لا شك فيه أن الدين يقع في قلب مجموعة واسعة من الأشياء المرعبة، إلا أنها بوضوح لا تقتصر فقط على استخدام الشر، إن الدين كما قال رئيس الأساقفة "ديسموند توتو" مرة "هو مجرد أداة" مثل السكين، وعندما تستخدم السكين لتقطيع الخبز فهي جيدة، وعندما تستخدم لقطع رقبة إنسان فهي سيئة.

من التفسيرات المفضلة بالنسبة لمن يشكون في الدين بصفة عامة وبديانات غيرهم بصفة خاصة هي أن النصوص الدينية في حد ذاتها تدعو للعنف وعلى ذلك لا يجب أن نندهش عندما يطيع المؤمنون. وهذه الحجة تنظم بصفة خاصة ضد المسلمين مع كل من المتخوفين من الإسلام والمسلمين الشموليين على حد سواء ممن يتداولون نشرات تستشهد فقط بأجزاء من القرآن تتناول العنف.

إني أسلم بأن أمثال بن لادن في العالم لا يشكلون كل شيء، هناك بالفعل نصوص واضحة في معظم كتب الأديان الكبرى، ولكن أن نتصور أن النصوص الدينية تتحول فجأة إلى

واقع مسلح فإن ذلك يدل على عدم فهم عميق للدين. هناك عدة طبقات لمعنى أي نص ديني: الواضح والسياقي والرمزي على الأقل، إن النص الديني يأتي للحياة من خلال المفسرين، والعنف الذي يرتكب باسم الدين هو عنف نابع فعلاً من قلب مفسر بعينه. وكما ذكر العالم "إينياز جولدزهر" يمكن القول عن القرآن ... كل يبحث عن وجهة نظره في الكتاب الكريم". أو كما كتب العالم القانوني العظيم "خالد أبو الفضل": إن النص القرآني يفترض أن القارئ سوف يأتي للنص بحس أخلاقي فطري مسبق، ومن هنا يثري النص القارئ أخلاقيًا ولكن فقط لو أثرى القارئ النص أخلاقيا."

هناك نظرية أخرى شائعة تقول بأن العنف الديني هو نتيجة للقمع ويعتمد بشكل كبير على سياسات أصحاب السلطة، ولا مجال للشك في أن أناس كثيرون في العالم حريتهم مقيدة بسبب النظم القمعية ويعيشون في قبضة الجوع المؤلم ويخافون باستمرار من التهديد بالعنف، أو يعانون من مزيج من الثلاث. ورأيي الشخصي أن حكومتي لا تفعل سوى القليل للمساعدة وكثيرًا ما تساهم في تفاقم المشكلة وتكون أحيانًا هي السبب الرئيسي لوجوده. إلا أن الفقر والقمع والخوف وكذلك السياسات التي تؤدي إليها لا تقوم وحدها بتسليح الناس. وكما كتبت "جسيكا شتيرن" في "الإرهاب باسم الدين": "إن نفس المتغيرات (السياسية والدينية والاجتماعية أو كلها معًا) التي يبدو أنها سببت تحول شخص واحد ليصبح إرهابيًا قد تتسبب في أن تجعل شخصًا آخر قديسا". إن ما يهم هو كيفية استجابة مجموعة للموقف. كثيرًا ما يشكل هذه الاستجابة أشخاص يهدفون للعنف وماهرون في حشد الشباب لارتكابه.

أعتقد أن العنف المرتبط بالدين هو نتاج تخطيط محكم تحركه أياد بشرية. إنه ينتمي للعلوم الاجتماعية أكثر من الكتب الدينية، وللمؤسسات أكثر منه للحتمية. إن نظرية أمثال بن لادن في العالم لها تأثير بسبب أنهم بنوا مؤسسات قوية تحشد وتوحي وتدرب الناس على التصرف بأساليب تتسم بالكراهية وبالقتل. وعندما يكون رد فعل شخص إزاء القمع هو أن يقتل عدوه بينما يهمس بسم الله، يكون ذلك بسبب أن مؤسسة ما أقنعته أن القيام بذلك هو واجب مقدس، وأعطته كل ما يلزمه لتنفيذ ذلك. وكثيرًا ما يستهدفون الشباب، وكما كتبت "شتيرن": "إن الحروب الدينية تندلع فقط عندما يتوفر عدد كبير من الشباب ممن يشعرون بالمذلة وبالحرمان. وعندما يظهر قادة يعرفون كيف يستغلون تلك المشاعر وعندما تكون شريحة من

المجتمع – لأي سبب كان – مستعدة لتمويلهم."

ولكن المتطرفين الدينيين لا يتكلمون فقط عن المذلة والحرمان، ولكنهم يفسرون روح العصر على أنها تطالب باستعادة عظمة مذهب دينى معين، ويقولون لجمهورهم المستهدف من المراهقين أنهم وحدهم القادرون على تحقيق ذلك. إنهم يقارنون بين المعاناة الحالية للشعوب وبديل أسطوري ويقولون للشباب أن قدرهم يحتم عليهم نقل شعوبهم من السابق إلى الأخير. وهذا البديل الأسطوري له بعد تاريخي وديني مثل عصر الرسول بالنسبة للمسلمين وعودة المسيح بالنسبة لليهود. وأنه على الشباب تقع مسئولية تحقيق ذلك سواءً كان ذلك يعنى بطرد أمريكا من السعودية أو إقامة المستوطنات في الخليل. وهناك العديد من المؤسسات الدينية الرئيسية تتجاهل الشباب والأسوأ من ذلك ترى أنه يجب أن يقتصر دورهم على وضع تصميم القمصان السنوية. وعلى العكس من ذلك يبني المتطرفون الدينيون مؤسساتهم حول رغبة الشباب في أن تكون لهم هوية واضحة وتأثير قوي.

كتب الخبير الاجتماعي "بيتر برجر" أن المؤسسات يمكن فهمها فهمًا أفضل على أنها برامج للنشاط الإنساني. إنها بديهيات تنطبق على مجموعة واسعة من القطاعات، لننظر في مثال حديث وكيف جعلت شبكة من المؤسسات القوية مجموعة من الأفكار السياسية هى التى تسيطر. فبعد أن أفاقوا من صدمة الفشل في انتخابات عام ٢٠٠٠ بدأ الديمقراطيون يبحثون عن سبب نجاح الجمهوريون فى الإطاحة بهم بعد ثماني سنوات من عصر "كلينتون" الذي تميز بالسلام والرخاء. تساءلوا، ألم تكن حالة قام فيها الملايين من البشر بالتصويت ضد مصلحتهم الشخصية عندما أعطوا أصواتهم لصالح "جورج دبليو بوش"؟ فكيف حدث ذلك؟ كانت الإجابة التي وجدوها تكمن في المبنى المتفوق للحزب الجمهوري. فمنذ هزيمة "باري جولدواتر" عام ١٩٦٤ في انتخابات الرئاسة تحول عدد صغير من المؤسسات الخيرية إلى وضع استرتيجية محكمة توجه المال إلى مجموعة صغيرة من مراكز البحث التي أنتجت مجموعة من الأفكار لعبت دورًا جيدًا في أجزاء من أمريكا فى طريقها لأن يصبح لها وزنا سكانيًا. وفي وقت أقرب أصبحت "آلة الحزب الجمهوري للرسائل" (هى في الواقع شبكة من تلك المؤسسات) فعالة للغاية في اختيار المرشحين من الجديرين بالانتخاب إلى أقصى حد، كما وفروا لهم تمويلاً سخيًا لحملاتهم وقدموا لهم الدورات التدريبية حيث يتعلمون التواصل الفعال

من خلال التسجيلات الصوتية القصيرة المناسبة لوسائل الإعلام. كان الديمقراطيون قد تركوا ليتناقشوا حول أن أفكارهم ربما كانت بالفعل أكثر شعبية بالنسبة للأمريكيين وذلك في البرامج الحوارية في صباح يوم الأحد بينما كان الجمهوريون يحلون محلهم في الكونجرس وفي البيت الأبيض.

في مجال الدين أمضى الشموليون عقودًا من الزمن في الاستثمار في مؤسساتهم وهم يركزون مثل شعاع الليزر على الشباب. ولننظر للمؤسسات الهندوسية المتطرفة التي تتزعمها "الفرق الوطنية للمتطوعين" أو RSS. لقد تشكلت هذه الفرق في عام ١٩٢٥، من أجل هدف عاجل ألا وهو تهميش الهنود المسيحيين والمسلمين وغيرهم من الأقليات سعيًا وراء إقامة أمة هندوسية "خالصة". وقد أعرب واحد من الزعماء الأوائل "إم.إس. جولوالكار" صراحة عن إعجابه بألمانيا النازية، وكتب "إن الكبرياء الوطني قد ظهر فيها في قمته، وقد بينت ألمانيا كم أنه من المستحيل لأجناس وثقافات لديها اختلافات ضاربة في الجذور أن تتجمع في كيان واحد وهذا درس لنا في هندوستان نتعلم منه ونستفيد به."

تنتشر هذه الأيدولوجية من خلال هيكل مؤسسي متطور، فإن الوحدة الأساسية في الفرق الوطنية للمتطوعين تعرف باسم "شاخا" أو الخلية حيث يجتمع "سوايامسيفاك" أي المتطوعون لكي يستغرقوا في الأيديولوجية الهندوسية الشمولية والانخراط في الأنشطة التي تؤدي إلى انتشارها. لقد تم استعارة النموذج من حزب موسوليني الفاشي في إيطاليا. وتتكاثر الخلايا عندما ينتقل المتطوعون المحنكون إلى منطقة أخري لبدء خلية جديدة. وقد كان تقدير صديقة لي تتابع دراساتها العليا في بومباي أن نصف زملائها في الدراسة كانوا إما من النشطاء في أحد الخلايا أو أنهم نشأوا في نظام الخلايا.

يتصعد أيضًا المتطوعون في مواقع النفوذ داخل الأجنحة المتعددة للفرق الوطنية، وتشمل هذه جناحًا للشباب يسمى "باجرانجدال" الذي يتضاعف كمجموعة شبه عسكرية، وحزب سياسي (BJP) — وهو الذي تولى الحكم من ١٩٩٨ إلى ٢٠٠٤، وما يدعى جناح للخدمات عرف باسم "سيوا فيبهاج" وجناح تعبئة ثقافية وسياسية يسمى (VHP) . وتعمل كل هذه الأقسام معًا بأكثر الطرق الشريرة، فعلى سبيل المثال في موجة القتل التي خلفت نحو ألفيين من القتلى المسلمين في إقليم "جوجارات" استخدم المسئولون في حكومة حزب (BJP)

أدوات الدولة – بما في ذلك قوات الشرطة لتشجيع عمليات القتل، وأرسل جناحى "بجرانج دال" و"سيوا فيباج" حافلات محملة بالمجاهدين الشبان للمناطق المسلمة للقيام بعمليات القتل، وقام جناح (VHP) بتوفير التعبئة السياسية والتنظيمية. وقد ذهب رئيسها الذي يعمل على المستوى الدولي لأن يسمي المذبحة "تجربة ناجحة" سوف تتكرر في أجزاء أخرى من الهند.

بالطبع عرف الشموليون دائمًا أهمية بناء مؤسسات تجتذب الشباب. والنازيون مثال رئيسي، فبعد أن اكتسبوا السلطة بدأ هيتلر يلقن الجيل التالي، اتجه نحو المدارس يطرد المدرسين ممن يشتبه بمعارضتهم للنظام ويجبر المعلمين الباقين على الانضمام للرابطة الوطنية للمدرسين الاشتراكيين التي كانت ترصد المدرسين في سائر أنحاء ألمانيا وتنظم المعسكرات حيث يتم تدريب المدرسين على أفضل الأساليب الفعالة لتدريس الفكر النازي للطلاب الألمان. كان من المطلوب من الأهالي إلحاق أبنائهم ممن هم في السن من العاشرة إلي الثامنة عشر في منظمة "شباب هيتلر" التي تزايد عدد المنضمين لها من مائة ألف في عام ١٩٣٣ إلى ما يقرب من تسعة ملايين عام ١٩٣٩ ممن تجمعوا حول شعار "فوهرر – نحن نتبع القيادة!"

لقد بذل الشموليون الدينيون جهدًا ضخمًا داخل مؤسستين، حيث ينفق الشباب وقتًا طويلاً: المدارس ومواقع الشبكة الإليكترونية. كانت حركة الهوية المسيحية بارعة على الشبكة، وتميزت مواقعها بالكتب الإلكترونية للتلوين، بها رموز لتفوق البيض وألعاب الكلمات المتقاطعة، بها إشارات عنصرية. وبالبث الإلكترونى لمدة أربعة وعشرين ساعة. وهل تهتم بقراءة أحدث تأملات "إريك رودولف" أو تكتب له وهو في السجن؟ يمكنك أن تجد سجل ما يتصل بذلك من معلومات بالإضافة إلى عدة صور جذابة له في الموقع الإلكتروني "جيش الرب".

على الشبكة كانت دراسات الإنجيل التي تمر بطيئًا كتيار من المساعي الرئيسية تأخذ الطلاب وهم خالين الذهن بشكل أعمق فأعمق إلى نظرية تفوق البيض. كان البيان الهادف في موقع "وزراء هوية المملكة" يقرأ:

ماذا تقدم دراسة إنجيل المعهد الأمريكى للاهوت للتعليم المسيحي؟ إنها تأتي بالفهم وتكشف الحقائق وتفصل ما بين النظريات التي وضعها الإنسان وبين الكتب السماوية. إنها تضع أساسًا صلبًا للعقيدة المسيحية لدى الفرد... واحدة من الطرق الآمنة

لتعليم المسيحية غير الطائفية تكون عن طريق دورة دراسة الإنجيل للمعهد الأمريكي للاهوت.

وبعد عدة ضغطات لاحقة يقرأ الطلاب عن البيض وأنهم السلالة المختارة لدى الرب وأن الأسيويين واليهود والسود لا يستحقون سوى الإخضاع والاستعباد والتدمير.

المدارس هي الساحة الكبرى التى يركز عليها الشموليون الدينيون، ففي منتصف التسعينات من القرن الماضي ارتبطت ستة الأف مدرسة تستخدم أربعين ألف مدرس وتعلم أكثر من مليون طالب بالفرق الوطنية للمتطوعين في الهند. وقد خلص تقرير للمجلس القومي للبحوث والتدريب التعليمي الى أن المقررات التي تستخدمها مدارس كثيرة منها "تهدف إلى تعزيز التحيز الأعمى والتعصب الديني باسم غرس المعرفة الثقافية في جيل الشباب". كانت الكتب المقررة تحتوي على خرائط للهند تضم باكستان وبنجلادش وبوتان ونيبال والتبت وأجزاء من بورما, وتدرس الحروف باستخدام الرموز الهندوسية : أ كما في "أرجونا" – ب كما في "بجاواد جيتا" وهكذا، وكانت الحروف التي ليس لها مثال في أي رمز من الرموز الهندوسية لا تدرس.

إن المؤسسات تتطلب المال، والمتطرفون الدينيون يقومون بوضع أهم استثماراتهم فيها. لقد قامت شبكة مالية ملتزمة بنسخة عدوانية من الفكر السلفي الإسلامي بتغيير العالم الإسلامي في ربع القرن الأخير، ويصر هؤلاء السلفيون على أن المسلم الحقيقي هو من يتبع أنقى الممارسات الإسلامية التي تقوم على أساس المفهوم التخيلي الذى يتصورونه للمجتمع الإسلامي المبكر. ويسعى السلفيون بنشاط لتدمير أي تنوع داخل الأمة ويعتبرون أي علاقات بين المسلمين والمذاهب الأخرى مكروهًا. كيف أصبح هذا التفسير مسيطرًا؟ لقد قامت مؤسسات خاصة وأثرياء في الخليج الفارسي بتمويل المؤسسات التعليمية وإنتاج أشرطة الفيديو وتدريب الدعاة المسلمين، وتتلقى المجتمعات المسلمة حول العالم الأموال لبناء الجوامع الفاخرة ويرسل أئمة السلفية لتوظيفهم فيها والتأكد من توفر المواد الثقافية الخاصة بهم على نطاق واسع بأسعار زهيدة. ويسمي أحد الخبراء هذه العملية على أنها الاستخدام الأكثر فعالية لأموال التبرعات في العقدين الأخيرين: "إنهم [السلفيون] قد تمكنوا من تحويل معنى الإسلام في السوق العالمي للأفكار لأنه لم يكن هناك أي منافسة ذات قيمة من أي نوع كان."

تؤثر برامج الشباب ذات الإدارة الجيدة تأثيرًا عميقًا على سلوك الشباب، وقد ظهر ذلك جليًا في واحد من المعسكرات الصيفية الذي نظمه متخصص في علم النفس الاجتماعي هو "مظفر شريف". ففي محاولته لبث العداء بين الأولاد في المعسكر قام الباحثون التابعون لشريف بتقسيمهم إلى فريقين أسموهما "الأفاعى" والنسور" ونظموا سلسلة من المباريات الرياضية لبناء تضامن داخل كل من الفريقين وتنمية العداء بين الفريقين. ثم كثف الباحثون هذا الاستقطاب بأن قدموا معاملة تفضيلية لأحد الفريقين. تمت دعوة النسور مبكرًا إلى حفل في المعسكر وأتوا على كل المرطبات المختارة قبل أن يصل فريق الأفاعى، شعر الأفاعى بالغضب الشديد تلى ذلك السباب وبعد قليل تسديد اللكمات.

سعى بعد ذلك الباحثون في أن يعكسوا حالة العداء، وجدوا أن أكثر الأساليب فعالية هي أن يضعوا الشباب جميعهم في موقف حيث لابد لهم فيه أن يعملوا سويًا، فقاموا بتنظيم رحلة للمعسكر حيث تتعطل بهم السيارة، وأصبح على كل فرد من الأولاد أن يساعد سواء بدفع السيارة أو بسحبها ليعودوا للمعسكر، وبعد المشاركة في سلسلة من مثل هذه المشروعات التعاونية تبددت مشاعر العداوة وأبدى الأولاد مشاعر التضامن الشديد.

قرأت مؤخرًا تقريرًا لصحفي هندي عن الفرق الوطنية للمتطوعين وقد أدهشتني حميمية المقال والوصف التفصيلي للحياة داخل المنظمة، وتعجبت كيف عرف كل هذا القدر عنها، وعند النهاية اعترف أنه كان عضوًا فيها أثناء الأربعينات من القرن الماضي عندما كان في سن المراهقة. لقد كان ذلك في فجر عصر الاستعمار وكان يريد أن يكون جزءًا من شئ أوسع من مجرد ذاته. انضم للفرق الوطنية للمتطوعين بسبب أنها بدت الخيار الوحيد بالنسبة للمراهقين ممن لديهم وعي سياسي متزايد، وأنهى المقال بأحد التفاصيل: لم يكن لحزب المؤتمر وهو الأكثر اعتدالاً، جناحًا نشطًا للشباب في هذا المجال.

تفسر هذه الديناميكية ذاتها عالمنا الحالي، لقد وضع الشموليون مواردهم في بناء برامج للشباب، ولم يفعل ذلك التعدديون.

أتذكر حوار مع بروتستانتي عليم في أحد الضواحي الثرية التي تقع في شمال شيكاغو، لقد اتصل بي بعد حديث أدليت به عن أهمية برامج الشباب في المجتمعات الدينية وأدليت باعتراف عن خجل: "أنا وزوجتي نستمتع حقًا في الكنيسة التي نذهب إليها إلا أن ابنتي

تكرهها، وترى أن هذه القداسات مملة وتشكو من عدم وجود برامج حقيقة للشباب. يظل القسيس يتكلم عن بدء إحداها ولكنى أظن أن لديه أولويات أخرى." وقد ظهر كما لو كان يريد أن يقول، "على الأقل نحن نفكر فيها" ثم سألني بشكل عابر "ماذا تقترح أن نفعله؟"

لم أتردد، قلت "تغيير الكنيسة".

نظر إلي بشيء من الذهول، واصلت حديثي "إما هذا أو التأكد من أن تبدأ الكنيسة برنامجًا للشباب تهتم به ابنتك". وفي فكري كانت المسألة مسألة أولويات: هل كان أكثر اهتمامًا بأن تعجب ابنته بالكنيسة أم يعجب بها هو نفسه؟

معظم الأباء يختارون لأنفسهم قبل أبنائهم، وهو اختيار يمكن فهمه تمامًا إلا أننا لا يجب أن نعمى عن العواقب، معنى ذلك أننا سنستمر في إفشال شبابنا المتدين. ولا يسعني إلا التفكير في عدد المراهقين الذين يشعرون بالملل في تجمعاتهم حيث كنائسهم أو معابدهم أو مساجدهم ليس لديها سوى القليل من أجلهم. إن وزير الشباب الذي كان يعجبهم ترك مكانه بسبب التوفير في المي*زانية، وتم إلغاء رحلة "إسكان الإنسانية" لأن المشرف الكبير لم يتمكن في آخر دقيقة من تنفيذها، وأن القسيس أو الأمام أو الأباى لا يمكنه أبدًا أن يتذكر أسمائهم.

الكثيرون من البالغين يعتبرون سرًا أن غياب الشباب عن التجمعات الدينية الرئيسية هو المجرى الطبيعي للأحداث. إذ يرون الصغار مهتمون بأنفسهم وماديون ومناهضون للسلطات أكثر من أن يهتموا بالدين، والنتيجة أن البالغين يتشدقون بالكلام عن أهمية إشراك الشباب في التجمعات الدينية ولكنهم يتخلون عنهم عندما يتعلق الأمر بالفعل ببناء برنامج قوي للشباب وطويل الأجل. إن أنشطة الشباب تحتل عادة المركز الأول بين موضوعات نشرات الجهات الدينية إلا أنها تجيء في السطر الأخير في الميزانية. برامج الشباب تمول في معظم الأحيان من المنح قصيرة الأجل ويكون القساوسة صغار السن أول من يستغنى عن خدماتهم عندما تواجه مجموعة دينية مشاكل مالية.

تبين البحوث الحديثة للعالم الاجتماعي "كريستيان سميث" كم أن هذا الفكر خاطئ، وفي كتابه "البحث عن الروح" يخلص "سميث" أن شبابًا أمريكيون كثيرون يريدون أن يقوم الدين بدور هام في حياتهم إلا أن مجتمعاتهم الدينية تقوم بدور هزيل لإشراكهم. ويلاحظ "سميث"أن المشكلة هى أن التجمعات الدينية تفشل في مساندة برامج الشباب بالقدر الكافي،

وكتب "إن طوائف دينية وتجمعات عقائدية كثيرة للغاية في الولايات المتحدة تفشل بشدة في إشراك وتثقيف شبابها دينيًا."

هل كان كل من "يجال أمير" و"حسيب حسين" و"بنجامين سميث" يريدون عن عمد أن يصبحوا من القتلة؟ وماذا عن أسامة بن لادن؟ هم أيضًا ولدوا وبداخلهم روحًا من عند الله، هم أيضًا خلقوا ليعبدوا وليخلفوا الله على الأرض وأن يخدموا خلقه بشعور من الشفقة والرحمة، فماذا حدث؟

في كل مرة نقرأ فيها عن شاب يقتل باسم الله علينا أن نعرف أن واحدة من المؤسسات قد جندت هذا الشاب ودربته بدقة. وأن تلك المؤسسة قد قامت بذلك بالنسبة للآلاف وربما لمئات الآلاف مثله. وبعبارة أخرى لقد استثمر هؤلاء المتطرفون الدينيون في البرامج الخاصة بشبابهم.

إذا كنا نحن استثمرنا في البرامج الخاصة بشبابنا هل كنا سنصل قبلهم لهؤلاء الشباب؟

الفصل الثامن

بناء النواة الشبابية للأديان

كيف لنا نحن في الولايات المتحدة أن نحتوي الاختلافات ونحافظ على الحياة المشتركة؟

"مايكيل والتزر"

وصلت إلى عتبة بابها وأنا مبلل. كانت الأمطار غزيرة، وكانت ماسحات الزجاج الأمامي في سيارتي قد تعطلت فجأةً. لم أكن أستطيع أن أرى أي شيء وأنا أتجه بسيارتي جنوبًا عند بحيرة "شور درايف" نحو شقتها في "ستريتر فيل". كنت مضطرًا إلى أن أخرج رأسي من الشباك لكي أمسك بأحد المساحات وأحركها بيدي صعودًا وهبوطًا لكي أمسح المسطح الكافي من زجاج السيارةالأمامي.

كان "كيفين" يحدثني عن هذه الفتاة منذ سنوات. كان اسمها "شاهيناز" وكانت قد التحقت بكلية الحقوق مع "نيكي" صديقة "كيفين" وفي كل مرة تكلم عنها "كيفين" كنت أتجاهل الكلام. كان يقول لي "أنت تتصرف بحماقة، إنها محامية في مجال الحقوق المدنية وهي جميلة وهندية ومسلمة وتمتلك شقتها الخاصة وعلى الأرجح سوف توافق على مقابلتك بناء على توصيتي. وأنت من ناحية أخرى ليس لديك وظيفة ولا تملك أي شيء غير بعض الكتب عن علم الانسان. ألا ترى أنه عليك أن تحاول تحسين وضعك في هذا العالم وتطلب منها الخروج معك؟" واخيرًا عملت بنصيحته وها أنا الآن مبتل تماما.

ضحكت "شاهيناز" عندما شرحت لها حالة سيارتي. ناولتني منشفة وأشارت لي أن اجلس على أريكة في الغرفة. جلست ونظرت إلى أعلى ووجدت نفسي أفكر في قصائد تصف بالجمال العميق وتشيد.

تكلمنا عن وظيفتها كمحامية في مجال الحقوق المدنية. كان معظم عملائها من بين الأقليات الفقيرة ممن لهم صحيفة حالة جنائية مطولة وممن تم ضربهم على يد رجال شرطة مدينة شيكاجو. قالت "شهناز" بشكل قاطع "كل شخص له حقوق في هذا البلد. وهذا ما يجعل الأمر عظيمًا. فإذا تركنا حقوق مجموعة واحدة تتأكل فإننا بذلك نعرض بقاء هذه الحقوق ذاتها للخطر بالنسبة للجميع."

كانت تعمل في قضية جديدة: تعرض مؤسسة للمساجد لمضايقات من جانب مجلس الضاحية وكانت تقوم بتحضير دعوى متعلقة بالتعديل الأول/ التمييز على أساس الدين .. قالت "عندما يكون أبناء عشيرتك هم من يتعرضون للاضطهاد تستطيع أن تدرك حقـًا أهمية الدستور بالنسبة لكل الناس."

خرجنا لتناول فطائر "الدوسا" في "ميسور" في جادة "ودلاندزأون ديفون"، أكلنا بأيدينا وضحكنا على شكل الحياة عندما ينشأ المرء في الضواحي الغربية لمدينة شيكاجو ومن والدين مسلمين من الهند. كانت تذهب إلى المدرسة الثانوية في منطقة "نابرفيل" على بعد خمسة عشر دقيقة عن المكان الذي نشأت أنا فيه، من الراجح أننا مررنا بجانب بعضنا البعض في دار سينما "أوجدين سيكس". وقد تخرجنا من المدرسة الثانوية بفارق سنة واحدة وتزامنا في جامعة "إلينوي". سألتها ونحن نحتسي الحليب المضروب في مقهى" زفير": "ألم تقرني أبدًا عمودي في صحيفة إيلينوي اليومية؟" فردت القذيفة "وأنت ألم تأتِ أبدًا إلى أي من اجتماعات منظمة الطلاب الهنود؟" قررت أنه كان من الأفضل عدم تعرفها بي أيام الجامعة.

كانت ليلة يوم عمل وفكرت أنه ربما وجب عليَّ أن أصطحبها إلى منزلها. لكني لم أكن أريد أن أفارقها. فقررت أن أجرب حظي. قلت لها "إن 'كورت الينج' سوف يغني في 'جرين ميل' الليلة. ألا تريدين الذهاب؟

"ردت بنعومة: "لا مانع."

كان ذلك يوم الأربعاء. في يوم الخميس تناولنا وجبة "تشاو فون" في مطعم "هونج مين" "في الحي الصينى" وذهبنا لمشاهدة "توماس مابفومو" و"بلاكس أنليميتد" في "هوت هاوس". في يوم الجمعة شاهدنا فيلم "جيرل فايت"، وفي يوم السبت تناولنا فطيرة على الطريقة التايلاندية في محل "روسديد" في ساحة لينكولن وشاهدنا فرقة "فانكاديسي". قابلت صدفة أثناء العرض أشخاصًا ممن أعرفهم من أيام الجامعة وسألوني "هل هي معك؟" جاوبتهم "نعم" بصوت عالي حتى تتمكن من سماعي. لم تلتفت ولكني اعتقد أني رأيتها تبتسم.

سرنا في الخارج، رأت القمر، سحبت يدها من يدي ومسحت وجهها بكفها وهي تهمس الشهادة: "لا إله إلا الله محمد رسول الله."

أول شيء فعلته فور عودتي إلى أكسفورد كان إخطار مالك شقتي أني سوف أنهي عقد

الإيجار، ثم اتصلت بـكيفين وقلت له "سوف أرجع قبل رأس السنة."

قال "لكنك غادرت لتوك."

قلت له :"لقد قابلتها، سأعود إلى شيكاجو."

هل كانت شيكاجو مدينة قاتمة؟ ما هذا الذي كان "سول بيلو" يتحدث عنه؟ عدت لأجدها مدينة حية - مدينة أصحاب الياقات الزرقاء يتغير شكلها على يد فنان، مدينة أمريكية تتخذ وضعها في العالم، مدينة لا تخاف من تزيين تماثيل للبقر وتسميتها بـالفن الجماهيري، مدينة كان جزء منها مثل "إنديانا" والجزء الثاني مثل "مانهاتن".

كان وقت رجوعي إلى شيكاجو يزخر بـالأحداث. كان كل من فرق مثل "ذا كابس" و"سوكس" و"بولز أن بيرز" قد أتى لها مدرب جديد ـ اثنتان منها كانت من السود، وواحدة من اللاتين. وقد تخلص منتزه "ميلينيوم بارك" من حفرة الطين الكبيرة في جادة "ميتشيجان" ليحل محلها ملعب حضري تشعر أنه جزء من وسط المدينة وفي نفس الوقت جزء من عالم بعيد. في بدروم في الحي الجنوبي كان "كاني ويست" يطبع الإيقاعات ويتمرن على الأغاني ويحلم بـطبقات جديدة في "هيب هوب". وفي بدروم آخر لا يبعد عنه كثيرًا كانت تجرى حملة انتخابية لعضوية مجلس الشيوخ وكان واحد من السياسيين المحليين يسمى "باراك أوباما" على وشك أن يصبح بطلاً وطنيًا.

أحببت آلاف الأشجار والورود التي زرعها المحافظ. أحببت الطريقة التي تتحرك بها الشمس فوق البحيرة في يوم شتاء بارد. أحببت اليهود الروس والمسلمين الباكستانيين الذين يمضون فترة بعد الظهيرة كل خميس فوق مقاعد المنتزه في جادة "ديفون أفينيو". أحببت النساء اللاتي يملأن الممر الواقع بين مطار "أوهير" وخط " البلو لاين" المتجه للمدينة بـالأغاني الإنجيلية.

تذكرت "لويس آرمسترونج" الذي توقف لكي يستمع إلى مجموعة من عازفي موسيقى الجاز وهم يعزفون مقطوعة "ستراتين ويذ سوم باربكيو – Struttin with Some Barbecue" فقال لهم "إنتم تعزفونها بـبطء شديد."

فسأله واحد منهم بازدراء "و من أين لك أن تعرف ذلك؟"

رد عليه : "أنا لويس آرمسترونج وهذا اللحن أنا الذي وضعته."

في اليوم التالي مر من نفس المكان ورأى إعلانـًا علقه العازفون ومكتوب عليه: تلاميذ لويس أرمسترونج.

لقد تطورت موسيقى الجاز في هذه المدينة. أصبحت موسيقى البلوز كهربائية هنا. وواحد من أفراد فريق "بادي جاي" الأصليين مازال يقدم عرضـًا كل ليلة من الأسبوع تقريبًا طوال شهر يناير في ناديه ويسمى "ليجيندز".

ذهبت إلى حلاقي القديم وهو واحد من العراقيين، فرضت عليه الحرب في جيش صدام حسين في حرب الخليج وقد أعطي له حق اللجوء السياسي في الولايات المتحدة. أتى ابنه بالقرب مني وهو يلقي السترة حول كتفاي. كان الصبي يريد أن يبين لأبيه خدعة جديدة على جهاز "جيم بوي" الخاص به. قلت لأمير: "يا إلهي أهذا هو " دكستر"؟ "لقد كان في الثالثة من عمره عندما أتيت إلى هنا آخر مرة كان طفلاً صغيراً خجولا والآن أصبح له شعرًا كثيفـًا مموجاً وعينين واسعتين بأهداب عربية طويلة. سألت "دكستر" عن مدرسته وعن أجداده، بعدها وجدت أن حلاقة شعري قد اكتملت .

سمعت من يقول "مرحبًا يا إيبو." كان صوت فتاة سوداء ناعم ولكنه لا ينم عن الخجل. كنت أمضغ سندويتش فلافل صنعه بقال فلسطيني بالقرب من مدرسة "كوارتو أنيو" حيث عملت في أول وظيفة لي كمدرس. سألتني بصوت مرح "ألا تتذكرني؟", ثم واصلت الكلام "أنا روكسان. أنت كنت مدرسي في الفصل الدراسي الثاني هنا." قالت ذلك وهي تشير إلى مبنى المدرسة. ثم قالت وهي مبتسمة "حصلت على شهادة تطوير التعليم العام وحصلت على وظيفة الآن. وابني بخير وهو في مرحلة ما قبل المدرسة."

استيقظت في صباح ذات يوم وأخرجت جريدة "شيكاجو تريبيون" من لفافتها الزرقاء، وجدت قصة جعلتني أدمع، قائد الأوركسترا السيمفوني في شيكاجو "دانيال بارنبويم" - وهو مايسترو إسرائيلي أرجنتيني- حضر تجمعًا طلابيًا في مدرسة في الأراضي الفلسطينية وهناك عزف على البيانو. ببساطة أتى بموهبته إلى مجموعة من الطلبة الذين لا يتلقون سوى القليل في رسالة إليهم معناها أنهم هم أيضـًا يستحقون الجمال.

خرجنا أنا و"كيفين" من الخط الأحمر للمترو في محطة "فولرتون". سألني "هل تتذكر ما قلته لك هنا منذ خمسة أعوام؟ لقد قلت لك أني سوف أترك الدراسة في الجامعة وأني سوف

أعمل بالشعر. سألتك إن كنت ترى أني قادر على النجاح كشاعر." تذكرت أن "كيفين" كان في ذلك الوقت قد تمت دعوته للمشاركة في جزء من برنامج "دف بويتري" الذي يذاع على شبكة "هوم بوكس أوفيس-HBO". كان يتكسب عيشه من الشعر – يؤدي أشعاره في مقار الجامعات ويدرس في ورش عمل في المدارس الثانوية كما ينظم مسابقات شعرية في المراكز المجتمعية – منذ سنتين الآن، كان حينذاك يعمل على نظم قطعة شعرية جديدة عن شيكاجو وكان يريد أن يقرأها لي.

سمع القانمون بتنظيم إفطار وصلاة القياديين الذي يقيمه المحافظ سنويًا عن النواة الشبابية للأديان ودعوني إلى هذه المناسبة لأداء صلاة المسلمين. ولسبب أو آخر كان مقعدي بجوار مقعد المحافظ. سألني "هل أنت هندي؟" ثم واصل "إبنتي أمضت مؤخراً ستة شهور في ولاية كيرالا." ثم قضينا العشرين دقيقة التي تلت هذا السؤال في الكلام عن الهند. عندما أتى النادل لكي يصب له المزيد من القهوة قال له المحافظ "دالي" "لا شكرًا يا أوسكار." حدقت النظر إليه. كيف لمحافظ ولاية شيكاجو أن يعرف اسم الشخص الذي يصب القهوة في أبراج هيلتون؟ هز كتفيه وقال "كنت أنا وهو نذهب معًا إلى المدرسة الإبتدائية."

الوطن. هو المكان الذي لا يحتاج فيه الحلاق لأن يسألك ماذا تريده أن يفعل بشعرك. حيث تصاحبك الموسيقى التي تحبها طوال العمر. حيث تشعر بالفخر يملؤك لتاريخ المواطنين الأوائل فيه. هو حيث تتحقق أحلام أصدقائك المقربين. حيث يتعرف عليك طلابك السابقين في الشارع. هو قطعة من الأرض التي ساعدت يداك علي تشكيلها.

اعتادت شيكاجو على تحويل الأحلام الكبيرة إلى واقع. فعلى الحي الغربي القريب من هذه المدينة أنشأت "جين أدامز" الصغيرة "هال هاوس" وهو "كاتدرائية الإنسانية" للمهاجرين الجدد وقد أصبح رمزًا ومعملاً لإدماج الوافدين الجدد داخل الديمقراطية الأمريكية. بعد ذلك ببضعة عقود، في الحي الجنوبي لشيكاجو، قام قيادي شاب متهور يسمى "شاول الينسكي" بتطبيق الأساليب المستخدمة في النقابات العمالية على الأحياء، ومن ثم أصبح بناء ما يسمى "المنظمات المجتمعية" حيث عمل عامة الناس معًا للمطالبة بحقوقهم من المشاريع التجارية الراسخة ومن النخب السياسية. وهنا بدأ أول برلمان لأديان العالم في عام ١٨٩٣. مما أشعل حركات تجمع الأديان في الغرب. وفي شيكاجو حيث ساد شعار "لا لوضع الخطط الصغيرة"

أعلن أحد القياديين في البرلمان أنه "من الآن فصاعدًا لن تعلن أديان العالم العظيمة الحرب ضد بعضها البعض ولكنها ستعلنها بدلاً من ذلك على الأمراض البشعة التي تصيب كل الجنس البشري ."

كان "جيف بينزينو" وهو صديق لي من الجامعة أول من أدخل رؤية النواة الشبابية للأديان إلى شيكاجو. كان قد رأس مشروع الإسكان من أجل الإنسانية معي في "حيدر أباد" في الهند في يناير عام ٢٠٠١، ورأى بشكل مباشر كيف يؤدي تقديم الخدمات إلى بناء التفاهم بين الناس من أصحاب الخلفيات الدينية المختلفة. عاد إلى شيكاجو وقد صمم على إنشاء مؤسسة لنواة شبابية تجمع الأديان. وكما كان يفعل في كل شيء آخر يتولاه أعطى"جيف" هذه الخطوة كل جهده. ترك وظيفته وترك "ستون سوب" (وهو تجمع الفنانين والنشطاء الذي كنا قد أنشأناه سويا في عام ١٩٩٧ حيث عاش لمدة أربعة أعوام تقريبًا) وبدأ يجمع شبكة من المساندين للنواة الشبابية للأديان. أرسى "جيف" العمل الأساسي لمشروعين للنواة الشبابية للأديان وقد بقيا مستمرين حتى الآن: مجلس شباب شيكاجو المكون من طلاب من أديان مختلفة يجتمعون أسبوعيًا للقيام بمشاريع خدمية ويشتركون في التفكر الديني)، وفي يوم الخدمة لشباب الأديان - الذي يجمع بين مئات من الشباب من مختلف الأديان للقيام بمشروع خدمي واسع النطاق ينفذ في يوم واحد. وقد مول معظم العملية من بطاقته الائتمانية الشخصية.

أمضيت الأشهر الأولى من عام 2002 لاستكمال بحثي ونجحت في الامتحان الشفهي وحصلت على درجة الدكتوراه في شهر يونيو وقد تزامن ذلك مع الوقت الذي شعر فيه "جيف" أن مهمته مع النواة الشبابية للأديان قد انتهت. فقد عرضت عليه وظيفة في مؤسسة كانت منبهرة بخبرته كمنسق مجتمعي وروحه الوثابة في ريادة الأعمال التي بدت عليه عندما أرسى قاعدة العمل للنواة الشبابية للأديان في شيكاجو. جاء عليَّ الدور لأحافظ على القوة الدافعة التي صنعها "جيف". وظيفتي كانت في الأساس أن أحافظ على عمل مشروعي مجلس شباب شيكاجو ويوم الخدمة لشباب الأديان وتوسيع شبكة علاقتنا لكي تتضمن الزعماء الدينيين والعلماء والصحفيين; وتأمين التمويل للمنظمة. كنت أدعو لكي أصل إلى اليوم الذي يصبح فيه عملي في النواة الشبابية للأديان هو وظيفتي الأساسية. في هذه الأثناء عملت كأحد أعضاء هيئة التدريس في برنامج الدراسات الحضرية حيث درست في دورات تدريبية عن الدين لطلاب

من الكلية الليبرالية للفنون من المنطقة الغربية الوسطى خلال فصل دراسي مكثف واحد في شيكاجو.

من أول الأشياء التي قمت بها كان الإتصال بكبار قادة الحركة الاجتماعية والمثقفين في شيكاجو. فإنه لكي تنجح أي حركة جديدة لابد لها أن تتعلم من الحركات الناجحة السابقة. التقى بي "بيل أيرز" في السابعة صباحا في مقهى "جورمان كافيه" في منطقة "ساوث لوب" وقدم لي نصيحة ثمينة: "عليك أن تجد القصص الصغيرة التي تروي القصة الأكبر لحركتك وإبدأ دائمًا بإحداها."

اكتشفت أن"مارتن مارتي" وهو واحد من أهم علماء أمريكا في الدين سيلقي كلمة في حفل في ليلة من الليالي. اشتريت تذكرة بستين دولارًا وتمركزت خارج قاعة الحفل وربطت على كتفه عندما مر من أمامي. قلت له "بروفيسور مارتي، أنا اسمي" ايبو باتل"، وأنا أنشئ منظمة تسمى النواة الشبابية للأديان وهي مبنية إلى حد كبير على أساس نظرياتك الخاصة ببناء التعددية الدينية. لقد دفعت ستين دولارًا من أجل تذكرة لهذا الحفل حتى أستطيع أن أقدم نفسي إليك فهل تعطيني نصف ساعة من وقتك كي أقول لك المزيد؟" بعد أسابيع قليلة التقينا لفترة امتدت طوال بعد الظهيرة، وتكلمنا عن أهمية المجتمعات الدينية, "المخاطرة بحسن الضيافة" إزاء بعضنا البعض. أصبح حسن الضيافة أول قيمة مشتركة تضع لها النواة الشبابية للأديان منهجا دراسيا.

رأى "رون كينامون" وهو مدير سابق في جمعية الشبان المسيحية مقالاً عن النواة الشبابية لتجمع الأديان في صحيفة "شيكاجو تريبيون" ودعاني إلى تناول الغذاء معه. تكلمنا لعدة ساعات عن نموذج جمعية الشبان المسيحية لتنمية القيادات الشابة والتغيرات في التركيبة السكانية الدينية في أمريكا. قال لي "نحن هنا في أمريكا نعرف كيف نكون مجتمعًا يهوديًا مسيحيًا ولكننا لا نعرف شيئًا عن العيش في مجتمع متعدد الأديان، أعتقد أنه سوف يكون الشباب من يقودونا تجاه هذا الواقع الجديد، وأعتقد أني عثرت لتوي على المنظمة الرائدة لهذه الحركة."

رأى "مايك أيفرس"- وهو قس كاثوليكي سابق وكان يدير منظمة مبنية على أساس ديني تسمى "جود سيتي"- رأى أن النواة الشبابية للأديان هي الخطوة التالية في تراث حركات العدالة

الاجتماعية في شيكاجو. قال لي "عليك ببناء قاعدة منظمتك هنا يا صديقي وما أن تتقن النموذج تستطيع نقله إلى العالم مختومًا "صنع في شيكاجو". لقد خدمت جود سيتي كوكيل مالي لبعض المؤسسات المسيحية غير الهادفة للربح تقدم لهم الهيكل المالي اللازم أثناء سنوات نموهم. وكانت النواة الشبابية للأديان أول منظمة غير مسيحية تساعدها "جود سيتي". قال "مايك" لأعضاء مجلس الإدارة الذين كانوا يشعرون بشيء من القلق تجاه هذه الخطوة "إن عمل تجمع الأديان هو عمل المسيح، هذا هو مستقبل الكنيسة ،هذا هو مستقبل المدينة."

زرت "مارجوري بنتون"- وهي واحدة من أفضل المحسنين في أمريكا من حيث تقدمها الفكري - وذلك في بيتها الجميل في ضاحية" إيفانستون". قالت لي "لا تهمل جمع التبرعات. المال هو وقود المنظمات القوية. كلما بكرت في بناء قاعدة تمويل سوف يصبح الأمر اسهل لك ولنمو منظمتك." وبذلك لمست الجانب الوحيد الأكثر إحباطـًا في بناء النواة الشبابية للأديان.

كانت أولى غزواتي لعالم مؤسسات التمويل غير موفقة بالمرة. معظم موظفي البرامج لم يردوا مكالماتي الهاتفية أو رسائلي على البريد الإلكتروني. عندما حددت أخيرًا بعض المقابلات اكتشفت مدى مهارة موظفي البرامج في الرفض. كانوا يستمعون بأدب لعدة دقائق ثم يوجهون بعض الأسئلة التي تناقش مشاكل تشغل بالهم، وبالنسبة لمعظمهم كان أي شيء يتناول الدين أمرًا منتهيًا. كانوا يشكلون جزءًا من مدرسة الفكر الليبرالي الحضري التي سبق أن توقعت أن يتحول الفاتيكان قريبًا إلى ديزني لاند في روما. قال لي أحدهم أني احتاج إلى خطة عمل كي يأخذني الناس على محمل الجد. واقترح عليَّ آخر أن أسجل أشرطة فيديو للبرامج التي أدارتها النواة الشبابية للأديان في الهند وجنوب أفريقيا وعرضها على المانحين من القطاع الخاص. وسألني ثالث عن كيفية تعامل النواة الشبابية للأديان مع قضية التوجهات الجنسية أثناء عملنا. وطلب رابع أن يعرف إذا كان لدينا إستراتيجية لتوظيف الشباب.

لم يُعِر أحد منهم أي اهتمام إلى الفكرة العظيمة النواة الشبابية للأديان – حلم الشباب الذين يبنون التعددية الدينية. سرعان ما وضعونا في قالب برامج العلاقات الإنسانية الناعمة هذا النوع من الأشياء التي تقام في كافيتريات المدارس الثانوية وتضم الأمهات الأعضاء في جمعية الآباء والمعلمين وتتخللها أغاني المخيمات. اقترح علي شخص من المتخصصين في

المؤسسات وهو يشيعني لخارج مكتبه."أتعرف، كل ما عليك هو أن تجمع التبرعات المحلية لبرامجك."

كانت عندي رغبة جامحة في أن أمسك به من سترته وأقول "هل تعتقد أن أسامة بن لادن بنى القاعدة من مال بيع المخبوزات؟"

بعد شهور من الإحباط قابلت أخيرًا شخصًا معني بالمؤسسات استطاع أن يرى إمكانيات النواة الشبابية للأديان. كانت "زهرة القسام" شابة مسلمة تعمل في مؤسسة فورد وحاصلة على شهادة من كلية الدراسات العليا في جامعة هارفارد وفهمت على الفور رؤية ومنهجية النواة الشبابية للأديان. سألتني أسئلة ذكية عن كيفية تخطيط النواة لتوسيع نطاق عملها وقياس فعاليتها. رسمت لها الخطوط الأولية لأفكاري في كل من الموضوعين ثم قررت أن أجازف. قلت لها "أنا أشعر أن الأشخاص في المؤسسات دائما ما يسألونني أسئلة تهدف لإحباطي. والآن النواة الشبابية للأديان هي مجموعة من الشباب الملتزم ممن أداروا وبشكل فعال كثيرًا من المشاريع الشبابية عن الأديان حول العالم, ويقومون ببناء مجموعة من البرامج المستدامة في شيكاجو. كنا نتمنى أن نقول لكم أننا نعرف بالظبط كيف نقيس ونتوسع في برنامجنا, لكن كيف لنا أن نعرف ذلك وليست لدينا الموارد الكافية لإدارة البرنامج بصورة صحيحة في المقام الأول؟"

كانت زهرة مساعدة فى برامج في مؤسسة فورد وهي واحدة من مجموعة من الخريجين الجدد الموهوبين الذين يخدمون أساسًا كموظفين في البحوث والدعم لمسئولي البرامج. لكن دائرة زهرة من مساعدي البرامج كان لهم أيضًا أرائهم الخاصة فقد أدركوا أن مسئولي برامج فورد كانوا يميلون تجاه تقديم المنح إلى الأشخاص والمنظمات التي يربطهم بها نوع من العلاقة الشخصية. والحقيقة أنه ما لم تكن تدير منظمة ذات إسم كبير, فإن فرصتك الوحيدة في الحصول على منحة من مؤسسة فورد هي عن طريق جذب إنتباه أحد مسئولي البرامج. كان هذا يعني أن تعرف مسئول البرنامج شخصيًا أو أن تعرف شخصًا يعرفه.

كان مساعدي البرامج - بما أنهم أصغر سنًا - يحاولون دائمًا جعل مسئولي البرامج الذين كانوا يعملون معهم يساندون الفنانين والنشطاء من أبناء جيلهم. لكن ولأن مسئولي البرامج لم يكونوا يعرفون هؤلاء شخصيًا نادرًا ما كانت هذه المساندة تتحقق، ولذلك توجه مساعدي

البرامج إلى أحد نواب رئيس مؤسسة فورد وطالبوا بحصة لهم من التمويل بنية بحيث يقدمون المنح بأنفسهم. وهكذا ولد برنامج "الأصوات الناشئة - الاتجاهات الجديدة". وفي صيف عام ٢٠٠٢، اتصلت زهرة لكي تقول لي أن النواة الشبابية للأديان مرشحة للحصول على منحة قيمتها 35,000 دولار.

كنت أعرف أن هذه كانت فرصة أن تكون أو لا تكون بالنسبة للنواة الشبابية لتجمع الأديان، لذلك فعلت ما كان سوف يفعله معظم إداريين المنظمات غير الربحية في مرحلة اليأس: قدمت وعود زائدة. من أجل 35,000 دولار, قلت لزهرة أن النواة الشبابية للأديان قد تستطيع أن تدرس دورة على مستوى الدراسات العليا عن نظريات وممارسات عمل الشباب في الأديان وإدارة مؤتمر وطني يجمع بين قادة مختلف المشاريع الشبابية للأديان من جميع أنحاء العالم لينظروا معًا في أفضل التجارب. هذه المشاريع - كما قلت لزهرة- كانت أساسية بالنسبة لنا في حقلنا الناشئ، وأن النواة الشبابية للأديان لديها القاعدة المعرفية والشبكات لتنفيذ هذه المهام.

عندما تم استكمال منحة مؤسسة فورد اتصلت مبتهجا بصديقي "جو هول" وأعطاني نصيحة ذهبية: منحة من مؤسسة هامة قد يكون ثمنها ثلاثة أضعاف المبلغ الحقيقي المكتوب في الشيك إن استخدمتها بأسلوب رشيد وتأكيدًا لكلامه حالما قلت لمسئولي البرامج في مؤسسات شيكاجو أن فورد تمول النواة الشبابية للأديان أصبحوا يعيروني اهتمامًا بطريقة جديدة تمامًا، وفي غضون شهور تلقينا منح من "وودز فاند" في شيكاجو ومن "جماعة شيكاجو الائتمانية". وبعد سنتين من تحرك عجلاتنا في عالم التمويل جمعنا أكثر من 100,000 دولار في بضعة شهور.

الآن كان علينا أن نجمع الفريق المناسب. بسبب وظيفتي كمدرس كنت أحصل على راتب شهري صغير من المنظمة في أول سنة، وبدأنا "جيف" وأنا في البحث عن موظف بدوام كامل. لم يكن أي منا قد قام بتعيين أحد من قبل، ولم يكن لدينا أي فكرة عن المعايير التي سوف نقيم على أساسها المرشحين أو كيفية السير في العملية ذاتها. وقال لي "جيف" وهو يفكر في الكم الضخم من العمل الذي التزمت به النواة الشبابية للأديان "أيا من كان الشخص الذي نعينه يجب أن يحب مهمتنا ولا يحتاج أبدًا إلى النوم."

في النهاية أتت إلينا. "أبريل كونز" كانت مشاركة في بعض اللقاءات الشبابية للأديان التي كان "جيف" ينظمها عندما بدأ في إنشاء النواة الشبابية للأديان في شيكاجو. كانت قد سمعت عن

مؤتمر للأديان في البرازيل واتصلت لترى إن كانت النواة الشبابية لتجمع الأديان يمكن أن تتكفل بمصاريف ذهابها.

"أنا اعلم أن هذا طلب غريب." هكذا قالت لجيف عندما اتصلت. "أنا أقصد أنه في آخر مرة تحققت من الوضع المالى النواة الشبابية للأديان كان لديكم ٧٤ دولار في حسابكم المصرفي."

رتب "جيف" مقابلة بيننا نحن الثلاثة وتم الرد على طلب بعيد المنال بطلب مماثل. قلت لأبريل "هذه هي الصفقة. في الواقع أن النواة الشبابية للأديان لديها بعض المال الآن ونستطيع ارسالك إلى هذا المؤتمر في البرازيل ولكن هناك شرط واحد: يجب أن تذهبي كموظفة لدينا."

قالت ببطء "لست متأكدة أني افهم ما تقصد بالضبط" بينما كانت تنظر إلينا بدقة لكي تعرف إذا ما كنا نمزح.

قلت لها عن منحة مؤسسة فورد وما تلاها من تمويل من شيكاجو والمهمة الضخمة التي كانت على عاتقنا.

كان ردها "قل لي المزيد عن الوظيفة التي تريد تعييني فيها." "ما هو توصيف الوظيفة؟" ثم أطلقت سيلاً من الأسئلة الأخرى عن "البيئة المهنية" و"فرص الترقي الوظيفي." كان من الواضح أن "أبريل" لديها خبرة أكثر مني أنا و"جيف" في مثل هذه الأمور.

شعرنا بشيء من الضياع. لم نفكر حقـًا في أي من هذه الأشياء. قال لها "جيف": " أساسًا سوف تكونين أنت و"إيبو" مسئولان عن إدارة المشاريع وإرساء البنية التحتية لهذه المنظمة. "ايبو" هو المدير التنفيذي لكن لديه وظيفة بدوام كامل كمدرس. لذلك سوف تحملين جزءًا كبيرًا من العبء."

تركت "أبريل" العمل في وظيفة رائعة في أحد المؤسسات لكي تصبح أول موظفة مدفوعة الأجر وبدوام كامل في النواة الشبابية للأديان براتب يوازي نصف ما كانت تتقاضاه. كان هذا في رأيي أكبر الفرص للنواة الشبابية للأديان في تاريخها كمنظمة. جلبت "أبريل" مجموعة غير معقولة من المهارات إلى النواة الشبابية. وضعت الميزانيات وبنت أرفف الكتب وكتبت مقترحات المنح وأدارت جلسات التخطيط الاستراتيجي وعينت وأدارت العاملين (وطردتهم عندما تطلب الأمر ذلك) وقامت بتصميم برامج للشباب واحتفظت بروح معنوية

مرتفعة. عندما كنت أتغيب لإلقاء الخطابات كانت "أبريل" تبقى في المكتب لتضع قاعدة بيانات لحفظ الأسماء التي جمعتها. وعندما بدأت دعوات وسائل الاعلام في الوصول, اقترحت "أبريل" وضع خطة عن كيفية استخدام وسائل الاعلام لبناء حركة النواة الشبابية للأديان. وعندما أرسلت لها في منتصف الليل رسالة قلقة بالبريد الالكتروني عن تقرير خاص بمنحة كنت قد نسيته, وصلني رد في الساعة الخامسة صباحًا تقول فيه أنها قد قدمته بـالفعل. كانت تجسد تلك التركيبة الفريدة فهي صاحبة بصيرة نافذة، تقود الفريق، ومديرة خبيرة – رائدة أعمال اجتماعية بـكل معنى للكلمة. وعندما كان يطلب مني المديرون التنفيذيون الشبان للمنظمات غير الربحية الجديدة النصيحة أقول لهم هذا: حاولوا العثور على الشخص الثاني الذي يستطيع أن يكمل المهارات وتستطيعون ائتمانه على حياة طفلكم. اعطوا هذا الشخص أي شيء يريد سواء كان الراتب أو لقبـه في العمل أو الأجور الإضافية. فمنظمتكم لن تستطيع البقاء بدون هذا الشخص.

علاوة على مهارات" أبريل " كان قلبها هو الذي جعلها مناسبة تمامًا للنواة الشبابية للأديان. كانت فخورة بـكونها مسيحية إنجيلية لكنها كانت تشعر بـالراحة تجاه ما كان يعنيه هذا اللقب في أمريكا المعاصرة. كانت قد قضت طفولتها في "مينيسوتا" في ترديد تراتيل المديح والذهاب إلى مخيم الكتاب المقدس والذهاب إلى رحلات تبشيرية في أفريقيا. كانت أمها قد تبنت عدة أطفال بناء على اعتقادها أن كونها مسيحية يعني أن تقدم ما تستطيع إلى الأقل منها حظًا. كانت عائلة " كونزي" بعيدة عن الثراء, لكن بيتهم كان يتسم بالأمان والمحبة; وكانت طريقتهم في الخدمة هي دعوة الناس إليه.

كانت "أبريل" قد التحقت بجامعة "كارلتون" وانتخبت كرئيسة لمجموعة المسيحيين الإنجيليين في مقر الجامعة. كانت على قائمة البريد الإلكتروني للقادة الدينيين في "مينيسوتا", وفي يوم من الأيام تلقت رسالة من إمام مسلم في "مينيابوليس" قد تعرض مسجده للحرق في جريمة من جرائم الكراهية. كان الإمام يعتقد أنه سوف يكون بـمثابة مثالاً قويًا إن تعاونت المجموعات الدينية من كل أنحاء مينيسوتا لكي تساعد في إعادة بناء المسجد. وافقت" أبريل" وبدأت تعد مجموعتها في الجامعة لجمع المال والتطوع في بناء المسجد، إلا أن عددًا من الأعضاء ثاروا وقالوا أنها كانت إشارة سماوية أن يحرق المسجد، وهي توضح للمجتمع المسلم أن الله غاضب منهم بـسبب "عبادتهم للشيطان" كما قال أحدهم. وأن مهمة المسيحي في هذا

الموقف هو إظهار الطريق الصحيح لهؤلاء الناس وليس مساعدتهم على إعادة بناء صرحهم الزائف.

لم تستطع "أبريل" أن تصدق أذنيها. حاولت محاربة هذه الأفكار لكنها فشلت. تم عزلها من منصبها كرئيسة المجموعة. "إن كان هذا ضروري لأكون جزءًا من مجموعة مسيحية فإني لا أريد ها" هذا رأي "أبريل". احتفظت بنور المسيح مضيء داخل قلبها لكنها رفضت أن تشترك في أي شيء له علاقة بالمسيحية المنظمة. وجهت كل طاقتها تجاه العمل في مجال العدالة الإجتماعية. عندما تخرجت من الجامعة انتقلت إلى شيكاجو وانضمت إلى الحلفاء العموميون "بابليك ألايز" وهو برنامج للقياديين حيث يتم إلحاق الشباب كأعضاء في طاقم العمل في منظمات مدنية لا تهدف للربح ويشتركون في مشاريع للتنمية المجتمعيه على أساس من العمل الجماعي. بنت "أبريل" سريعًا لنفسها سمعة كصاحبة رؤية وبصيرة في دوائر شيكاجو للنشطاء. تم تعيينها كعضو بارز في طاقم عمل منظمة للتنمية المجتمعية في واحد من أصعب أحياء شيكاجو، وبدأت في إعادة تشكيل برامجها الشبابية ثم إنشاء منظمة شبابية جديدة تمامًا تسمي "كريب كوليكتيف".

لكنها شعرت أن هناك شيئـًا ينقصها في حياتها: تجمع ديني، واكتشفت أن البحث عن العدالة الإجتماعية بعقيدتها هي وحدها هو طريق مستحيل. كانت تفتقد الكنيسة لكنها لم تكن على استعداد لأن تخاطر وتتعرض للرفض الذي لاقته من زملائها المسيحيين عندما حاولت مساعدة المجتمع المسلم. بعد سماع كلام "جيف" عن النواة الشبابية للأديان وهو مكان يصل بين الأديان والعدالة الإجتماعية والتعددية اقتنصت فرصة المشاركة. كانت مشكلتها في مجموعتها المسيحية في مقر الجامعة أنها بدت غير مسيحية بالقدر الكافي بسبب محاولتها مساعدة المسلمين. لكنها الآن كانت قلقة من ظهورها كمسيحية بدرجة زائدة عن اللزوم بسبب إيمانها أن المسيحية دين صحيح فريد وأن المسيح هو الرب والمنقذ. وقد اعترفت بهذا القلق في مقابلتنا الأولى. قلت لها "إني احتفظ باحترام كبير لعقيدتك. أتمنى حقـًا أن تكوني مؤمنة بصحتها وإلا فلن يكون هناك سبب لاستمرارك في الالتزام بها. أنا أؤمن أن عقيدتي صحيحة أيضًا. لذلك فلنعقد اتفاقـًا يمكن لكل منا الإعتقاد بأن ديانته صحيحة ويمكننا أيضًا أن نتمنى سرًا أن يتحول إحدانا إلى عقيدة الأخر ويمكننا أن نعمل معًا في هذه المنظمة لخدمة الآخرين. بهذه

الطريقة نصبح وأنت مسيحية إنجيلية وأنا مسلم متدين نموذجًا لما تعنيه هذه المنظمة: يجد الأفراد المنتمون لأديان مختلفة تمامًا هدفًا مشتركًا يجمعهم لخدمة الأخرين.

في السنة الأولى لي كمدرس كانت مديرة المدرسة ليست لديها أي خبرة تقريبًا في الفصول الدراسية داخل المدن. وكلما اقترحت شيئـًا لهيئة التدريس عن طريقة التدريس, كنا نحرك أعيننا في إنزعاج ونتهامس, "إن كان لديها خبرة ولو بسيطة في التدريس, لما تقدمت بهذا الكم من الاقتراحات السخيفة."

أدركت كم كان من الممكن لي أن اقع في هذا الفخ. قد أنفق كل وقتي في مقابلة مسئولي البرامج والتحدث في الاجتماعات وفي النهاية لا أدير بالفعل أية برامج شبابية للأديان. وبهذا لا أحظى بـأي خبرة شخصية في كيفية التحقيق الفعلي للنظريات التي كنت أنشرها. ربما كنت سأطلب طلبات غير منطقية من العاملين الذين يديرون فعلاً البرامج، وأقدم لهم نصائح قد تبدو جيدة ولكنها في الواقع لا تؤدى لدفع عجلة العمل. وعاجلاً أو آجلاً سوف يقول الناس "هذا الرجل لا يعرف ما يتكلم عنه. إنه لم يقض وقتـًا فعليًا في العمل الحقيقي." وسوف يكونون على حق. أكثر مديري المدارس الذين ينالون إحترام المدرسين هم من كانوا يعملون في الفصول, ويستطيعون تقدير ما يتطلبه التدريس بالفعل. وباتباع هذا النموذج قررت أن أشارك وبشدة في كل برامج النواة الشبابية للأديان في المراحل الأولى من تطويرها.

كان أول ما واجهته من تحديات هو اقناع القيادات الدينية بالانضمام إلينا. التقيت بـأشخاص في اللجنة الأمريكية اليهودية وفي الأبرشية الكاثوليكية في شيكاجو الكبرى وفي مجلس المنظمات الإسلامية في شيكاجو الكبرى, وفي عدد من المؤسسات الدينية الأخرى. كانوا جميعًا مساندين لفكرة التجمع الديني نظريًا وكثير منهم كان فعلاً قد لعب دورًا قياديًا في برامج الأديان للكبار ولكن جميعهم كان قلقـًا من إشراك شبابهم في هذه البرامج. ولسان حالهم يقول "نحن بـالكاد نجد الوقت الكافي لتعليم صغارنا دينهم ذاته. وهذا الأمر ليست له أولوية كبيرة حتى ننفق كل هذا الوقت الثّمين في جعلهم يتعرضون للغير." وراء كل هذا يبدو أنه كان هناك ريبة من أن هذه البرامج بـشكل أو بآخر قد تجعل الأديان الأخرى أكثر جاذبية مما قد يؤدي إلى تحولات جماعية من دين لآخر وأن جحافل من اليهود صغار السن قد يستبدلون "رسالة سيناء" بوضع زهرة اللوتس في اليوجا الهندية وشجرة بودي المقدسة. بعد أن سمعت عن هذا القلق مرة

تلو الأخرى اكتشفت السبب وراء قدرة معظم منظمات الوفاق الديني على جمع القيادات الدينية وفشلها في إقناعهم بجلب مجموعاتهم الشبابية: هناك الحاح قوي في معظم برامج الوفاق الديني على زيادة السلام الروحي والعدالة الإجتماعية بشكل جماعي مما يجعل أهمية التوكيد على تقوية الهوية الدينية يتلاشى. فالقادة الدينيون لا ينتابهم القلق من فقدان هويتهم الشخصية وبالتالي لا يعتبرون أن المشاركة في عمل الوفاق الديني يشكل خطرًا عليهم. لكن لديهم مجموعة أخرى مختلفة تمامًا من المخاوف عندما يتعلق الأمر بشبابهم.

يقول واحد من الكبار في أبرشية شيكاجو: "أنا أحب فكرة التعاون بين الأديان. نحن بالطبع نحتاج إلى المزيد منه في هذا العالم. لكن إهتمامي الأساسي هو أن يصبح الأطفال الكاثوليك كاثوليك أفضل. أريد لهم أن يعرفوا أكثر عن التقاليد الكاثوليكية وأن يكونوا أكثر فعالية في الممارسات والمؤسسات الكاثوليكية. أنظر, أنا أؤمن أن ديني لديه الوليمة. أنا أوافق أن كل الأديان مقدسة ولديها شيئ لتقدمه ولكن الكاثوليكية لديها الوليمة."

قلت له "أنا اتفهم موقفك تمامًا. الحقيقة هي أن معظم الزعماء الدينيين يشعرون مثلك وأنا بالتأكيد أؤمن أن الإسلام لديه شيئا فريدًا وقويًا مما يعطيني سببًا للانتماء له, وأؤمن بأن واحدًا من أهم مسئولياتي كمسلم هو أن أنقل عقيدتي إلى الجيل القادم."رأيته يرتاح قليلاً في جلسته فعن طريق إعلان الالتزام التام لكل منا بدينه وحتى أن يسر كل منا بأن ما يؤمن به هو الأفضل، نكون قد مهدنا الطريق من أجل حوار صريح. لم يكن أحد منا مستاء من التزام الآخر بدينه. بل على العكس لقد أوجد رابطًا مشتركًا: رجلان لديهما إيمانًا عميقًا ويتبعان دينين مختلفين ويتحدثان عن التعاون الديني.

قلت له "المشكلة هي أن شباب هذه الأيام – الكاثوليك والمسلمون واليهود أو أيًا كانوا – لم يعودوا يعيشون فيما يسمي 'قاعة الاحتفالات' لمجتمعاتهم الدينية، إنهم يتعاملون مع أطفال أصحاب خلفيات مختلفة طوال الوقت، فإن لم يكن لديهم طريقة لفهم ما هي صلة دينهم باليهود أو البوذيين أو المسلمين أو الهندوس أو الإنجيليين أو الآخرين الذين يقضون معظم حياتهم معهم فإن هناك احتمالاً كبيرا لأن تضمر هويتهم الدينية."

بدأ يبدي اهتمامه الشديد أعتقد أنه شعر أني وضعت يدي على شيء مهم للغاية: كيف تحتفظ بهويتك العقيدية في عالم يتصف بالتعددية الدينية. شرحت له أن واحدًا من أهم أولويات

النواة الشبابية للأديان كانت مساعدة الشباب على تقوية هويتهم الدينية عن طريق إيجاد حيز آمن لهم لكي يتحدثوا فيه عن العقيدة.

سألني "كيف تضمن أنهم لن يجادلوا فقط حول من سيدخل الجنة؟"

كان ردي "في النواة الشبابية للأديان نسمي مثل هذا الجدال 'الإقصاء المتبادل' فالحقيقة هي أن تراث كل منا الديني به إدعاءات لاهوتية متعارضة وعلينا ببساطة أن نتقبل ذلك. هناك فائدة ضئيلة من مناقشة إن كانت هاجر زوجة إبراهيم للشرعية أم أنها كانت خليلته أو هل كان إسحاق أم إسماعيل هو الذي على الصخرة. وحتى عندما نشعر أننا وجدنا أرضية لاهوتية مشتركة – مثل أن إبراهيم كان أبو اليهود والمسيحيين والمسلمين – نكتشف سريعًا أن حتى لتلك النماذج حدود. هناك مليون من الهندوس في هذا البلد وأكثر من ثلاثة ملايين من البوذيين ولكن لا يوجد بينهم من يمكن تسميته إبراهيمي ولكنهم يعيشون في أمريكا أيضًا وعلينا أن نجد نموذجًا يضمهم."

"إذن فما هو نهج النواة الشبابية للأديان؟"

قلت: "نحن نسمي ذلك القيم المشتركة – تعلم الخدمة" . "نبدأ بتحديد القيم المشتركة بين الطوائف الدينية المختلفة – حسن الضيافة والتعاون والتعاطف والتراحم، ثم نأتي بمجموعة من الصغار من خلفيات دينية متنوعة ونسألهم: "ماذا يقول دينكم عن هذه القيمة؟" سوف يقول أحدهم "حسنا أنا معجب بالكيفية التي جسد بها البابا الرحمة عندما سامح الرجل الذي حاول اغتياله." ويقول طفل من دين مختلف: 'هناك قصة مماثلة في ديني: عندما عاد محمد رسول الله إلى مكة كانت رحمته واسعة بمسامحة من سبق أن أعلنوا الحرب ضده.' "

"هل تحاول أن تعلم الصغار أن كل الأديان واحدة؟" سألني هذا السؤال والشك يكبر بداخله.

أجبت "لا بالمرة. نحن نبين للصغار أن الأديان بها أشياء قوية مشتركة لكنها تصل إلى هذه القيم المشتركة عن طريق مسارها الخاص. لكل دين شيئ فريد يقوله عن هذه القيم الكونية من خلال مجموعته من الكتب المقدسة والطقوس والأبطال. إن هذه منهجية تتجنب" الاختيار بين سيلا وكاربيد "(مثل يوناني يعني الاختيار بين خيارين صعبين). سيلا هي فكرة أننا كلنا متشابهون: أنا أغسل يدي قبل أن أصلي أنت تغسل يدك قبل أن تصلي الباقي مجرد تفاصيل.

نحن لا نؤمن أن هذه هي الحقيقة. نحن نؤمن بـأن الإختلافات بين الأديان أمر مهم جدًا. كمسلم ملتزم بـالتأكيد أريد الحفاظ على أصول ديني. لكنك قد تذهب كثيرًا في هذا الاتجاه إلى أن تلاقي فك كاربيد وهو اعتقاد بأن الإختلافات الدينية كبيرة لدرجة تمنعنا من الكلام مع بعضنا البعض. الطريق الأوسط وهو الطريق الوحيد الذي يضمن النجاة الحقيقية لنا جميعا هو أن نحدد ما هو المشترك بين الأديان مع خلق مساحة حيث يستطيع كل منا أن يوضح طريق دينه الفريد في الوصول لهذه النقطة. أرى أن هذه الطريقة تؤكد الخصوصية وتحقق التعددية."

تنهد الزعيم الكاثوليكي ثم قال "يجب عليَّ أن اعترف أن هذا الكلام عظيم نظريًا. أنا فقط خائف من أن الصغار لا يعرفون كثيرًا عن دينهم حتى يستطيعون رواية القصص التي نتوقعها منهم."

"في بحثي لنيل درجة الدكتوراه عن برامج التعليم الديني. واحد من أكبر اكتشافاتي كان أن الأطفال يعرفون أكثر بـكثير عن ديانتهم مما يتخيله مدرسيهم. إنها مسألة المساحة التي تتيحها وكيف تطرح الأسئلة. لهذا السبب تتيح النواة الشبابية للأديان دائمًا الفرصة للصغار لممارسة قيمهم الدينية التي يتحدثون عنها وذلك من خلال القيام بمشروع خدمي. إنه من المذهل كم القصص عن التعاطف التي يتذكرها الأطفال عندما يبنون سويًا بيتا لعائلة فقيرة وأفكارهم في حسن الضيافة عندما يرشدون الأطفال اللاجئين."

كانت لي محادثة مماثلة في كل من "اللجنة اليهودية الأمريكية" و"متروبوليس الروم الكاثوليك" في شيكاجو و"الاتحاد الكاثوليكي اللاهوتي" و"المدرسة اللوثرية للاهوت" و"المعهد اللاهوتي لشيكاجو" و"مجلس المنظمات الإسلامية في شيكاجو الكبرى"، وما إن شعرت هذه القيادات الدينية بـالاطمئنان من أن النواة الشبابية للأديان لديها إحساس بمدى أهمية تعزيز الهوية الدينية وأنه لديها المنهجية الكفيلة بالحفاظ على الخصوصية الدينية لكل منها بينما تبني التفاهم بين الأديان، أصبحوا سعداء وهم يوافونني بوسيلة الاتصال بالمسئولين في طوائفهم ممن سبق لهم العمل مع المراهقين، كان هؤلاء عادة من الزملاء – المهنيين المتعلمين تعليمًا جيدًا وفي العشرينات من عمرهم تطوعوا كمدرسي ثقافة دينية ومستشارين للشباب. كنت أشرح لهم أن" إميلي سولوف" في اللجنة اليهودية الأمريكية أو أن الأب" ديميتري" في متروبوليس الروم الكاثوليك اقترحوا عليَّ أن اتصل بهم وأن أشرك شبابهم في برنامج

خدمي جديد من أجل الوفاق الديني. كنت أعطيهم خلفية ومنهجية النواة الشبابية للأديان واسألهم إن كان لديهم شباب صغار للمشاركة في مجلس الشباب في شيكاجو. كانوا حتمًا ودائمًا يقولون "لماذا لا تأتي إلى أحد اجتماعاتنا الخاصة بالشباب وتسألهم بنفسك؟"

و هكذا أنفقت وقتًا طويلاً في الأدوار الأرضية لمعابد اليهود والكنائس والمساجد أحكي للمراهقين عن النواة الشبابية للأديان. كنت مستعدًا لردود فعل تتراوح بين التشكك وشعور الشباب المراهق بالملل ولكن بدلاً من ذلك قوبلت بحماس يكاد يكون إجماعيًا. "هل تعني أن نعمل سويًا في مشاريع مع أطفال من أديان مختلفة ونتكلم عن ديننا ونستمع إليهم وهم يتحدثون عن دينهم؟" هكذا سألني طالب في المرحلة الثانوية في مركز التعليم الإسلامي. قلت له "هذا هو الشئ الأساسى." فرد باسمًا "يا لها من فكرة رائعة."

تذكرت تجربتي الشخصية في المدرسة الثانوية وكيف كانت العقيدة هي الموضوع الوحيد الذي لم نتطرق إليه على مائدة الغذاء لأنه لم يكن أحد منا يعرف كيف نتكلم فيه، وقد أدركت أن هؤلاء الصغار كانوا متحمسين تجاه النواة الشبابية للأديان لأنها تعطيهم حيزًا ولغة لكي يتكلموا بكل صراحة عن شيء كان يملأ جزءًا كبيرًا من حياتهم لكنه طالما كان خفيًا عن الآخرين. لم يتطلب الأمر وقتًا كبيرًا لكي نجد ثمانية من الشباب لكي يصبحوا النواة الشبابية للأديان لسنة ٢٠٠٢ -٢٠٠٣ في مجلس الشباب في مدينة شيكاجو.

اجتمع مجلس الشباب في شيكاجو بعد الظهيرة من كل يوم اثنين في كنيسة القديس إغناطيوس الكاثوليكية في منطقة "روجرز بارك". كنت أشتري وجبات خفيفة موافقة للشريعة اليهودية وأنا في طريقي إلى الاجتماعات، وأقوم بتوصيل الصغار بسيارتي إلى بيتهم بعد الإجتماعات وأقوم بإعداد الواجبات المنزلية لهم والمتعلقة بالأديان مثال ذلك: "أبحث عن بطل ديني في تراث عقيدتك يعطي مثالاً لقيمة حسن الضيافة وقدم عرضًا مدته خمس دقائق عنه أو عنها في الأسبوع القادم. "في كل عام يقوم مجلس الشباب في شيكاجو باختيار مشروع خدمي حيث يستطيع الأعضاء من خلاله أن يضعوا قيمهم المشتركة موضع التنفيذ، في سنة منها كان المشروع هو مساعدة من هم بلا مأوى؛ وفي سنة أخرى كان المشروع هو التدريس لأطفال اللاجئين. كان الطلاب يقومون بتنفيذ المشروع الخدمي لمدة أسبوع ثم يقومون الأسبوع التالي بحوار بين الأديان في وجود الموجه. عندما تولت "ماريا نيوروث" إدارة مجلس الشباب في

شيكاجو سنة ٢٠٠٣-٢٠٠٤، أضافت بعدًا جديدًا: في نهاية كل عام كان مجلس الشباب في شيكاجو ينظم مشروعًا فنيًا يجسد تجربة المجموعة في تعلم خدمات الأديان وفي السنة التي قاموا فيها بالعمل في مشروع مساعدة من هم بلا مأوى قاموا بانتاج فيديو يوضح بالقصاصات والصور أفكار دينية مختلفة من المنازل. وفي السنة التي عملوا فيها مع أطفال اللاجئين كتبوا كتابًا للأطفال نسج زخارف دينية من خلال قصة أحد اللاجئين.

كان مجلس الشباب في شيكاجو هو المكان الذي رأيت فيه نظرية النواة الشبابية للأديان تأتي إلى الحياة. شاهدت صغارًا ملتزمين من مختلف الأديان يعمقون من عقيدتهم ومن علاقاتهم مع الآخرين. كنت مذهولاً من مقدار البصيرة اللاهوتية لهؤلاء الشباب أثناء المناقشات الدينية. سأل مشارك مسلم مسيحيًا لماذا تجمع كنيسته هدايا للأسر المحتاجة في عيد الميلاد. فرد عليه "إن عيد الميلاد هو ذكرى مولد المسيح الذي كان هدية لنا نحن الشعب الذي كان يحتاج للإرشاد الروحاني وأفضل طريقة لنا للاحتفال بعيد الميلاد هي إتباع المثل الذي وضعه لنا المسيح ومحاولة تقديم الهدايا لكل من هم حولنا."

شاهدت أعضاء مجلس الشباب في شيكاجو وهم يصبحون قادة لشباب الأديان، كانت تجرى معهم مقابلات بشأن عملهم الشبابي للأديان في برامج التلفاز والإذاعة وكانوا يلقون الكلمات في تجمعات من مئات من المراهقين الآخرين عن أهمية بناء التعددية الدينية. وفي أكثر من مناسبة رأيتهم يتدخلون عندما يرون مجموعات راشدة من أديان مختلفة يبدأون في الجنوح نحو الخلافات الدينية وسياسية غير مجدية ويعيدونهم إلى المناقشات البناءة ا لتي تقوم على أساس من القيم المشتركة.

استمرت النواة الشبابية للأديان أيضًا في إدارة برنامج يوم خدمات الشباب للأديان ويجمع بين مئات من الصغار من أصحاب الديانات المختلفة من محيط منطقة شيكاجو من أجل يوم للتطوع وللحوار بين الأديان. دائمًا ما كانت تأتي مجموعة من القيادات الدينية والأهالي بدافع حب الاستطلاع. قال أحدهم "أردت الحضور لأري السبب وراء اهتمام ابنتي الكبير بالدين مؤخرًا، فمنذ سنة لم أستطع إرغامها على الذهاب إلى مدرسة عبرية. أما الآن فهي تتشوق للذهاب. تظل تقول لي أنه عليها أن تعلم المزيد عن اليهودية حتى يكون لديها كلام أكثر تقوله في يوم خدمات الشباب للأديان."

لا أستطيع أن أتمالك إلا أن أتذكر كل برامج الكبار للأديان التي حضرتها كانت دائمًا تعد بأن برامج الشباب سوف تتبع فور بناء الكبار لعلاقات وثيقة. كنت اسألهم "متى سيأتي الصغار؟" و كانوا يقولون لي "في الأسبوع المقبل." تبين أن المنطق العكسي هو الصحيح. إن ركزت برنامج الأديان حول الصغار حتما سوف يأتي إليه الكبار والقيادات الدينية .

على الرغم من أن يوم خدمات الشباب للأديان كان حدثـًا لمرة واحدة وقصير الأمد إلا أنه كان له تأثير تحفيزي من حيث أن مجموعات شبابية كانت تشترك ثم تعود إلى مجتمعاتها بـمجموعة كاملة من الأسئلة عن دينهم وكيف يرتبط بـعقائد الآخرين، فإن مشاهدة ثمانين مسلم يؤدون صلاة العصر قد جعلت مجموعة من اليهود يتساءلون إن كان في دينهم شعائر لصلاة العصر. وقد اكتشفوا أن في اليهودية مثل هذه الطقوس وتسمى "مينخا".

بعد يوم خدمات الشباب للأديان عام 2004 قام الطلاب في المدرسة العالمية للمسلمين - وهي مؤسسة عربية أمريكية في الأساس وتقع في ضاحية في جنوب شيكاجو- بتكوين مجموعة بعد فترة الدوام بالمدرسة لدراسة النصوص الإسلامية التي تتحدث عن التعددية الدينية. كما أن مشاركتهم في برنامج المدرسة التطوعي زاد بـثلاثة أضعاف. قال لي واحد من مدرسيهم "لقد غير يوم خدمات الشباب للأديان حياتهم بالكامل,". "أجزاء عديدة منه كانت جديدة عليهم: أن هناك أمريكيون آخرون متدينون أيضًا وأن الإسلام لديه تراث قوي من التعددية والخدمة وأن هناك أوجه تشابه كثيرة بينهم وبين اليهود والمسيحيين. إنهم حقـًا لن يعودوا أبدًا مثلما كانوا."

عقد أول "مؤتمر قومي عن عمل الشباب من أجل الأديان " في جامعة شيكاجو عام ٢٠٠٣ وحضره نحو أربعون شخصًا من بينهم أساتذة جامعيين وقساوسة والطلاب من النشطاء في مجال الأديان, وفى قيادات دينية من منطقة شيكاجو وقدم كل مشارك بحثـًا عن برنامجه الشبابي للأديان: مشروع التعددية القائم على البحوث في جامعة "هارفارد" الذي كان يديره "جروف هاريس" و"ديانا إيك"; المجلس الطلابي للأديان الذي أسسه "فيكتور كازانجيان "في جامعة" ويلسلي"; برنامج "جو هول" في "ساوث برونكس" الذي جمع أطفال من الكاثوليك ومن مذهب العنصرة معًا لصناعة أفلام عن الرحلات المقدسة; والمخيم الصيفي للأديان"إي بلوريبوس أونوم" (جملة تعني 'واحد من كثير' بـاللاتينية) الذي نظمه "سيد شوارتز". مع نهاية المؤتمر, اكتشفنا أنه تم تقديم ما يقرب من عشرين مشروعا مختلفا في القاعة."طوال الوقت

كنت أعتقد أنني الوحيدة التي تعمل في هذا المجال " هكذا قالت واحدة من الحاضرين وفي صوتها نبرة المصدوم كانت "اناستازيا وايت" على حق. كان هناك شيئـًا رنانا للغاية في فكرة التعاون الشبابي من أجل الأديان حتى أنها ظهرت في أماكن عدة في نفس الوقت وبشكل مستقل وبدأت تتخذ أشكال متنوعة للتعبير عنها. كانت لدينا الفرصة لأن نحول هذه الفكرة إلى حركة. كان التحدي الذي أمامنها هو أن نضع استراتيجية للانتشار وشبكة قوية.

قررنا أنه لابد من تجميع البحوث المقدمة في كتاب، وأسميناه "بناء الحركة الشبابية للأديان" (نشر عام ٢٠٠٦) وقد اقترحت "ميلودي فيلدمان" - من منظمة بناء الجسور من أجل السلام ومقرها في مدينة "دينفر" - أن الحركة الشبابية بين الأديان المتنامية تحتاج إلى مؤتمر سنوي. ووافق الآخرون. وأشار شخص إلى أننا نحتاج إلى برنامج مشترك يعمل فيه الجميع سويًا، وتكلمت أنا عن يوم خدمات الشباب للأديان في شيكاجو. وقالت "جولي إبيرلي" أنها كانت تدير مشروعًا مماثلا في إدارات الأديان في مدينة "هيوستن" الكبرى. قال "باتريس برودر" "هذا هو" ـ وهو ممن يساندون برامج الشباب للأديان منذ فترة . وهكذا تم ولادة يوم خدمات الشباب للأديان، في البداية كبرنامج قومي وقد أصبح الآن برنامجا عالميا.

سألت: مع وجود كتاب ومؤتمر سنوي وبرنامج وطني: "من سيقوم بمهمة التنسيق لكل هذه الأشياء؟" تحولت كل الأنظار نحوي. قال "باتريس" :"هل يجب هذا على سؤالك؟"

بين عشية وضحاها اتخذت النواة الشبابية للأديان لمحة وطنية. وهكذا انطلق العمل وبدأت تزداد سرعته.

كانت والدة شاهيناز تقسم أنها علمت أننا سوف نتزوج منذ أول مرة رأتنا فيها معًا. إن عائلتها من نفس المنطقة من الهند التي منها عائلتي - ولاية "غوجارات" أرض التجار وأصحاب الشوارب- إنهم يمارسون التفسير الإسلامي ذي النزعة الصوفية وهو شائع في غوجارات: وضع نقطة سوداء على الشخص سعيد الحظ لصد عين الحسود وزيارة قبور أولياء الله المسلمين للتبرك وتلاوة الشهادة عند ما يظهر القمر وهذا قريب الشبه للفهم الإسماعيلي للإسلام، ومنذ البداية كانت "شاهيناز" تشعر بارتياح كبير نحو الإسماعيليين. كان يعجبها أن الطائفة تجمع بين العصرية دون مواربة والإيمان العميق بالإسلام، وأن هناك نساء كثيرات مهنيات يتقلدن مناصب قيادته فى المجتمع; وأننا كنا نكرس الكثير من الموارد لرعاية التراث الثقافي والفكري

الإسلامي، من الهندسة المعمارية في الشرق الأوسط إلى الموسيقى في آسيا الوسطى. كانت تجلس معي وأنا أتلو الدعاء الإسماعيلي ودائمًا ما كانت تعبر عن إعجابها الشديد بـعمل الإمام.

ذات ليلة أثناء العشاء, سألت "شاهيناز" إن كان يهمها أن نخطو الخطوة التالية "ما أعنيه هو أن ممارستك للإسلام متشابهة تمامًا للفهم الإسماعيلي. فضلاً على ذلك ألا تعتقدين أن ذلك سوف يسهل علينا الأمور في المستقبل وما إلى ذلك؟"

نظرت إلي نظرة كان معناها أني قد وقعت في الخطأ مرتين. الخطأ الأهون هو أنني افترضت أننا سوف نتزوج بدون أن أطلب ذلك بـالشكل المناسب. "ليست هناك رومانسية في التلميحات. عندما تكون مستعدًا للقيام بخطوة قم بها بـشكل صحيح وادعو ربك أن تكون الإجابة بنعم" قالت لي ذلك بشكل قاطع.

أما الخطأ الثاني والأكثر خطورة أنه لم يعجبها أني تكلمت عن دينها. لقد شعرت بالفعل بـتجاوب عميق مع أجزاء من الطريقة الإسماعيلية ولكن كان هناك أيضًا قطع في الاتصال. "لم أنشأ على فكرة وجود إمام. فإن عائلتي تؤمن بـرسالة القرآن وبسيرة الرسول وتعاليمه وبـالطريقة التي تم بها ترسيخ ذلك روحانيًا في الهند. إنها في الواقع ليست خطوة صغيرة أن تتبني الموقف الإسماعيلي. إنه مثل التحول من بروتستانت إلى كاثوليك وقيام الشخص علاوة على إيمانه بـالمسيح وبالإنجيل إضافة فكرة وجود البابا وسلطته ."

كان من المفترض أنني المحترف في مسائل الهوية الدينية وتنوعها لكن شاهيناز كانت قد فكرت بـوضوح في هذه المسألة بـذكاء أكبر مني، وكان من المهم لكلانا أن يكون مع شخص يتقاسم معه نفس لغة الصلاة كانت شاهيناز تذكرني بأن هناك في اللغة الواحدة لهجات متعددة، وأن هذه الفروق يجب أن تحترم في إطار وحدة السنة الأوسع وأشارت إلى حديث للرسول (صلعم): "إختلاف أمتي رحمة."

تساءلت عن ردود فعل أبواي. قال أبي بأسلوب تقليدي أنه سعيد جدًا أني سوف اتزوج، وبصراحة لم يكن ذلك مفاجأة له بالمرة. أما أمي فقد ظهرت الدموع في عينيها كالعادة ثم احتضنتني أنا وشاهيناز وقالت أنها تحبنا نحن الإثنين.

و أخيرًا كان هناك موضوع ماما (جدتي) المقيمة في بومباي. منذ أن كنت أبلغ من العمر ثماني سنوات جعلتني أعدها بأني سوف أتزوج من الطائفة الإسماعيلية. ماما كانت قد ارشدتني

للعودة إلى عقيدتي لقد كانت آخر شخص أريد أن أخيب أمله.

أخذت شاهيناز لزيارتها قبل الزواج ببضعة شهور. طلبت من والدي أن يقول لها أن شاهيناز مسلمة ولكنها ليست إسماعيلية. كنت خائفًا جدًا من أن أقول لها الخبر بنفسي. كانت جدتي دائمًا تستعين بالتراث الإسلامي الأوسع لكنها كانت تصر على أن نتزوج من الإسماعيليين. عندما وصلنا إلى عتبة بابها في بومباي، رحبت بنا ماما بـالإبتسامات والقبلات. وطلبت منا أن نجلس على أريكتها المفضلة ووضعت أكاليل الزهور حول عنقينا، وقالت"أنا سعيدة جدًا أنكما ستتزوجان." "لحفيدي إيبو، المدد يا علي،" الترحيب الإسماعيلي الذي يعني "عسى أن يساعدك علي."

"وإلى حفيدتي الجديدة الجميلة العزيزة شاهيناز. السلام عليكم." وهي التحية الإسلامية الأعم. "بارك الله في هذا الزواج."

تولى فريد إسحاق وهو قيادي مسلم من جنوب أفريقيا مراسم زواجنا مستعينًا بالعناصر السنية والإسماعيلية معًا.، وألقى "كيفين "كلمة شاهد العريس، وردد "جيف" دعاء النعمة على الطعام. وأنا كنت أفكر في أن "هذا ارتباط أبدي" وأنا أضع حول أصبع شاهيناز خاتم منقوش عليه سطر لبابلو نيرودا: "استرح مع حلمك فإنه حلمي."

الخلاصة

إنقاذ بعضنا البعض

إنقاذ أنفسنا.

أصبح قلبي قادرا على اتخاذ كل الأشكال إنه مرعى للغزلان و منضدة للتوراة و ديرا للمسيحيين و كعبة للحجاج أي طريق ستتخذه قافلة المحبة سيصبح طريق عقيدتي .

ابن العربي

"إخوتي و أخواتي الأعزاء السلام عليكم، حضرت إليكم في هذا الدار الجميل للعبادة مع تحية السلام الإسلامية." كان ذلك في فبراير عام ٢٠٠٤ و كنت استمع لخطبة للإمام "فيصل عبد الرءوف" في قداس الأحد في كنيسة "ريفرسايد" في مدينة نيويورك، تكلم عن الإسلام على أنه عقيدة لكل مكان و زمان عقيدة احتفظت بالمليارات من الأتباع لأكثر من ألف عام و أسهمت بكم هائل من الجمال في الحضارة الانسانية ، كان الإمام فيصل يرتدي الرداء الأبيض التقليدي من الشرق الأوسط و كانت لهجته تحمل أثار ماضيه: فى العالم العربي و ماليزيا و انجلترا، و لكن رسالته كانت عن هنا و عن الآن، في هذه الكنيسة التي ألقى فيها "مارتن لوثر كينج الإبن" خطابه الشهير ضد حرب فييتنام ، تكلم الإمام فيصل عن ظهور إسلام أمريكي ينتمي للقرن الحادي و العشرين .

اقتربت من الإمام فيصل بعد خطبته و تكلمت معه عن النواه الشباب للاديان، فهم الرؤية على الفور و اقترح أن أزوره هو و زوجته "ديزي خان" في بيتهما في المساء التالي، كانت شقتهما التي تقع في أعلى الحي الغربي منظمة على شكل المسجد بها سجادات الصلاة مفروشة من الحائط للحائط، و صلت عند الغروب، أدينا صلاة المغرب ثم تكلمنا عن امريكا على انها بخليطها الفريد من المعتقدات الدينية و التنوع الديني هي المكان المناسب لتجدد الإسلام، ذكر الإمام فيصل " في القرن العشرين خضت الكاثوليلكية و اليهودية لتغيرات عميقة في أمريكا و أعتقد أنه في أمريكا في هذا القرن سوف يفعل الإسلام نفس الشيء." قال الإمام

فيصل أن الأمريكيين الشبان المسلمون و هم جيل أمريكي بالفعل و بلا أدنى شك مسلم هو الذي سيضع شكلا للإسلام الأمريكي و تمنى أن يتمكن جيلي في أمريكا أن يصلوا لأبناء دينهم حول العالم الإسلامي و ٧٠ بالمائة منهم أقل من سن الثلاثين و نستطيع أن نجدد الإسلام معا.

الإسلام دين انتعش دائما بسبب الهجرة، قال أحد العلماء أن مياه الإيمان صافية إلى الحد الذي يجعلها تلتقط ألوان الصخور التي تفيض فوقها فالإسلام في الهند يبدو هنديا وفي الصين صينيا، إن التراث الإسلامي المعاصر يدين بديون الهائلة للعمارة الهندية و المطبخ الفارسي و الشعر التركي والخط العربي و الفلسفة اليونانية ، فما هي الألوان التي ستضيفها أمريكا للإسلام؟

أمريكا هي أمة تجددت بصفة دائمة بسبب الهجرة إليها، و لقرون أضاف المهاجرون نغمات جديدة للأغنية الأمريكية، و هناك الآن كتلة كبيرة من المسلمين في أمريكا، ٧٥ في المئة منهم ممن هاجروا جغرافيا قادمين من جنوب آسيا و الشرق الأوسط و اجزاء متفرقة من أفريقيا، و ٢٥ بالمائة ولدوا في الولايات المتحدة معظمهم من الأمريكيين الأفارقة الذين اختاروا الهجرة الروحانية وغيروا دينهم، و تقول معظم التقديرات للشعب المسلم في أمريكا بأنه ستة ملايين وهو نفس العدد لليهود و ثلاثة أضعاف عدد أتباع الكنيسة الأسقفية. فما هي النغمات التي سيضيفها الإسلام للأغنية الأمريكية؟

قدمني الإمام فيصل لمجتمع يجيب على السؤالين على الفور، ففي مؤتمر "القادة المسلمين في الغد" الذي نظمه هو و "ديزي" في ربيع عام ٢٠٠٤ قابلت أفضل أبناء جيلي من المسلمين : فنانين و مصرفيين و من اعتنقوا الدين من الأمريكيين وهم من أصل أفريقي و مهاجرين من الشرق الأوسط من السنة و الشيعة و نساء يضعن غطاء الرأس و نساء لا يضعنه، استيقذنا مبكرا لأداء بعض التلاوات الصوفية مع الإمام فيصل و اشتركنا في مناقشات ساخنة و انزلقت مقاعدنا من فرط الضحك على تمثيل الفنان الكوميدي المسلم "أظهر عثمان"، ظهرت ثلاثة موضوعات في المناقشة: على الإسلام أن يكون مظلة كبيرة لكافة المؤمنين و ليس قاعة صغيرة ليس بها سوى المتشددون، أنه على المسلمين المشاركة في كافة جوانب الحضارة الإسلامية و الا يقتصروا فقط على حفنة من القضايا، على المسلمين الأمريكيين أن

يهتموا نفس الاهتمام بمستقبل البلد الذي يعيشون فيه مثلما يهتمون بأماكن الماضي المجيد للإسلام.

لقد نشأت و أنا أشعر بالارتياح للتنوع و لكن هويتي لم تكن واضحة، و أخيرا عثرت على مجتمع أستطيع أن أسميه مجتمعي.

كانت تجربة "جين" على النقيض، كان أهلها يريدون لها أن تكون ذات شخصية يهودية قوية و لذلك أنشئوها بالكامل داخل بوتقة يهودية و شبت في حي يهودي وكانت ملتحقة بمدرسة يهودية و تذهب لمعسكرات صيفية يهودية، و في ذات يوم في أحد المطاعم بدت "جين" في ضيق متزايد بسبب موظفا ذو بشرة سوداء، و أيقنت والدتها أن سبب عدم ارتياح "جين" سببه احتكاكها المحدود بغير اليهود و أن "جين" سوف تشق طريقها في عالم مختلف و لابد أن تخرج من الشرنقة اليهودية، أما كيف يتم ذلك مع الاحتفاظ بشخصية يهودية قوية؟ كان أهل "جين" يأملون في أن يقوم نواة الشباب للأديان فى بمجلس الشباب في شيكاجو بمساعدتهم في ذلك.

انضمت سيدة وهي شابة من أسرة تقليدية مسلمة إلى مجلس الشباب في شيكاجو في نفس الوقت الذي انضمت فيه "جين"، و قد تابعتهما يهودية ورعة ومسلمة ورعة و كل منهما نشأت في بوتقة مجتمعها، بدأتا في التعرف الواحدة على الأخرى، قامتا ببناء علاقتهما بالتطوع معا للتدريس للأطفال و تمضية الوقت مع المسنين و دهان الحوائط في مراكز المجتمع ، و في العصر بعد فترة ما بعد الظهر مرت عصيبة مع أطفال المهاجرين في الحي الشمالي من شيكاجو رأيت سيدة تقرأ لجين سورة العصر من القرآن الكريم عن أهمية الالتزام بالصبر و العمل الصالح ، و أثناء أحد مناقشات الحوار الديني عن أهمية العلماء في الأديان المختلفة تحدثت "جين" عن عالم يهودي شهير اسمه "راشي" و كيف أنه أعطى لبناته نفس الواجبات مثل أبنائه، كانت أكاد أرى سيدة و بالها مشغول بهذه الفكرة، لقد أنفقت عدة سنوات سابقة و هي تفكر في قضايا النوع الاجتماعي في الإسلام ، و عندما سمعت "جين" تشير إلى "راشي" جعلها ذلك تشعر بالفضول حول ما إذا كان الإسلام لديه عالم مثله، كانت لهما معا عدة لحظات أخف وطأة ، فقبل بدء المناقشة عن القيم المشتركة ما بين المذاهب الدينية في اتحاد الكاثوليكية اللاهوتية توجهنا إلى دورة المياه معا ثم خرجتا و هما مستغرقتان في نوبة

هسترية من الضحك ، سألت "ما هو الشيء المضحك؟" كانتا تتبادلان الأدعية التي يقولها اليهود و المسلمون بينما كانتا في دورة المياه.

قالت سيدة عن صداقتهما "بصراحة كأني أتحدث مع مسلمة أخرى، لدي مع "جين" نفس العلاقة التي كانت لي مع بعض الأصدقاء المسلمين , أجد في ذلك نوعا من السخرية."

أومأت "جين" قائلة "كل من كان روحانيا قد يمر بصراعات مماثلة تماما في حياته، هل أذهب لسيدة لأتحدث عن كيفية ممارسة التواضع؟ إطلاقا لأنها مثالية في تواضعها، و حتى إذا كان لنا ديانات مختلفة فإننا ما زلنا نتصدى لنفس الأفكار."

و من الأفكار التي تصدت لها "جين" و سيدة معا هي أن تكون ملتزما بديانتك بينما تتعاطف مع وجهة نظر شخص آخر، و أثناء اجتماع مجلس شباب شيكاجو اعترفت سيدة " يبدو لي أنه في معظم حياتي كنت أنظر لجانب واحد فقط، و أنا أناضل من أجل فكرة رؤية الجانبين، لقد إنتفخت لهذه الثقافات الجديدة و هذه العقائد الجديدة و الأشخاص الجديدون، و أعتقد أنه من الأفضل فتح الغطاء من فوق الصندوق بدلا من مجرد غلقه." ثم شرحت أنها لم تذهب لمسيرة احتجاجية نيابة عن فلسطين لأنها لم تشعر أن الحلول الملموسة مطروحة و لم تشعر أنه من الصواب مجرد شجب شيء.

اتسعت عيني "جين" وهي تستمع لسيدة، قالت "لقد دعيت للذهاب للاحتجاج المضاد على هذه المسيرة الفلسطينية، و بقدر ما أساند إسرائيل فإني ما كنت لأذهب أبدا و احتج على أحد غيري وربما كان ذلك نتيجة لعلاقتي المباشر بك" وهي تشير نحو سيدة.

قالت سيدة :" هل رأيت.. نعم هذا ما حدث.. كنت أنظر لأي صحيفة و أرى عنوانا رئيسيا يقول : إرهابي فلسطيني يفجر نفسه و بالرغم أن الخبر يبدو حزينا فإني كنت أستطيع أن أتفهم السبب، و لكن الآن يبدو لي أن هناك بدائل أفضل بكثير من الاتجاه نحو العنف ."

قالت "جين" : "كانت لدينا إحدى المناسبات الموالية فعلا لإسرائيل في مجموعتي للشباب اليهودي و روى أحدهم اغتيال أحد القادة المسلمين و بدأ الحاضرون يصفقون.. كنت على وشك الوقوف لأقول لهم : ماذا تفعلون؟ إنها حياة إنسان لا يمكنكم التصفيق عندما يموت شخص" ،حبست دموعها ثم واصلت "أجد نفسي في كل موقف أجادل في الجانب المعاكس ."

قالت سيدة: " و هنا نفس الشيء".

تكلمنا عن المفهوم الإسلامي وكونه رحمة العالمين، و أتت "جين" بقول "هلال" الحبر الفلسطيني في القرن الأول: "لو لم أكن لنفسي فمن يكون لي؟" فإذا كنت لنفسي فقط فماذا أكون؟"

توصلنا لأن فهم وجهة نظر الشخص الأخر كان قيمة جوهرية في كل من الإسلام و اليهودية.

إن رؤية الجانب الآخر و الدفاع عن أناس آخرين ليس بالرغم من تراثنا و لكن بسببه هو قلب التعددية، إن نفس هذه المبادئ الأخلاقية التي أراها متمثلة في الفيلم الهندي "مستر و مسز لاير"، و هو عن شاب مسلم يعمل كمصور و شابة هندوسية سيدة منزل كل منهما أت من بيئة مختلفة تماما و مزاجهما مختلفان إلا أنهما يجدان نفسيهما في نفس الحافلة التي تسير عبر البلد، و تتوقف الحافلة في جزء من البلد يقع فيه شغب، و يتجول الغوغاء من المسلمين و الهندوسيين في المنطقة يقتلون الذين ينتمون للدين الأخر، و تصعد للحافلة مجموعة من المتطرفين و تبدأ في فحص بطاقات الهوية، و يقتلون كل من يحمل إسما مسلما، و عندما توجهوا نحو المصور المسلم تصدت لهم المرأة الهندوسية و قالت أنه زوجها، و في النهاية يفلت الإثنان من الهندوس المتطرفين في الحافلة ويتمكنون من الوصول لقرية قريبة ليجدوا نفسيهما في وسط مجموعة من المتطرفين الإسلاميين، فيخاطر المصور بحياته لحماية المرأة و الطفل و يدعي أنهما تبعه.

رأيت الفيلم في دار عرض سينماني في مدينة بومباي و فكرت في الأوقات التي كانت فيها أسرتي تضطر لأن تحتبس في بيتها خوفا من الغوغاء الهندوسية و المسلمة الغاضبة في شوارع مدينتها، فكرت في فشلي الشخصي في حماية صديقي اليهودي في المدرسة الثانوية عندما استهدفوا دينه و سخروا منه، فكرت في الشباب المتطرف دينيا الذي نقرأ عنه في الأخبار كل يوم و ما كان من الممكن أن يصبحوا عليه إذا كانت مؤثرات أخرى وصلت إليهم أولا، فكرت في معنى التعددية في عالم حيث تسعى قوى ذات سطوة للفرقة، و توصلت لنتيجة: علينا أن ننقذ بعضنا البعض وهذه هي الطريقة الوحيدة لإنقاذ أنفسنا.

ملاحظة

أضف البراهين على أن التآخي ليس بالحلم البعيد المنال كما يدعي أولئك الذين يستفيدون من تأجيله .

"نورمان كوروين"

إن الحركات تعيد تشكيل العالم.

الحركة هي مجموعة من الناس يتزايدون و يؤمنون بعمق في أمكانية جديدة فيشاركون في جعلها حقيقة، قد لا يتقابلون جميعهم و قد لا يعرفون حتى أسماء جميع الآخرين في الحركة، ولكنهم بشكل أو بآخر يحدوهم جميعا الشعور بأن هناك أناس على الجانب الآخر من المدينة أو البلد أو العالم تؤمن بنفس الفكرة يتحرقون شوقا بنفس الحماس و يخاطرون من أجل تحقيق نفس الحلم.

و هذا الكتاب هو قصة توصلي للمشاركة في حركة التعددية الدينية، حيثما كنت أذهب – من القرى الواقعة خارج "كاندي" في سريلانكا لمراكز المجتمع المحلي في عمان بالأردن إلى مكاتب وزارة الخارجية في واشنطون العاصمة – وجدت أناسا لديهم قصة متشابهة، و عندما يكتشف الآلاف من الناس أن قصتهم هي أيضا قصة غيرهم تتاح لهم الفرصة لكتابة قصة جديدة معا.

الهدف من النواة الشباب للأديان هو التحفيز و توفير الموارد للحركة الشبابية الدولية للتعاون بين الأديان و التشبيك معها، فإذا كنت تعمل من أجل مشروعات التعاون بين الأديان لسنوات فإننا نريد التعلم من النموذج الذي طبقته، وإذا كنت تؤمن إيمانا عميقا في رؤية التعددية الدينية و لكنك لا تعرف من أين تبدأ فإننا نريد أن نوفر لك الموارد التي تجعلك تستمر، و إذا كنت تقوم بالتدريس في مدرسة أو في برنامج ثقافة دينية و تريد إجابات على أسئلة حول دعوة الإسلام (أو أي دين آخر) المؤمنين به التعاون مع الآخرين لخدمة العالم فلدينا مواد قد تساعد، لقد أنتجت النواة الشبابية للأديان أدلة للأنشطة عن كيفية إدارة مشروعات البينية الدينية و بحوث أكاديمية عن كيفية التفكير في بعض من أكثر القضايا الشائكة في العمل الديني المشترك، ونحن ننظم مؤتمرات سنوية و نبعث بالمتحدثين

و المدربين للجامعات و للمجتمعات المحلية حول العالم، عليكم زيارتنا في موقعنا الإلكتروني لنرى كيف يمكننا العمل معا.

قال لي أحد التلاميذ في بداية المرحلة الثانوية"أنا لست من المتدينين، و لكني أريد المشاركة في هذا".

قلت له: " نحن نحتاجك".

إن مسألة التدين لا يمكن الرد عليها بمد خط بين المتدينين و غير المتدينين، و التعددية – و حتى التعددية الدينية- هي شأن الجميع ذلك للأسباب الأكثر براجماتية الواضحة و لأكثر الأسباب شاعرية ، و على كل حال هناك أماكن يستمع فيها الناس للموسيقى التى تسمو بهم، و لإعادة صياغة ما ذكره "بوب ديلان" يجد البعض المستقبل في الكنيسة التي يختارونها و البعض يجده في أغنية للفنان "ودي جوثري".

نحن نريد كل هؤلاء – من يرددون التراتيل ومن يحيون الشمس و من يتلون القرآن و من يفتحون المندل و متحدثي العبرية و قراء السنسكريتية و رؤساء الهيب هوب و عشاق الموسيقى الشعبية و أكثر، نحن نحتاج للغة تتيح لنا أن نبرز أفكارنا الملهمة الفريدة و نؤكد قيمنا العالمية، نحتاج لمساحة يستطيع فيها كل منا أن يدلي بما يعتز به و من أين جئنا و أن نشير جميعا للمكان الذي نتجه إليه. أخشى أن يكون الطريق طويلا و يسرني أن نقطعه سويا.

كلمة ختامية

نحن حصاد بعضنا البعض: نحن في شأن بعضنا البعض نحن العظمة و الروابط لبعضنا البعض .

"جوالندولين بروكس"

عندما تكلم أول رئيس أسود للولايات المتحدة عن الهوية في خطاب تنصيبه استخدم هذه الكلمات:

لما كنا نعرف أن تراثنا المتنوع هو قوة و ليس ضعفا، نحن أمة من المسيحيين و المسلمين واليهود و الهندوس ومن غير المؤمنين .... لا يسعنا إلا بأن نؤمن أن البغضاء القديمة سوف تمر في يوم من الأيام و بأن سلالات القبائل سوف تذوب و بأنه كلما أصبح العالم أصغر فسوف تكشف إنسانيتنا المشتركة عن نفسها

و بأن امريكا يجب أن تلعب دورها في أن تبشر بعصر جديد من السلام.

كنت هناك في هذا اليوم أقف في "ناشيونال مول" مع أكثر من مليون من أحب المواطنين إلى و أنا مندهش للغة أوباما. كان الإهتمام الذى تكلم به عن التنوع الديني هو الذي شدني، أثناء حملته الانتخابية دعا لتحطيم الحواجز العرقية و أبرز ولعه بالدين الإسلامي وهو دين جده، كنت لن اندهش إذا تفادى تماما موضوع الدين في خطاب تنصيبه، بدلا من ذلك وضع الموضوع في الصدارة و أوضح تماما أن سد الفجوة العقائدية سوف يكون أحد الأولويات أثناء فترة رئاسته.

بعد ذلك بأسابيع تلقيت مكالمة هاتفية من البيت الأبيض، بدأ "جوشوا دوبوا" مدير مكتب الأبيض لشئون الشراكات القائمة على أساس العقيدة و الجوار بكلمة "أهنئك" لقد قام أوباما بتعييني في مجلس الشئون الدينية المكون من خمسة و عشرين عضوا ، وكان الرئيس يريد مقابلتنا من وقت لاحق في هذا الأسبوع، و عندما اجتمع المجلس في المكتب البيضاوي في يوم الخميس صباحا لم يضيع الرئيس سوى وقت قليل ليدخل في العمل.

قال مهمتنا الرسمية هي أن نقدم في نهاية سنة واحدة مجموعة من التوصيات عن الطرق التي تصبح بها الحكومة الفدرالية شريكا أفضل مع المنظمات القائمة على أساس ديني

و مجتمعي في مناطق مختلفة بما في ذلك الحد من الفقر و تقوية الأسر و تحسين البيئة والسير قدماً في التعاون بين الأديان.

شعرت بسعادة غامرة أن التعاون بين الأديان أصبح بندا واضحا في الأولويات وانتابتني مشاعر أفضل عن رؤية الرئيس لهذه القضية عندما بدى مفكرا و بدأ يتكلم عن رؤيته الواسعة لدور التجمعات الدينية المختلفة في مجتمعنا، قال أنه يأمل أن تتوسع التجمعات الدينية في خدماتها وبرامجها الخاصة ببناء المجتمع في هذا الوقت من الأزمة الاقتصادية و كرر جملة من خطاب حفل الإفطار الوطني:" العقيدة الخاصة التي تحفز كل منا ويمكنها أن تعزز المزيد من الخير لنا جميعا." و لاحظ أن مثل هذه الجهود في العمل الاجتماعي يمكنها أن تبرز القيم المشتركة للمذاهب الدينية المتنوعة و تبسط أرضية مشتركة للحوار و التفاهم بين الأديان، و أخيرا تكلم الرئيس عن مثالية وطاقة الشباب و قال أنه علينا أن نهتم ندخل قيادات الجيل المقبل في العمل الاجتماعي القائم على العقيدة وعلى التعاون بين الأديان.

عند هذه النقطة مال نحوي صديقي و مرشدي "جيم واليس" من مجموعة "الغرباء" و هومن الأعضاء الآخرين في مجلس الشئون الدينية و همس في أذني " يبدو كما لو كان الرئيس قد قرأ البيان الخاص بمهام النواة الشبابية للأديان." بالتأكيد أنه فعل و لم أكن أتمكن من تصديق أذناي.

و في نهاية الاجتماع سأل الرئيس إذا كانت هناك أسئلة أو تعليقات، قررت أنه إما أتكلم الآن أو أسكت إلى الأبد "سيادة الرئيس بشأن ما قلته في البداية عن العقيدة و الخدمة و عن التنوع و الأرضية المشتركة و الشباب الذين يبدون قيادية في العمل الاجتماعي والتعاون بين الأديان و منظمتي- النواة للشبابية للأديان – تحاول بناء حركة عالمية اعتمادا على هذه الطاقة ذاتها، نشكركم على تقاسمكم لرؤتنا."

ابتسم أوباما أبتسامته الواسعة – التي بدت على الطبيعة أفضل مما تبدو على التلفاز- و قال :"سوف نتابع معكم ذلك." وقد تابع بالفعل بدءا من تخصيص حملة "باتحادنا نخدم" لجهود خدمات التعاون الديني البيني إلى جعل التعاون بين الأديان واحد من الموضوعات التي تناولها في خطابه التاريخي في القاهرة،و بذلك اتخذت حركة الشباب الشعبية للأديان مرتبة دولية.

كتبت "التعددية العقائدية" عندما كانت النواة الشبابية للأديان بدأت انطلاقها، و لايسعني إلا أن أبتسم عندما أعدت قراءة الكتاب الآن و أعود بذاكرتي لتلك الأيام الأولى للمنظمة، كان برنامجنا للقياديين يضم ثمانية من الشباب يجتمعون اسبوعيا في بدروم كنيسة كاثوليكية في مدينة "روجرز بارك" بولاية "إلّلينوي"، و في برامجنا التدريبية في الجامعة انضم عدة عشرات من الطلاب كلهم من ولايا "بنسيلفانيا و إلينوي و نورثويسترن و ديبول". و قد اجتذب أول مؤتمر قومي لنا أربعين فردا، أنفقت عديد من عطلات نهاية الأسبوع و أنا أقود السيارة لمسافات طويلة لأتحدث لتجمعات من خمسة و عشرين إلى ثلاثين شخصا، و كنا نشعر بفرحة غامرة عندما تقوم إحدى منافذ الإعلام المحلية بتغطية قصيرة للنواة الشبابية للأديان ظانين أن هذه خطوة لنا لنقل رسالتنا إلى جمهور أوسع. كان التمويل ضعيف إلى الدرجة التي جعلتني أن أتكلم مع زوجتي أكثر من مرة عن إمكانية الامتناع عن بعض المصروفات . باختصار كانت النواة الشبابية للأديان منظمة وليدة تحلم بأن تصبح حركة شعبية.

لقد قطعنا مسافة طويلة، و أحدث مؤتمراتنا اجتذب ٦٥٠ فردا بما في ذلك وفودا من إثني عشر بلدا، و قد تحول مجلس شباب شيكاغو إلى البرنامج الوطني "رابطة الزملاء – Fellows Alliance " للطلاب الجامعيين المتميزين ممن يحولون مقرهم الجامعي إلى نموذج للتعاون بين الأديان، لقد أضفنا زمالة جديدة تسمى "العمل الإيماني – FaithsAct" و هو مشترك مع مؤسسة توني بلير للإيمان" التي تضم ثلاثين من الخريجين الجدد يتبرعون بسنة لبناء روابط التعاون الديني التي تركز على القضاء على الوفايات المتسببة عن حالات الملاريا، و قد أصبح لدى النواة الشبابية للأديان مجموعة من المتحدثين و المدربين ويحضرنا الآن جمهور من ٢٥٠ فردا بدلا من ٢٥ و في بعض المناسبات نجد أنفسنا نتحدث إلى أكثر من ٢٥٠٠ فردا. و نساهم بانتظام في وسائل الإعلام الوطنية و العالمية بما في ذلك صحيفة "واشنطن بوست" و "نشيونال بابليك راديو" و قناة "سي إن إن" كما ظهرنا في برامج تلفزيونية متميزة مثل "جود مورنينج أمريكا"، و أثناء السنوات الأخيرة قدم عدد من المتبرعين الكبار مشاركات ذات قيمة للنواة كما أننا نجحنا في بناء يعدا للخدمة مقابل رسوم في عملنا تسمح لنا بزيادة عدد العاملين لدينا إلى ما يزيد على ثلاثين من المتخصصين الذين يعملون كامل الوقت عند كتابة هذه السطور.

الشيء الأكثر أهمية من نمو النواة الشبابية للأديان هو ظهور حركة شعبية حقيقية للتعاون بين الأديان، فقد أصبح لدى مدن مثل "سانت بول" وفيلادلفا" و لوس أنجلوس" و "سييتل" و"شارون" و "مساشوستس" برامج شبابية للتعاون بين الأديان ، و أسمع كل شهر عن المزيد من المجتمعات التي في سبيلها لبدء برامجها ، وقد جعلت مقار بدءا من كلية "بريا " في كنتاكي و كلية "لوثر" في "أيوا" إلى "ستانفورد" و "برينستون و "ييل" جعلت من التعاون بين الأديان أولوية أولى،و أصبح خريجو برامج النواة الشبابية للأديان لهم تأثيرهم كذلك و يفوزون بمنح دراسية ذات قيمة مثل منح "ميتشيل"و "ترومان"، و يصدرون الصحف الأكاديمية التي تركز على التعاون بين الأديان و يبدأون في تأسيس منظماتهم غير الربحية الخاصة للتعاون بين الأديان و يستخدمون مهارات قياداتهم من أجل إعطاء دفعة للقضايا المتصلة بالعدالة في الغذاء و الصحة العامة.

إذن كيف تستخدم حركة ناشئة الفرصة على الساحة العالمية؟ أعتقد البدء بتحديد رؤية كبيرة و جريئة – هذا النوع من الرؤى التي يعتقد الكثيرون أنها بعيدة المنال، ثم نضع لها استرتيجية تكشف المؤمنين من المتشككين و القياديين من بين المؤمنين ، و بهذا تصبح فكرة التعاون بين الأديان الكبيرة و الجريئة قاعدة اجتماعية مثلما أصبح الاهتمام بالبيئة و حقوق الإنسان و التعددية الثقافية والعمل التطوعي من القواعد الاجتماعية، و سوف نتيقن من أن التعاون بن الأديان قد أخذ طريقه عندما نتوقع ببساطة أن تشارك دور العبادة في مشروعات الخدمة المنتظمة للتعاون بين الأديان مثلما تقوم الآن بمشروعات الإسكان من أجل الإنسانية، و عندما يصبح الوضع القائم في المدن هو استضافة برنامج لإقامة يوم خدمة للشباب للتعاون بين الأديان و يحضره الألآف بما في ذلك المحافظ، و عندما تلتزم مقار الجامعات بأن تكون نماذج للتعاون بين الأديان ، و عندما يصبح التحامل الديني يتعرض للتحديات بنفس التكرار و الكثافة التي يتعرض لها التعصب العنصري.

هذه هي إستراتيجية النواة الشبابية للأديان، أولا عليك أن تكون جريئا في نشر رؤية التعاون بين الأديان، لا يخجل المتطرفون الدينيون و المتعصبون الدينيون من الصراخ عاليا بأفكارهم من أعلى مكان و نحن نريد أن ننافس و في النهاية أن نتغلب على آليات رسالتهم نحن نبني في النواة الشبابية للأديان إدارة اتصالات على أحدث طراز بهدف استخدام كل

القنوات المتاحة لنا – من الصحف الجامعية إلى شبكة سي.إن.إن و من المواقع الاليكترونية علي الشبكة الدولية إلى منبر البيت البيض – للدفع قدما بفكرة أن هذا القرن يحتاج لأن يتسم ببناء الجسور بين المجتمعات الدينية و ليس بزرع القنابل. ثانيا مساعدة التعليم العالي لكي يصبح نموذجا للتعاون بين الأديان، فإنه لدى الجامعات بالفعل هيئة من الطلاب ينتمون لأديان متنوعة و لديها التزاما بالمشاركة المدنية والقيادة الطلابية و الرغبة في أن تكون في الصفوف الأمامية للتغيرات الاجتماعية الهامة، و مثلما أصبحت المقار الجامعية نماذج للتعددية الثقافية والاهتمام بالبيئة مع وجود برامج ملموسة تلتزم بانجازها يمكنها أن تصبح نماذج للتعاون بين الأديان. و تريد النواة الشبابية للأديان أن تعمل مع خمسمائة جامعة على مدى عدة سنوات قادمة لمساعدتها على السير قدما نحو هذا الهدف. ثالثا نريد أن نوحي و ندرب و نجند كتلة كبيرة من الشباب كقيادات للتآخي الديني، و كانت هذه هي الرؤية الحية للنواة منذ البداية و بقيت حجر الزاوية حتى الحوارات اليوم، و يمتلك قادة التآخي الديني الرؤية و قاعدة المعرفة و المهارات جاهزة من أجل تغيير المحادثات السلبية عن التنوع الديني إلى محادثات إيجابية لإطلاق مشروعات للتعاون الديني و تحويل البيئة (بيوتهم و مقار جامعاتهم و مدينتهم) إلى نماذج للتعاون بين لأديان.

منذ مائة عام كانت عبارة "نشطاء البيئة" أو "نشطاء حقوق الإنسان" غير معروفة على نطاق واسع في ثقافتنا كانت أدوارا اجتماعية تطورت مع تنامي اهتمام المجتمعات بتأثيرنا على كوكب الأرض و بدأت تقبل فكرة أن هناك حقوق أساسية يجب أن تتوفر لكل إنسان، و مع تزايد فهمنا لأهمية التفاهم و التعاون بين الأديان يأمل النواة الشبابية للأديان أن يجعل من عبارة "قائد للتعاون/التآخي الديني" صفة شخصية جديدة داخل ثقافتنا ديني و شيئا يصبو الشباب المثالي للوصول إليه، و في النهاية يصبح هناك جيل من قادة التعاون الديني يجعلون منه نمطا اجتماعيا، إن مهمتنا في النواة الشبابية للأديان هي اجتذاب و توفير الموارد و تكوين شبكة لهذا الجيل من قادة التعاون الديني و مشاهدتهم و هم يقومون بتغيير العالم.

شكر و تقدير

تحرر هذا الكتاب بعناء شديد على يد مجموعة و يحمل أيضا بكل فخر بصمات الكثيرين والكثيرين الآخرين، أشكر " بيل أيرز" لاقتراحه أن هناك قصة تطوف في رأسي و تستحق الرواية و لتقدبمي للأشخاص الرائعين في دار نشر "بيكون بريس" ، و شكر خاص لمن قامت بعملية التحرير في "بيكون" وهي "إيمي كالدويل" التي قد تكون أنفقت وقتا في تصحيحات المخطوط الأصلي أكثر مما فعلت مع أي كتاب آخر قامت بتحريره، إن المساندة التي قدمها لي كل من "سواني هانت" و جيمس جيسون" و "آرون أوليفر" و "رون كينامون"جعلت هذا لكتاب أيسر و أكثر متعة في كتابته، شكرا لكل من "سيسيليا ويس"و "نيك برايس" و "إيريك وليامز" لمساعدتي في البحوث من أجل هذا الكتاب"،و شكرا لكل من "حسين رشيد" و "جين ريتشتمان" و "جيف بينزينو" و "جنيفر زلوتوف" و "روي باهات" و "رضا أصلان" لمراجعة المخطوط بعناية و توفير رؤاهم القيمة، إن هذا الكتاب هو نتاج المحادثات مع مجموعة العمل و المجلس و كل الشباب في النواة الشبابية للأديان و كذلك زملائي في حركة الأخاء الديني الموسعة، وهو محصلة لرؤيتهم و طاقتهم و صداقتهم.

لقد وفرت لي والدتي و والدى و أخي دائما التوازن الصحيح للتحديات و المساندة لي في كل مساعي المجنونة، أشكرهم لتقديم نفس الحب لهذا الكتاب، و أخيرا شكرا لزوجتي "شاهيناز منصوري" التي تجسد في شكل إنساني الكثير من القيم الأساسية للعقيدة الإسلامية ـ المودة و الرحمة و الصبر والثبات و التي قرأت مسودة تلو المسودة و قامت بتصحيح الأخطاء الكبيرة و سمحت بالصغيرة منها و ظلت أفضل أصدقائي و شريك لي طوال الوقت.

بيان المراجع

هذا كتاب – مثله مثل كثير من الشخصيات الواردة فيه – التي تعيش عند مفترق الطرق بين مختلف المجالات و الحركات والنماذج الأصلية: الإرهابيون و أبطال العقائد والشموليين الدينية و التعدديون الدينيون و أصحاب نظرية الريادة الاجتماعية والأكاديمية و الأحداث و التقاليد القديمة و "هارلم" الحياة و "جنات" الفكر، ولذلك فمصادره متنوعة بالمثل، كثير منها متضمن في النص. و الغرض من هذا البيان هو إعطاء القارئ إحساسا بالمكان الذي تأتي منه بعض المواد المعينة و اقتراح الطرق للمزيد من القراءة.

بالنسبة للأحداث الجارية اعتمدت على الصحف و الدوريات المحترمة بما في ذلك "نيويورك تايمز" و "نيويوركر" و "فورين أفيرز" و "نيو يورك ريفيو أوف بوكس" و "أطلانتيك مونثلي"، و بالنسبة للمعلومات عن تفجيرات قطارات لندن استخدمت أيضا عدة مصادر بريطانية و تشمل "الجارديان" و "الإنديبيندانت" و إذاعة "بي.بي.سي." و التقارير الرسمية للحكومة البريطانية عن التفجيرات، أما معلوماتي عن "إيريك رودولف" فقد جاء الجزء الأكبر منها من تقارير صحيفة "نيويورك تايمز" عن القبض عليه و محاكمته و من كتاب عنوانه "مطاردة إيرك رودولف" الذي كتبه "هنري شاستر" مع "شارلز ستون".

أروي في هذا الكتاب قصصا معينة عن العنف الديني، و مصدري الرئيسي القومية الهندوسية في الهند تقريرا ممتازا عنوانه "التبادل الخارجي للكراهية – Foreign Exchange of Hate "، و كان مصدري لقصة "يوسي كلاين هاليفي" الذي تحول إلي يهودي متطرف على يد "ماير كاهانا" فقد كانن سيرته الذاتية "مذكرات متطرف يهودي"، و تأتي منه الاقتباسات الواردة في الفصل السابع من هذا الكتاب.

هناك كتب عديدة عن أسباب العنف الديني، و للحصول على معلومات عن جذور العنف الإسلامي و القاعدة و ١١ سبتمبر وجدت "البرج الذي يلوح في الأفق – The Looming Tower" الذي كتبه "لورانس رايت" و "الجندي الكامل - The perfect Soldier " للكاتب "تيري ماكديرمونت" و " المشهد الطبيعي للجهاد – Landscape of the Jihad" تأليف "فيصل ديفجي" و "رسائل للعالم: بيانات أسامة بن لادن – Messages to the World: The Statements

of Osama bin Laden" الذي كتبه "بروس لورانس" كلها مفيدة بصفة خاصة. أما عن القضايا العامة المتعلقة بالعنف الديني فقد أعجبني كتاب "كارين أرمسترونج" و عنوانه "معركة للرب – The Battle for God "و كتاب "جسيكا شتيرن" المعنون " الرعب باسم الرب- Terror in the Name of God" و كتاب "مارك جورجينسماير" : "الرعب في ذهن الرب – Terror in the mind of God "و كتاب "عندما تتصادم العقائد – When Faiths Collide " تأليف"مارتن مارتي" ، و كتاب "مارتن مارتي" مع "سكوت أبلباي" و عنوانه " المجد و السلطة – The Glory and the Power "وهو كتاب سهل الاستخدام يقوم على أساس من كتابهما الذي صدر في عدة أجزاء "مشروع الأصولية – Fundamentalism Project ".

هناك فئتان تعملان عبر الزمن لانتاج كتب تسيئ للإسلام: المتطرفون الإسلاميون ثم المصابون بالرعب من الإسلام، كم كان العالم سيكون أفضل إذا كانت هاتان المجموعتان قد اجتمعا في غرفة واحدة و لقراءة كتب بعضهم البعض ، (إذا بقوا بعيدا عن سلاحهم لمدة طويلة ربما تيقنوا مدى التشابه بين رؤاهم). حمدا لله هناك أيضا كتب ممتازة كثيرة عن الإسلام، و الكتب المفضلة لدي شخصيا تشمل " المواضيع الرئيسية في القرآن – Major themes of the Qur'an " الذي كتبه "فضل الرحمن" و كتاب "لا إلأه إلا الله – No god but God " بقلم "رضا أصلان" و كتاب "ما هو صحيح في القرآن هو صحيح في أمريكا – What's right with Islam Is What's Right with America" للإمام فيصل عبد الرءوف، و كتاب " القرآن و التحرر و التعددية- Qur'an, وكتاب "محمد – Muhammad " الذي كتبه "كارين أرمسترونج"، و كما بينت في الفصل الأول أن الولايات المتحدة قد حباها الله بأن لديها عددا من العلماء المسلمين ممن تعمقوا في الشريعة الإسلامية و يلتزمون بمشروع التعددية في أمريكا وخارجها ، أكبر من فى هذه المجموعة هو الدكتور عمر عبدالله العالم المقيم في مؤسسة النواوي في شيكاجو. فبحوثه لا فى الإشادة، فإنها لم تبصر كثيرا من الشباب المسلم بجمال عقيدته فحسب و لكنها وفرت أيضا بنية فكرية للإسلام في القرن الحادي و العشرين يظل صحيحا لأصول الشريعة و يسعى ليس فقط للتأقلم لأمريكا و لكن أيضا للمساهمة فيها، و تشمل هذه البحوث "الإسلام و الحتمية الثقافية – Islam and the Cultural Imperative " و "الرحمة طابع الخلق –Mercy, the Stamp of Creation " و "التجديد و الإبداع في الإسلام

Innovation and Creativity in Islam" – و يمكن العثور عليها في الموقع الشبكي لمؤسسة النوواي www. Nawawi Foundation.و للمزيد من المعلومات عن أغا خان و شبكة أغا خان للتنمية و الطائفة الاسماعيلية يمكن زيارة مواقع معهد الدراسات الاسماعيلية " Institute of Ismaili Studies) و شبكة أغا خان للتنمية (Aga Khan Development Network) .

يشمل هذا الكتاب نظريات دينية و نظريات في التعددية، و يمكن العثور على النظريات الدينية المفضلة لدي في كتابين صغيرين، كتاب "ويلفرد كانتويل" و عنوانه - " عقيدة الرجال الآخرين - The Faith of Other Men" الذي كتبه "ويلفريد كانتويل سميث" في أوائل الستينات من القرن الماضي في وقت كانت فيه أمريكا تتقبل أخيرا وجود اليهود و الكاثوليك و ذلك بسنوات طويلة قبل أن تتنبه للطوائف الإسلامية و الهندوسية و البوذية المزايدة. و كأنما كان "سميث" ينظر في كرة بلورية قال: " إن حياة الجنس البشري من الآن فصاعدا – إن كان لها أن تحيا أصلا – ستعيش في إطار التعددية الدينية"، لقد كان يحدوه تفاؤل حذر عن هذا الاحتمال و لكنه حذر من أنه سوف يتطلب – و بصفة خاصة من أقرانه المسيحيين – ممن عليهم أن يروا عقيدة غيرهم على أساس أنها ضاربة بجذور عميقة و حقيقية مثل عقيدتهم، دعا "سميث" لمجال للبحث لا يركز كثيرا على النظم الدينية بل على رجال الدين – و بعبارة أخرى يهتم أكثر بفهم أسلوب معيشة البوذيين والمسيحيين معا من الاهتمام بما إذا كانت البوذية و المسيحية فيهما نقاط لاهوتية مشتركة. كتابي المفضل الثاني في النظرية الدينية هو كتاب عزيز إسماعيل "شاعرية التجربة الدينية – "The Poetics of Religious Experience، و يستخدم أمثلة من الإسلام لتبين أنه يمكن فهم الأديان بشكل أفضل كشرائع لها جوهرها الذي تفسره طائفة من المؤمنين و تعبر عنه بعدة أساليب عبر الزمان و المكان، و الرؤية الأساسية للإسلام يمكن النظر إليها على انها الخضوع لإرادة الله و هي فكرة جوهرية يتقاسمها المسلمون من في شمال أفريقيا و القرن العاشر إلى من في أمريكا الشمالية في القرن الحادي و العشرين إلا أنها تفهم و توضع موضع التنفيذ بشكل مختلف.

من الإسلام لتبين أنه يمكن فهم الأديان بشكل أفضل كشرائع لها جوهرها الذي تفسره طائفة من المؤمنين و تعبر عنه بعدة أساليب عبر الزمان و المكان، و يمكن النظر للرؤية الأساسية للإسلام على انها الخضوع لإرادة الله و هي فكرة جوهرية يتقاسمها المسلمون في

شمال أفريقيا منذ القرن العاشر الميلادي إلى المسلمين في أمريكا الشمالية في القرن الحادي و العشرين، إلا أنها تفهم وتوضع موضع التطبيق بشكل مختلف.

تزايدت الكتابات الخاصة بالتعددية، و الكتب المفضلة لدي عن التعددية في أمريكا "ماذا يعني أن تكون أمريكيا - What it means to be an American " تأليف "مايكل والتزر" و "الواحد و الكثير- The One and the Many "للكاتب "مارتن مارتي، و يشمل الكتاب الأخرون في هذا المجال "أنتوني آبيا- ويل كيمليكا - جون بيري- آمي جاتمان - تشارلز تيلور"، و في مجال التعددية الدينية بالتحديد أجد نفسي باستمرار أشير إلى كتابي "ديانا إيك" الممتازين في الموضوع "مقابلة الله- Encountering God "و "أمريكا جديدة متدينة – A New Religious America ". و قد كتبت كتب أكثر فأكثر عن تاريخ التعاون الديني، Liberation and Pluralism " بقلم فريد إسحاق ويعجبني بصفة خاصة كتاب "ماريا روزا مينوكال" زينة العالم – Ornament of the World " و هو مجموعة من المقالات القصيرة الغنائية عن الأندلس في القرون الوسطى حيث كان المسلمون و المسيحيون و اليهود يعيشون معا بروح من الإثراء المتبادل، و هناك أيضا كتابات متزايدة عن حركة التقارب الديني، و يمكن العثور على تاريخ ممتاز للحركة في كتاب "ماركوس برايبروك" المعنون "حجة الأمل – Pilgrimage of Hope "، و قد شاركت في تأليف كتاب مع " باتريس برودر" و لعب دورا رئيسيا في مبادرات عديدة للتقارب الديني و عنوانه "بناء حركة الشباب للأديان – Building the Interfaith Youth Movement "، و قد ركزت صحيفة "كروس كارينتس- Cros Currents" على التعاون بين الأديان لسنوات عديدة وتعتبر صحيفة "انتر رليجيوس إنسايت- Interreligious Insight" جيدة أيضا

إن حركة ريادة العمل الاجتماعي من القوى الجديدة المثيرة في زمننا، و قد شرفت بأن النواة الشبابية للأديان تعتبر جزء منها، و كتاب "دافيد بورنشتين" و عنوانه " كيف تغير العالم –How to change the World " هو كتاب ممتاز لتاريخ ريادة العمل الاجتماعي و قد قام بمهمة جيدة في توضيح تميز هذه الحركة و التعريف بمؤسسها "بيل درايتون" من منظمة "أشوكا"، و هناك مذكرات ممتازة كتبها رواد العمل الاجتماعي عن الكيفية التي بدأوا بها منظماتهم، و هناك اثنتان جيدتان و حديثتان إحداهما : " في يوم ما ، كل الأطفال – One Day,

All Children ..." عن بدايات مشروع " علِم من أجل أمريكا" و الآخري للحاصل على جائزة نوبل محمد يونس وعنونها "بنك الفقراء – Banker to the Poor" عن تأسيس بنك جرامين و مجال التمويل الأصغر، و عن الأمثلة لرواد العمل الاجتماعي القدامى يمكن رؤية مؤلف "سول ألينسكي" المعنون " قواعد للراديكاليين- Rules for Radicals " عن تنظيم المجتمع، و كتاب "جين آدمز" و عنوانه "عشرون عاما في دارهال هاوس – Twenty Years at Hull House و يتناول بدايات تأسيس حركة الدار، و هناك سيرة ذاتية ممتازة كتبها "ألينسكي" تسمى "دعهم يسمونني متمرد – Let them call me Rebel" و عدد آخر جيد منها لجين آدمز تشمل واحدة كتبها عالم اللاهوت"جان بيثكي إلشتين".

جاء أكبر من ألهمني عند كتابتي هذا الكتاب مستمدا من أبطال الإيمان الذين ظهروا كقادة في سن المراهقة و في العشرينات من عمرهم و قاموا ببناء حركات ذات طابع عميق في التقارب الديني، و الرئيسيون بين هؤلاء هم "نيلسون مانديلا" و "دوروثي داي" و "مارتن لوثر كينج الإبن" و"مهاتما غاندي"، وقد كتب كل منهم سيرته الذاتية الواضحة و التي يوصي كثيرا بقراءتها، وبالإضافة لذلك أحب الأجزاء الثلاث للكاتب "تيلور برانش" التي تنصب على حركة الحقوق المدنية "أمريكا في سنوات كينج – America in the King Years" و كذلك كتابات و خطب "كينج" التي تم تجميعها تحت عنوان "وصية للأمل – A Testament of Hope " و حررها "جيمس واشنطن"، و أذكر أني بقيت طوال الليل في سريري و أنا في الهند تساعني على الأرق مستعمرة من البق المفترس لكي استكمل حياة غاندي التي كتبها "لويس فيشر" ، و أشهر ترجمة لحياة مانديلا هي تلك التي كتبها " أنطوني سامبسون "، و أقترح أيضا تراجم حياة "عبد الغفار خان" و هو معروف أيضا باسم "بادشاه خان" وهو مسلم من طائفة "الباشتون" عمل عن قرب مع غاندي لتحرير الهند.

و إذا كان هناك شخص واحد فقط قد قام بدور الموجه الفكري لهذا الكتاب سواء بالنسبة للأسلوب أو الرؤية فإنه "جون بالدوين"، لقد جمعت مكتبة أمريكا مجموعة شاملة لكتبه غير الروائية في عدد واحد جميل حرره " توني موريسون"، و يشمل كتبه الثلاث الأكثر اهمية : The Fire Next time – Notes of a Native Son - Nobody Knows My Name" و كذلك عددا من البحوث و الأحاديث، إذا تم استبعادي نفيا إلى جزيرة صحراوية و سمح لي بكتاب واحد

لاخترت بعد نسختي الانجليزية من القرآن الكريم الكتاب المجمع لأعمال "بالدوين" غير الروائية.